

# المجتمع والحياة

دراسة على ضوء الكلم الطيب

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور/ علي عبد المنعم عبد الحميد

الأستاذ بجامعة الكويت

---

الناشر

دار طيبة للنشر والتوزيع

والتجهيزات العلمية

الترقيم الدولي 7-38-6102-977  
رقم الإيداع 2007/21099

## المجتمع والحياة ج2

تأليف: د. على عبد المنعم عبد الحميد

© حقوق النشر والتوزيع محفوظة لدار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية - 2007  
23 شارع الفريق محمد ابراهيم - متفرع من مكرم عبيد - مدينة نصر القاهرة ج.م.ع  
تليفون : 2725376-2725312 - 6706912 (02)  
فاكس : 6706912 (02)

لا يجوز نشر أى جزء من الكتاب أو إعادة طبعه أو اختصاره بقصد  
الطباعة أو اختزان مادته العلمية أو نقله بأى طريقة سواء كانت  
الكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك دون موافقة كتابية من  
الناشر مقدماً .

قال الله تعالى :

« هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ  
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ  
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي  
ضَلَالٍ مُبِينٍ »

(سورة الجمعة آية : 2) .

obeikandi.com

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين وبعد :  
فأحمد الله جلّت قدرته الذي أعاننى على إخراج الجزء الثانى من هذه الدراسة  
الخاصة بالأحاديث الشريفة بأسلوب أرجو أن يكون فى متناول القراء جميعا ؛ على  
مختلف ثقافاتهم ، حتى يتسنى لهم إدراك التوجيهات النبوية الكريمة إلى المثل  
الفاضلة لبناء مجتمع إسلامى قائم على هدى من الله ورسوله ؛ وأن يساهم فى جهود  
الموجهين المخلصين من العلماء والباحثين فى نشر السنة الشريفة بين الأجيال  
الناشئة ليرتبطوا بثقافتهم الأصلية وتراثهم العظيم ، والله الموفق والمستعان .  
وصلّى الله وسلّم على سيدنا وحبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان  
إلى يوم الدين .

### دكتور

على عبد المنعم عبد الحميد  
من علماء الأزهر الشريف

### وحاصل على الدرجات العلمية :

- 1- دكتوراه فى الفلسفة (اتنولوجيا) من جامعة باريس بتقدير جيد جداً .
- 2- دكتوراه دولة فى الآداب والعلوم الإنسانية من (السرّيون) بفرنسا مع مرتبة الشرف الأولى .
- 3- أستاذ التفسير والحديث والعقيدة بجامعة الكويت .

obeikandi.com

## فطر نقية

1- قال ابن هشام : بلغنى عن الزهرى أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« سلمان منا أهل البيت » :

2- ورد فى صحيح البخارى ، كما جاء فى صحيح مسلم عند الكلام على بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما نصه : « فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد ابن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .... إلخ » .

1- برأ الله جلّت قدره الخلق جانحين إلى التوحيد ، نافرين من الشرك ، متعقبين البراهين الموصلة إلى معرفة ربهم وذلك هو الدين القيم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

(سورة الروم آية : 30)

وروى الشيخان فى صحيحهما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ) .

فالعقل الإنسانى فى أصل تكوينه صحيفة بيضاء قابلة لاستيعاب ما ينقش فيها ، كالأرض الطيبة يخرج نباتها باذن ربها ، متنوعا مختلفا أكله كما يفرسه زارعوه ، والإنسان ترد عليه المعارف فيقبلها والخير أغلب على طبعه من الشر ، فلا تتغير فطرته إلا بمعلم كالأبوين يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما نص الحديث الشريف ، ولو ترك الوليد وشأنه لعرف ربه بفطرته ، بل واستدل على وحدانيته بشواهد ما يرى وببصر فى الكون المحيط به .

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون لبعدهم عن التدبير أو لوجودهم فى بيئة خاصة ومنشأ انحرف بهم عن الجادة اللاعبة . وأعمى بصائرهم عن الضياء الذى يغمر الوجود ، فلبثوا فى غياة الجهالة والتقليد المنحرف .

ولهذا يجذب انتباه الباحث فى تاريخ العقائد وخاصة (الإسلام) بروز شخصوس سلمت فطرتهم من الشرك ، فنفرت طباعهم من الخنوع لطواغيت لا تسمع ولا تبصر ولا تغنى من الحق شيئاً ، ومن المعجب المطرب أن نتأمل حديث إبراهيم إلى قومه ، ذلك القول المتسائل ، وفى رفق وقوة معاً لم يجدوا له جواباً عن قدرة المبدع العاصم رسله من الناس قال تعالى : ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ<sup>(69)</sup> إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ<sup>(70)</sup> قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَاكِفِينَ<sup>(71)</sup> قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ<sup>(72)</sup> أَوْ يَنفَعُوكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ<sup>(73)</sup> قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ<sup>(74)</sup>﴾ (1) .

ومثل هذه العقليات التى تقيم على التقليد غير مبصرة ما يداعب أبصارهم فى أصباحها وأمائها من آثار قدرة بديع السموات والأرض ، لا جواب لها إلا المجابهة بالرفض الباتر لمعتقداتها البعيدة عن الانخراط فى سلم المعقولات الواضحة الاستقامة فى معطيات العقول الناضجة الباحثة الفاقهة ، وعلى هذا أجاب إبراهيم : ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ<sup>(75)</sup> أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ<sup>(76)</sup> فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ<sup>(77)</sup>﴾ (2) .

ويدل ذلك على أن من آباؤهم من هدته فطرته النقية إلى معرفة قيوم السموات والأرض ، ثم علل عليه السلام عبادته رب العالمين بما لا تستطيعه آلهتهم ولا بدلهم فى الوصول إليه قال : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِي<sup>(78)</sup> وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي<sup>(79)</sup> وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي<sup>(80)</sup> وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي<sup>(81)</sup> وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ<sup>(82)</sup>﴾ (3) .

(1) الآيات من 69 إلى 74 من سورة الشعراء .

(2) الآيات من 75 إلى 77 من سورة الشعراء .

(3) الآيات من 78 إلى 82 من سورة الشعراء .

وقد وجد من سلمت فطرته من الشوائب ، فحاولت التفلت من موروثات مجتمعها وتقاليد ، وندت بعيداً عنه الحق فاهتدت ، وممن التقينا بهم فى هذا الدرب ناشدين المعرفة والجرين فى نور رب العالمين جماعة نبتوا قبيل بعثة سيدنا رسول الله ﷺ ، فلما آذنت بالظهور على مسرح الحياة كانوا أول المتابعين بقوة يقين وقلب سليم ونعرض هنا طرفاً من أخبار بعضهم أمثال : سلمان الفارسى ، ثم ورقة بن نوفل وربما مزيداً من أولئك الرجال الذين قدر عقولهم حق قدرها وساروا على ضوئها وارتفعوا بإنسانيتهم عن دركات العقائد المسفه فى الإنحطاط ، عسى أن يكون فى ذكراهم العطرة داعية توجيه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

2- أما خبر سلمان الفارسى فقد أوردته المراجع الأصلية فى السيرة العطرة وروته عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : (حدثنى سلمان الفارسى وأنا أسمع من فيه ، قال : نشأت فى أصبهان وكان والدى شيخاً للقرية عارفاً بالفلاحة مرجعاً للناس فيما يصلح الأرض وما تجود به زراعتها ، وكان شديد الشغف بى ، بلغ من شدة حرصه على أنه كان يحبسنى فى بيته كما تحبس الجارية ، ولقننى المجوسية وبالغت فى الاجتهاد والعبادة للنار حتى صرت خادمها الذى يمنعها أن تخبو لحظة لتعظيمى إياها وكانت لأبى ضيعة عظيمة بعثنى يوماً إليها وأمرنى ببعض ما يريد منها ، وأمرنى أن لا ألبث هناك طويلاً ، فلما كنت فى بعض الطريق إلى تلك الضيعة مررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت إلى أصواتهم وهم يصلون ، فولجت عليهم لأنظر ماذا يصنعون ، فأعجبتنى صلاتهم وملكت على لى ، وأدركت أن أمرهم هذا خير من الدين الذى نحن عليه فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبى فلم أصل إليها ، وسألت القوم أين أصل دينهم ؟ قالوا : بالشام ، فغادرتهم قافلاً إلى أبى ، وقد أعياه البحث عنى سحابة يومه ، فلما واجهته ابتدرنى قائلاً : أين كنت ؟ قلت : يا أبت مررت بأناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما شهدت من دينهم . فقال : ليس فى ذلك الدين خير ، دينك ودين آباءك خير منه ، قلت : كلا والله ، إنه لخير من ديننا وقد شغفنى حباً وسيطر على كل جوانحى ولم يعد لى مفر من البحث عن مصدره لأرى الأمر على جلبيته وأسبر غوره ، وأرى رأبى فيه ، فثار غضب أبى حتى جعل فى رجلى قيداً ليحول بينى وبين مبارحة داره ، ولكنى لم أستطع مقاومة ما يعتمل بين جوانحى من

التطلع إلى معرفة كنه الدين الذي شاهدت بعض طقوس معتنقيه ، فعزمت على الفكاك من أسر والدى لأستطيع الفرار إلى الشام مع أول قافلة متجهة إلى هناك وصحبت ركباً من تجار النصارى حتى قدمت الشام ، فلما وصلتها بحثت عن أفضل أهل هذا الدين علماً به فدللت على أسقف فلما جئته قلت له إنى رغبت فى هذا الدين فأجبت أن أكون معك وأخدمك فى كنيسةك فأتعلم منك وأصلى معك ، ودخلت معه ، ولكنى وجدته رجل سوء ، فقارفته إلى آخر ما رأيت أفضل ولا أزهد فى الدنيا منه .

فلما حضرته الوفاة طلبت إليه أن يدلنى على من أواصل معه رحلتى إلى الله فأرشدنى إلى رجل بالموصل ، فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب الموصل فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه ، فلم يلبث أن مات ، وكان قد أمرنى باللحاق بآخر فى نصيبين فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبه ولما حضرته الوفاة قال : لم يبق على أمرنا أحد أمرك أن تأتبه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم ، فلما وصلت إلى عمورية وجدت صاحبى على هدى أصحابه وأمرهم ، وما زال سلمان رضى الله عنه ينتقل من مكان إلى آخر حتى وصل إلى من قرأ له بشارات الإنجيل بظهور نبي قد أظله زمانه مصداقاً لقوله تعالى فى سورة الصف بالآية السادسة ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وأخبره بأن لهذا النبي فى الإنجيل ثلاث علامات : أنه يخرج بأرض العرب ، وأنه لا يأكل الصدقات ، وأن بين كتفيه خاتم النبوة .

يقول سلمان فسرت إلى أرض العرب حتى التقيت بنفر من كلب تجار ظلمونى فباعونى إلى رجل يهودى عبداً أقمت عنده بيثرب حتى بعث النبى ﷺ وهاجر إلى المدينة ، ويتابع سلمان حديثه إلى عبد الله بن العباس رضى الله عنهم قائلاً : فو الله إنى لقي رأس عذق لسيدى أعمل له بعض العمل وسيدى جالس تحت النخلة إذ أقبل ابن عم له فقال : يا فلان قاتل الله بنى قبيلة ، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم يزعم أنه نبي ، قال سلمان فلما سمعتها أخذتنى (العرواء)<sup>(1)</sup> حتى ظننت أنى سأسقط على سيدى فنزلت عن النخلة ، ولما أمسى

(1) العرواء : برد الحمى . عن لسان العرب مادة : عرا .

المساء تسللت ذاهباً باحثاً عن رسول الله ﷺ ، فجنثته وهو جالس في أصحابه فسملت عليه وتحققت من أنه هو المبشر به ، وقد كان أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ) . فأمرني ﷺ أن أكتب فكاتبت صاحبي ووفيته حقه وأصبحت حرراً طليقاً من قيود العبودية ولزمت رسول الله ﷺ .

هذا مثال الرجال الذين لم يطمس الله على بصائرهم ، وسلمت لهم فطرهم النقية ، فأدركوا أن للكون رباً لا يمكن أن تمثله النار أو الأصنام التي لا تحس ولا تعي ، ومن عجب أن يصوغها الإنسان بيده ثم يضعف أمامها فيعبدها ، حقاً إن هذا لهُو الضلال المبين ، راح الأفاذ في إدراكهم ، وصفاء قرائنهم يبحثون مستسهلين كل صعب ، متخططين الحواجز مهما كانت صلابتها فما وقفت أمامهم عقبة ولا لانت قناتهم لملمة ، ولا أحنوا ظهورهم لمشكلة بل تعالوا بعزائمهم على كل المعوقات فاجتازوها في يسر أو في شدة حتى خضعت لإصرارهم كل القوى وفازوا بما ييغون ، أولئك الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح من عنده فرحم الله سلمان ورضى عنه .

ولنترك سلمان الفارسي إلى رجل عربي من مكة وصحب له ما رأوا في عبادة الأصنام إلا أفنا في الرأي وبلادة في الحس ، وإهداراً لكرامة الإنسان العاقل الذي كرمه ربه وفضله على كثير ممن خلق فخرجوا يتلمسون الهدى من مظانه ويقطعون الفيافي باحثين عن الحقيقة الكامنة وراء مظاهر الكون وعجائبه ، والذين كان منهم ورقة بن نوفل وصحب له ، عافوا الطواغيت وعابوها ، ولوها أدبارهم وهجروها فتداركهم الله بفضله وهداهم صراطاً مستقيماً .

3- وما حديث ورقة بخاف على دارسى تاريخ الإسلام فقد اقترن اسمه بأول بادرة وحى إلى رسول الله ﷺ والتصق حديث التاريخ عنه باسم أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ابنة عمه وزوج سيدنا محمد ﷺ واسم الروح الأمين جبريل وأول ما نزل من الذكر العظيم هدى ورحمة للعالمين ...

وأما خبره قبل البعثة الشريفة فقد حدث عنه ابن اسحق وابن هشام والطبرى وغيرهم قالوا : ... اجتمعت قريش يوماً في عيد صنم لهم كانوا يعظمونه وينحرون له ويطوفون حوله فخلص منهم أربعة نفر نجيا ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنتم

بعضكم على بعض ، قالوا : أجل ، وكان منهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، فقال تعلمون والله ما قومكم على شئ . . لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم . . ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شئ ، ففرقوا في البلدان يضرّون في الأرض يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم .

ويروى ابن حجر العسقلاني أن ورقة : (سافر إلى الشام فأعجبه دين النصرانية فتنصر وكان لقي من الرهبان من هو على دين عيسى عليه السلام ولم يبدل ولهذا أخبره بشأن النبي ﷺ والبشارة به إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل) وقد أجاد ورقة تعلم اللغة العبرية فكان يكتب بها ما يشاء وينقل منها إلى اللغة العربية ما يشاء ، وقيل أنه كان يكتب من الإنجيل ، ولا يحفظ لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسراً كحفظ القرآن الذى هو من خصائص الأمة الإسلامية والتي جاء فى صفتها : (أناجيلها صدورها) أى أنها تعى القرآن حفظاً وهذا مما كان على عهد رسول الله ﷺ ولا يزال ، ولما نزل الوحي على رسول الله ﷺ وأخبرت خديجة رضى الله عنها ورقة بما كان من أمره عليه السلام قال ورقة كما يروى اسحق : (قدوس قدوس ، والذى نفسى بيده لئن صدقتينى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان ينزل على موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة فقولى له : فليثبت) .

وبينما يطوف رسول الله ﷺ بالكعبة كعادته لقيه ورقة بن نوفل فقال يا ابن أخى : أخبرنى بما رأيت وسمعت ، فأخبره ، فقال ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولتكذبه وتؤذينه ، ولتخرجنه ، ولتقاتلنه ، ولئن أدركنى يومك لأنصرن الله نصرأ يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه (واليافوخ وسط الرأس) ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله ، ويروى السهيلي أنه لما توفى ورقة قال رسول الله ﷺ : (لقد رأيت القس فى الجنة وعليه ثياب الحرير لأنه آمن بى وصدقنى) . وهذا الحديث أسنده البزاز .

وقصة ورقة تعطى صورة كريمة لشخصية عربية عرفت السبيل إلى الحنيفية ولم تكتف بظاهر القول بل تعدى ورقة ما سمع وأراد أن يتيقن مما يجول حوله فتعلم

العبرية وأجادها ونقل منها إلى لغته الأصلية لغة الضاد ، وورقة مثال واضح القوة قوة الدلالة على استعداد العربي لتقبل الثقافات المختلفة منذ أقدم عصوره وهو يوضح لنا سر نبوغ المسلمين في كل الميادين بعد الإسلام ميادين السلم والحرب على السواء ، وفي التاريخ شاهد على ما نقول .

4- والخلاصة : أننا نلمس في كل عصر من مراحل الزمان وحقبة المتباينة وجود رجال بعدوا عن التقليد وربأوا بأنفسهم عن حماة السفهاء ، واستخدموا فطرتهم النقية في الوصول إلى الإيمان البعيد عن الشوائب عن قلة ما عرفوا من أسرار الوجود ، وضآلة ما أدركوا من علوم ، وهذا يقطع عذر المتخبطين في دياجير الظلام النفسى في عصر كشف العلم فيه قناعة ، وأبدى العقل قوته على فك طلاسم ما يحيط به مما يبشر بما هو أبعد مما نرى ونشاهد وما نسمع وما نلمس فأولى لمن يقدر نفسه قدرها ، ويعطى عقله التقييم اللائق به ، ويعتد بوجوده كإنسان لوجوده خطره في هذا الحياة . أن يتجاني عن التقليد وأن لا يخضع لما يحمله إليه أعداء أمته . وإنما يبحث مع الباحثين ملقيا دلوه في الدلاء حتى يصل بنفسه وفطرته النقية التي فطره الله عليها إلى الحقيقة الثابتة إلى الله الواحد الأحد . ويسير على ضوء ما رسمه سبحانه . وهنا تتحرر العقول من مستورد الأفكار . وبالتالي تنجو الأوطان من سيطرة أصحابها . وتخلص ثمرات البلاد لأبنائها وصدق الله العظيم القائل : ﴿سَتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الآية 52 من سورة فصلت .

## البدعة في الدين والمقصود منها

عن عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ :  
(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ) رواه البخارى . وفى  
رواية الإمام مسلم : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد ) .

1- مفردات هذا الحديث الشريف تفقه لغويا هكذا : أحدث ، أتى بشئ لم يكن  
موجودا ، والمراد هنا : جاء بما لا ينتمى إلى قول أو فعل أو إقرار صادر عن رسول  
الله ﷺ (فى أمرنا) الأمر هو الشأن والحال غالباً والمراد هنا منه فى الحديث : الدين  
والشرع والتوجيه الذى تتضمنه تعاليم الإسلام (ما ليس منه ) أى منافيا له غير مستند  
إلى دليل شرعى ، ومناقضاً لما استقر عليه العمل باليقين فى عهد سيدنا رسول الله  
تناقضاً لا يمكنه من الإنطواء تحت أية مجموعة من إرشاداته عليه الصلاة والسلام ولو  
مجازا أو كتابة من قريب أو بعيد (فهو رد) أى مردود غير مقبول ، وباطل غير معتد به  
حيث لا وجه لإقراره من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس .

وقد تعرض السلف الصالح لهذا الكلم الطيب وأوسعوه شرحاً وتفصيلاً ، لأن  
لهذا الحديث الشريف أثره الفعال فى حياة المسلمين وعلى فهمه فهماً كاملاً وإدراك  
مرماه إدراكاً عميقاً - مع عدم الخروج عن مقاييس الإسلام الصحيحة - يتوقف كثير  
من تطور المسلمين فى حياتهم العامة والخاصة ، وكان مما ورد فيه عن السلف : أن  
كل ما يجد فى أمور الإسلام بعيداً عن أعمال الرسول وأقواله وتقاريراته فهو بدعة قد  
تكون حسنة وقد تكون سيئة ، وتطرف البعض تطرفاً عجيباً فى فهم الحديث فرأوا أنه  
لا بد أن نلبس كما كان يلبس رسول الله ، ونأكل ما كان يطعم ، ونمتطى الدابة التى  
امتطى أمثالها وبنى بيوتنا على غرار ما كان يسكن . . إلخ .

ما هنالك من معوقات ومثبطات ، وكان هذا نوعاً من المفهوم التى ظلم بها حديث  
رسول الله ﷺ ظلماً لا يقره عقل ولا يستند إلى دليل ، ويتعلق بالمظهر أكثر مما هو

والج في الجوهر ... وترتب على هذا انطواء مجموعة من المسلمين على أنفسهم وتخليهم عن المراكز القيادية التي ندبهم إليها الإسلام في كثير من آي الذكر الحكيم .. ومع هذا لم يخل عصر من عصور المسلمين من فاقه واع وحافظ مستنير ، وكان من هؤلاء الأجلاء الفقيه الحبر العز بن عبد السلام الذي قسم المحدثات بعد عصر رسول الله ﷺ إلى خمسة أقسام :

1- بدعة حسنة يجب على المسلمين أن ينفذوها بينهم وذلك كدراسة العلوم الجديدة ومعنى الجدة هنا حدوثها بعد عهد رسول الله ﷺ وضرب لذلك مثلا بما عرف في عهده كتعلم النحو وغريب القرآن والأحاديث لأنه يتوقف عليها فهم الشريعة فهما كاملا .

2- بدعة سيئة يحرم أن يخوض فيها المسلمون ومثل لذلك بتعلم مذهب الجبرية والقدرية وغيرهما مما يبعد عن العقيدة الصافية وكانت تلك المذاهب شائعة في عصره .

3- بدعة مندوبة يحسن الأخذ بها ولا يصح تركها كبناء القناطر والجسور والمدارس مما لم يعهد في القرن الأول ولم يوجد ما يدعو إليه بالصورة التي عاشت في عصر العز بن عبد السلام .

4- بدعة مكروهة كأحداث الصور وكتابة الآيات الشريفة على جدران المساجد من الداخل ، ورسم الصور على المصلى لأنها ملهية عن ذكر الله ومخرجه للمسجد عما جعل له وهي العبادة الخالصة لله وحده .

5 - بدعة مباحة ومثل لها : بالتوسع في المآكل والمشارب والملبس بشرط أن لا يخرج عن الحلال ولا يتجاوز نطاق المباح شرعا .. ومهما حاول متأخر أن يشقق القول في هذا الحديث الشريف ويفصل ويدل على طرق الخير فيه فلن يغير القاعدة ولن يبذل الأدلة البادية المستقرة في إيضاح هذا العالم العامل طيب الله ثراه ، وكل ما هنالك إيضاحات يستلزمها مرور الزمن وتطور والثقافات وتنقل الحضارات في مدارجها المتلاحقة .. وقبل تعميق البحث في تفاصيل هذا الحبر التقى رحمه الله .

أورد السيب الذى جعل موضوع الدرس هذا الحديث الشريف .. ذلكم أن  
الصاحب<sup>(1)</sup> : هذا الصديق العالم الغربى بدأ له بعد محاورة علمية دامت ثلاثة  
ساعات أن يرفه عن النفس بزيارة سوق باريس ( Paris ) أو معرضها سمه كما شئت وهو  
مكان فيسج يسمونه (Exposition Portded Versailles) تعرض فيه كل دول العالم المتحضرة  
أحسن إنتاجها وأحدث ما توصل إليه علماءها فى مختلف فروع العلوم ، وصاحبى  
عامل تمكن منه الأسلوب الهزلى الظاهر الجدى الباطن الواقع ، فبهزليته يستطيع أن  
يجذب إليه انتباه محدثيه ويجديته يحاول أن يغرس فى نفس السامع ما يريد ، وهو  
يحمل إنتاجها معتدلا نحو الإسلام ، وبحار فى تعليل واقع المسلمين فى أرضهم وبين  
مجموعة الدول المعاصرة ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الباحثين الغربيين أصدقاء  
كانوا لنا أو أعداء أو معتدلين .

مررنا بإنتاج دول الغرب فألقينا الجنى الباهر لجهود عقلية وعضلية ... صناعات  
مختلفة ترى من خلالها عراقسال ، وجهدا بذل ، وعقلا فكر ، وصبرا عجيبا على  
تركيب تلك المعدات والمواءمة بينها ، وتسخيرها فى خدمة الإنسانية وأحيانا - إن  
غضبت - فى دمارها .. شىء يذهل العقل ويحار فيه اللبيب .

ثم خلصنا من هذا الطوفان العجيب المتنوع من حصاد العقول المستنيرة إلى  
دول .. سمها إسلامية فى مجموعة فليست كلها من أرض العرب وحدهم .. فماذا رأينا ؟ ..  
شاهدنا قديما ضاربا فى القدم الزمانى وجميلا عريقا فى الجمال : سجاجيد فاخرة ..  
طنافس باهرة .. وأخرى تعرض المنح الطبيعية السهلة المنال .. زراعة ، ثمار الزراعة ..  
والعجيب أن إنتاج الأرض إن جاد فيرجع ذلك إلى فعل وتأثير عقلية غريبة أنتجت  
الآلات الحديثة للزراعة .. وأين الصناعات .. أين المخترعات . أين .. لا أين ولا ما  
يحل فى الأين ... وهنا جرى الحديث باحثا فى علة فقدان الاعتدال وانعدام التكافؤ  
فى الإنتاج .. ومال القول إلى طبيعة الشعوب والأجواء التى تعيش فيها .. وقدرة كل  
على التماسك العقلى وحصر الانتباه .. وتقدير المسؤولية ، مسئولية الوجود الآنى  
أمام الأجيال الصاعدة .

(1) صديق من أساتذة جامعة باريس (السيرون) .

وتساءل صاحبي .. لماذا يوجد إنتاج أرض المسلمين جودة لا تقل إن لم تفق أي أرض في الدنيا شرقية وغربية .. علل ذلك بالحاح حاجة الحياة اليومية .. فجودة الزراعة لا الزراعة فقط يتوقف عليها حياة المزارع ورفاهة أسرته فهو مضطر إلى الغدو مبكراً إلى ترابه باحثاً ومنقباً ، منكباً على ذلك التراب يقلبه ويخلطه بعرقه ودمه أحياناً حين تداعبه صلابة الأرض فتدمى يديه وقدميه محاولة اختبار مدى حبه لها وانجذابه إليها .. وهو لا يكمل ولا ينسى .. يفضل وعثاءها واستنشاق كديدها على أحدث مستحضرات دور الروائح العالمية .. فالعواطف بين المزارع وأرضه متبادلة تبادل الجهد والعطاء بينهما .. ثم تصاعد صاحبي إلى المصانع ملاحظاً أن ثمار الجهد فيها تخدم فالح الأرض وتعطيه مزيداً من الثمار بقليل من الجهد والدراسات العلمية الحديثة لتربة الأرض - ومحاولة الوصول إلى أعلى درجات سلم العطاء الزراعي متواصلة الآن - وقد آتت ثمارها في بعض التجارب الحقلية هنا وهناك ..

هذا إلى جانب الدراسات الذرية وغيرها ولكن من يقوم بها ؟ وأين . ؟ هذا سؤال يحتاج إلى بيان لماذا هذا .. ال ... من ؟ وهذا .. إلى .. أين .. ؟ وبيان ذلك يمس القوة المسيطرة على العقلية الآتية في هذا المكان أو ذلك وتنتفح النافذة على الجو العقلي في البلاد الإسلامية .. والعقلية في أرض الإسلام من حيث هي لا تقل في جوهرها قوة عن نظائرها في بلاد العالم الأخرى ولكنها خدرة ساهية فلماذا ؟ ويريد صاحبي أن يتحدث عن أثر الإسلام في هذا الخدر ، وهل يعاف الإسلام البحث في الكون وظواهره ؟ . هل يجب تجنب المصانع والمعامل خوفاً على نفسه من الانهيار تحت ضجيج آلاتها ؟ أم أن في أصول الإسلام ما يثبط عن غشيان تلك الميادين تحت تأثير أمثال : كل بدعة ( أى جديد ) ضلالة ؟ وهنا لم أستطع مع صاحبي صبراً ولكن لم أفارقه لأنني واثق من قوة حجتي ، وسلامة أدلة الإسلام وتمكنه من البعث الحضاري في جميع مظاهره ولا سيما مجال البحوث الكونية فتلك هي البحوث الموصلة إلى معرفة أسرار الكون وقدرة بارئها سبحانه .

رغب صاحبي في شرح هذا الحديث الشريف (حديث الباب) لينقل الترجمة إلى عدة لغات يجيدها حتى يطلع العالم على حقيقة الإسلام وحقيقة موقفه من الجديد ..

فقلت : هذا ما يسعدنى كمسلم يعرف ما هو الإسلام وما هى دعوته فألق إلى سمعك وأنت شهيد ولناخذ مجلسنا تحت ظل تلك الشجرة الوارفة .. لعلك وعيت ما مضى به القول من كلام العز بن عبد السلام فما هى البدعة المحرمة شرعا . أجزم أنها هى التى تحل حراما أو تحرم حلالا أو تحاول هدم أصل من أصول الإسلام التى بينها كتاب الله وشرحتها سنة رسول ﷺ وتلك أمور بينة فالحلال بين والحرام بين .. وهذا مما لا يناقش فيه من له أدنى مسكة من عقل .. فما أحل الإسلام إلا نافعاً مفيداً للإنسانية .. وما حرم عليها إلا بشعاً مضراً مفسداً لبنيانها وعقولها . وما وراء ذلك من بحوث دراسات علمية وعلوم ومعارف لا تجد كتابا حفل بها وحث عليها ودعا إليها خيراً من كتاب الله العزيز الحكيم .

2 - بعد هذا مضيئنا إلى لقاء العز بن عبد السلام فقد أعجب صاحبى بطلاوة حديثه وحسن تفسيره وطلب المزيد من الإيضاح وبدأت الشرح .. وشرع ينقل ذلك إلى لغات أربع حية معاصرة عالمية<sup>(1)</sup> ليعلم الناطقون بها إن الإسلام خير وسلام . ونور وفقه للحياة الحاضرة .. وأن من لا دنيا له مستقيمة لا آخرة له مسعدة ..

يقول عالمنا الحبر العز بن عبد السلام : تنقسم البدعة إلى :

### 1 - بدعة حسنة (يجب على المسلمين أن يتعلموها) :

وهذا باب خير فكل ما جد بعد رسول الله جديد واجب التعلم إذا كان فيه ما يقوى الإيمان ويفتح طريقاً إلى معرفة الله جلّت قدرته ... والعلوم الباحثة فى الكون علوية وسلفية لا بد وأن تنتهى حتما بصاحبها إلى معرفة الله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقد وردت هذه الآية الكريمة بعد آية تحدثت عن الظواهر الحياتية من إنزال الماء من السماء إخراج الثمرات المختلفة الألوان .. والجبال .. والناس .. قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ<sup>(27)</sup> وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ<sup>(28)</sup>﴾ 27 - 28 من سورة فاطر .

(1) الفرنسية ، الألمانية ، الإنكليزية ، الإسبانية .

فهذا غيض من فيض من مظاهر قدرة العلى الكبير سبحانه . ومن البحث فى الكون وظواهره يتوصل إلى معرفة بعض أسراره ولا نهاية لتلك الأسرار أبداً .... واقرأ يا صاحبي كتاب العلم يدعو إلى الإيمان لمؤلفه الأمريكى كريسى موريسون مدير أكاديمية العلوم هناك سابقاً . وأمثاله مما كتب العلماء كثير .

## 2- بدعة محرمة :

ولابد لى من مناقشة يسيرة مع العالم الكبير العز بن عبد السلام فى هذه الجزئية من قوله ، قال : (يحرم على المسلمين تعلم المذاهب الهدامة المعادية للإسلام المخالفة لقواعده) وأقول لسيدى العالم التقى الورع طيب الله ثراه . لو أن المسلمين هجروا - إطلاقاً - تلك العلوم وعافوا دراسة تلك المبادئ التى بدأ قرنها فى عصرك .. واستشرت فى عصرنا فى غلو وجحود وصل بأصحاب المبادئ الجديدة إلى إنكار موجد الكون ومدبره جل وعلا ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ .. لو أن أبناء الإسلام الآن (القرن الرابع عشر الهجرى) صدوا عن دراسة تلك المذاهب . ليعرفوا شرها ويفندوا أقوالها على رؤوس الأشهاد ليحق الله الحق ويبطل الباطل .. إذا لاستشرى شرها ولأخذها العامة على أنها قضايا مسلمة وانتقالة عقلية مرحلية لا بد منها .. فإذا خلا لها الجو باضت وأصفرت . أما إذا تعمقها عقلاء أبناء الإسلام وعرفوا مصادرها ومواردها ووجهوا أضواء الحق وإشعاع الإسلام وأجروا عليها طهارته إذا لانماعت وتلاشت ولاذت بأحجارها فراراً من النور والضياء .. ولهذا رأى الإمام الغزالي - صاحب إحياء علوم الدين - أن الواجب على العاقل المتبصر من المسلمين أن يتعلم كل ما يدور حوله ليستطيع أن يدافع عن عقيدته بسلاح قوى لا يفلى . ولهذا انقل إلى قومك فى لغاتهم أن الإسلام لا يحظر - لأنه لا يخاف - مطلقاً البحث فى المذاهب أن يلم إماما كاملا بأصول عقيدته أولا حتى يدخل الميدان مسلحاً غير هياب ولا وجل ... لأنه إن دخل بغير سراج فربما ضل وأضل .

## 3- بدعة مندوبة :

وأرى أنها صارت الآن واجبة على الحكومات الإسلامية وجوباً عينياً وعلى القادرين من أغنياء المسلمين وجوباً كفايياً . تلك هى تشييد المدارس على مختلف

درجاتها وتعلم اللغات المعاصرة بكافة لهجاتها ومعرفة أسرار الصناعات على تفرق أسمائها ونقل كل ذلك إلى الوطن الإسلامى فى أرض تظلمها راية الإسلام ليتخرج فيها (علماء ذرة وهيدروجين وأتوميك) يحملون إلى معاملهم وأماكن بحوثهم (سجادة الصلاة) ويجاهدون فى هذا الميدان فيضمون إلى الجهد البشرى الظاهر المبذول من الآخرين . الروحية السامية والصلة برب كل شىء فتفتح لهم أبواب وأبواب ويقودهم نور الله إلى مجالات أرحب وآفاق علمية أوسع ... وبهذا يمكن الله لهم فى الأرض ليعمروها ويبدل خوفهم أمناً . ونفسىء إليه تجار السلام لا تجار الحروب يطلبون ودهم لا ليسيظروا عليهم .

4 - وأما زخرفة المساجد فليست بدعة مكروهة وحسب وإنما هى فى رأى مستهجنة . فالقائد إلى المسجد هو الإيمان بالله ولا شىء غير الإيمان وليس المسجد مسرحاً أو صالة عرض ، والمتجه إلى المسجد إنما يخلص من شوائب الدنيا ولهوها بصدق قلب ، فالمسجد ليس بحاجة إلى زخرفة مهما مر الزمان وتعاقب الليل والنهار . وكل ما يحتاجه هو النظافة والجمال الطبيعى بعيداً عن نظرية الحضارة الملهية عن رب العالمين ، فالعبادة هى عمارة المساجد الحقيقية ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ الآية 18 من سورة التوبة .

وأقول هذا وأؤكد عليه ديناً لأنى شاهدت فى بلاد أخرى<sup>(1)</sup> من جرهم حب تجميل أماكن العبادة إلى الخروج مطلقاً عن روح العبادة وقادم إلى اتخاذها صالات موسيقى ورقص وأضواء ملونة وعقيدة الإسلام تنفر كل النفور وتبعد كل البعد بالمساجد عن هذا التطور الكريه السيئ النتائج .

5 - وأما التوسع فى المآكل والمشارب ووسائل الانتقال فتلك أمور مباحة بشرط أن لا يكون فيها إفراط ولا تفريط ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ ... فقد أحل الله الطيبات من الرزق ولم يحرم إلا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ

(1) فى نيويورك (أمريكا) .

الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ (الآية 32 من سورة الأعراف) وما نص على تحريمه معروف وقد أجملته الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفصلت السنة ووضع العلماء المشتغلون بالإسلام عقيدة وعملا كل ذلك أكمل توضيح ..

وينتهي الأمر بصاحبنا إلى إدراك النقاط التالية ووعيتها وعيها كاملاً وترجمتها على أنها الإسلام الصحيح وما عارضها فليس من الإسلام فى شيء ، تلك هى :

1 - الحث بكل قوة على التمكن من معرفة الصناعات وتشجيع الباحثين وتوفير وسائل الدرس والتنقيب للقادرين وإيجاد الجو الصالح لينتجوا بعيداً عن كسل معوق أو مخدر ، حتى نبني قوة ضاربة من الصناعات المختلفة ونصل إلى كشوفات علمية كونية تفوق ما وصل إليه غير المسلمين ولا عيب مطلقاً من التلميذ على علماء الغرب إذ هم السابقون الآن ، ولا ضير ، بل من الواجب أن نتخذ بحوثهم كقاعدة نبني عليها لنصل إلى أبعد مما إليه وصلوا .

2 - إن تأخر الدول الإسلامية عن الركب الحضارى المعاصر لا مدخل للإسلام فيه ولم يكن الإسلام شاهده ، وإنما هو افتراء العاجزين وادعاء المغرضين الهدامين ، ولو أن المسلمين كانوا على إسلام حقيقى صاف كما تلقاه السلف عن رسول الله ﷺ لكان لهم سبق فى كل ميدان .

3 - إن العداة الذى خلفته ظروف ضعف المسلمين واستعمار الغرب لبلادهم لا تزال أصداةه تتردد فى صدور الشعوب الغربية ، ولن يزيل هذا العداة إلا التكافؤ فى القوى .. ولن يجيء هذا التكافؤ طفرة وإنما يحتاج إلى جهود ، وإلى توحيد تلك الجهود ... ووضع أسس التقدم فى أرض الإسلام على موازين ومقاييس من أصالة الإسلام وقوة اتحاد أبنائه وسيرهم مجتمعين تخفق عليه أعلام الهدى .

## مراقبة الله

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال : (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) ... وكان ابن عمر يقول : إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك ..

(رواه الإمام البخارى)

1 - (منكبي) (بفتح الميم وسكون النون) مجمع العضد والكتف . وهذا التعبير يفيد مواجهة ابن عمر رضى الله عنهما لرسول الله ﷺ وقربه منه . وفعل الرسول معه ذلك ليجذب انتباهه لما سيلقى عليه من القول الشريف حتى يعيه ليعمل ويبلغ . لأن كلام الرسول ليس خاصاً - هنا - وإنما هو عام يجب على من سمعه أن يبلغه حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

(كن في الدنيا كأنك غريب) الغريب هو الموجود في بلد ليست هي مسقط رأسه وليس بها ذوو قرابته القريبة من أصول أو فروع . فهو دائماً نزاع في قرارة نفسه إلى الأرض التي رأته باغما ورآها صبيبا وشارخا . لا يستطيع الاستقرار بعيداً عنها . ومستكن في جوانحه دائماً الحنين إلى حيث شب ونشأ . ودار الإسلام ليست دار غربة للمسلم . لأن صلة الروح أقوى من صلة الدم . ما دام السلطان لشرع الله . وما بقيت الراهة مرفوعة باسمه تبارك وتعالى . أما الغربة الحقيقية فهي غربة الدين في موطن انقطعت فيه كل العلائق الروحية ويعبر عنها في الإسلام (بدار الكفر) والمؤمن الصادق الإيمان لا يقيم في بلد تتحدى كتاب الله ولا تطبيق أحكامه لأنها تنتكر لبارئ الكون . وبالتالي تهوى في حماة الذل وتتردى في هاوية السخائم ، وما أحسن ما قيل :

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها      خرجت مع البازي على سواد

(أو عابر سبيل) : عابر السبيل هو الذى يجوز من بلد إلى آخر ساعيا للوصول إلى مستقره ودار إقامته ، ففهم الوصول إلى مبتغاه . غير عابئ بما حوله ، ولا ملق بالا

إلى ما يلاقى من وعثاء الطريق أو محسناته ، وإنما كسل حواسه متجهة إلى موطنه وهدفه ، والعاير العاقل لا يسيء فى طريق العبور ، ولا يهتم بمعوقات المرور ، فكل ما يصادفه فى ميزان اللغو (وإذا مروا باللغو مروا كراما) .

(وكان ابن عمر يقول ..) تفيد رواية الإمام البخارى أن ما بعد هذا من مقول ابن عمر رضى الله عنهما وعنا بهما ، وقد وردت روايات أخرى ليس البخارى مصدر أكثرها تشير إلى أن هذا القول من كلام سيد الرسل ﷺ ، وعلى أى فالصحابة رضوان الله عليهم جميعاً هم الصحيفة التى استقرت فيها وصايا رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فوعتها وردد أصداءها الزمان فهم لا يصدرن ولا يوردن إلا عن ما يعلمونه من رسول الله قولاً وعملاً وتقرباً إلى آخر ما هنالك ، لانصياعهم الشديد واتجاههم الكلى إلى مصدر النور ومورد المعرفة وجلاء الحقيقة ، وهادى الطريق ، ورائد الخير وداعى الحق سيدى رسول الله ﷺ .

(إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح) فى الليل هجوع وركود ، وربما سبات عميق استعداداً لغد جديد ، فيه سعى لكسب قوت ، وعمل لمجد مؤثـل ، وكـدح متواصل بلوغ مآرب ونيل مقاصد ، فالإمساء والإصباح متعاقبان ولكل منهما مجال فرد ، ونهـج خاص ، فإذا أمسى المؤمن بـقيوم السموات والأرض ، صرف فكره ، ووجه قوته إلى إمـسائه فأخـلد للراحة قليلاً ، ثم قام للعبادة ليلاً طويلاً ، ولكن بقدر لا إفراط فيه ولا تفريط ، يتجافى جنبه عن المضجع ليدعـو ربه فى هدأة الليل وسكونه ، مقبلاً على مـوجده وبارئه بـقلب سليم ، فيصرفه ذلك عن التفكير فى عداوة فلان ، ونسج خيوط الشر لعلان ، والسعى للنيل من ثالث ، إلى آخر ما هنالك مما ورد فى قاموس أعداء الله من عدوان واعتداء وكثيراً ما بيت شربليل ، وحيكت شراكه فى سواده ، وهذه غفلة عن الأسمى ، وعود إلى حيوانية شرسة ، نبت أصلها فى الغاب ، المؤمن لا يبيت على غل ، فهو متدرج تحت لواء الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ . الآية العاشرة من سورة الحشر .

(وإذا أصبحت فلا تنتظر السماء) يومك هو يومك ، وما بعد المغيب علمه عند

علام الغيوب ، واللحظة التالية هي غذك المعبر عنه فى القرآن الكريم (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) والوارد فيه شعرا :

واعلم علم اليوم والأمس قبله      ولكنى عن علم ما فى غد عمى

فاهتم بيومك واشغل كل لحظة فيه بعبادة خاصة ، واعلم : أن صلاتك عبادة وسيرك إلى عملك عبادة ، ولقاء إخوانك بالبشر عبادة والسعى فى مصالح الدولة عبادة ، وعلى هذا فحياة المؤمن كلها عبادة مأجورة أيما أجر من القوى القادر العليم الخبير .

(وخذ من صحتك لمرضك) الصحة المفرطة مبطرة أحيانا ، والمرض دواء للكبرياء فمن عرف وعقل اتخذ الصحة مدرجا إلى الكمال النفسى والغنى الحلال والريح المعترف به شرعاً الذى لا تتعدى فيه حدود الله ، فإذا وافى المرض يوماً فأقعد عن السير فى طريق الحياة على مختلف صنوفها وجد المؤمن الرصيد الشابت الذى يدر عليه ما يقوى بده ، ويرد عافيته ويؤمن له صفاء روحه ونقاء قلبه ، وتكون أيام المرض أيام أنس بالعلو الكبير تبسط فيها أكف الضراعة إلى البارئ المبدع ليدفع الألم ويكشف الضر ، فهو سبحانه القادر على أن يجيب المضطر إذا دعاه ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ الآية 80 من سورة الشعراء .

(ومن حياتك لموتك) تلك عقدة العقد وأم المشكلات ، وداهية الدواهي عند من لم يعرف الله ومن لم يعيده كأنه يراه ، فقد حار المفكرون منذ فجر وجود الإنسان على البسيطة وتساءلوا : ماذا بعد الموت ؟ لقد خلص السابقون واللاحقون من المؤمنين إلى الإيمان الجازم بما بعد الموت من حياة سرمدية أبدية لا نهاية لها ولا حدود ، كما نصت الكتب السماوية الموحاة من رب كل شىء إلى من اصطفاهم من عباده ليبلغوا رسالاته إلى خلقه .. وهنا يقول صاحبى أن الآخرة تبدو لكثير من المعاصرين إنها متناهة وهمية ، وانعكاس خيال شارد ، وأمل ضعف بشرى .. وأجاب ابن أخت خالته : .. الله جلت قدرته يعلم - والعالمون يعقلون - أن مصدر هذا القول عقل منعب لم يعتد عمق البحث وإنما ألف السطحيات حتى اعتادها فلم يستطع الابتعاد عن الحسيات المادية ، واتجه إلى الآنية البحتة ليلقى عليها أضواء باهتة تجذب طلاب الشهوات الجسدية ، وفسفوا تلك الفعال وترجموها على أنها

صورة لتقدم حضارى يجب أن يسود ، وتصبح تلك الأفكار طرائق ومذاهب تعتنق ومثالية تحتذى .. وعاد صاحبي إلى متابعة حديثه قال : ... منذ أيام سرت في شارع .. فى مدينة أوروبية وتوقفت أمام بناية شامخة جذبتنى إليها لوحة نحاسية بارزة مرقوم عليها اسم فيلسوف معاصر مرموق شرقاً وغرباً ، ودون أعمال فكر وجدتنى وجها لوجه مع شاب فى بداية العقد الثالث يقودنى إلى ندوة جمعت أصفياء شيوخ الفكر المعاصر فسلمت وحيأ وعرفت صاحبهم وقد خط الشيب فوديه ، وغلب على شعر رأسه بياض ناصع ، وهو مستغرق فى نشوة الحديث يوجه الشباب وإن جاوز السبعين وجرى حديثه متناولا القديم والحديث ، وتطرق إلى ما وراء العالم ما بعد الموت وراعى منه الإنكار البادى فى عباراته المتتابعة لكل حياة بعد الموت ... ويدلى ببراهين لا صحة لها إلا فى مخيلة الشيخ والمفتونين به .

ويقول صاحبي : جرت على لسانى فى قوة قرآنية الآية الكريمة : ﴿صُمُّ بَكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يُرْجَعُونَ﴾ الآية 18 من سورة البقرة ، لأن الله ذهب بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون .. وكانت مقارنة منطقية أتيت بها كما يقول صاحبي على أدلة الشيخ وفندتها واحدا إثر الآخر .. ولاح النور لذوى البصيرة من الأصفياء الذين لم يعهدوا لشيخهم معارضاً .. وخرج صاحبي من المعركة بخمسة كاملة العدد من أولئك الحواريين فارقوا الشيخ وطلبوا إيضاح طريق الإسلام .. وقال أحدهم : هل أطرحت العقل عقل ؟ وهل ترك التفكير تفكير ؟ من اليسير أن يقال يا شباب العصر التقوا بالشباب فى كل مكان ، واجعلوا لقاءكم كما تشاءون .. فالرقيب قد توارى عن المسرح .. والقانون معكم والمجتمع لم يبق فيه إلا من يئن أنين من هو فى النزاع الأخير .. والغد ؟ .

وأليس من الفكر الفلسفى الناضج أن نتطلق إلى ما وراء المحس لتحاول إدراك وسائل النجاة هناك ، فنعمر ما هنا كما يجب أن يعمر بالبناء المتين بالقواعد الثابتة على ضوء الإسلام ونور هداه ؟ ويدركهم بالطريق مبعوث الشيخ صائحاً : فسروا لى سر التخاذل البادى هناك<sup>(1)</sup> ، وأميطوا اللثام إن كنتم تعلمون عن أسباب الخلاف

(1) يقصد فى بلاد المسلمين .

والشفاق فى غير موضع خلاف ولا شقاق ، وعلا صوته فى نغمة غنائية .. كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل يعنى كن شحاذاً مسكيناً لا تتطلع إلى الحياة الحرة الكريمة وإذا غشاك الليل عد نفسك فى الأموات ولا تتطلع إلى غد .. وإذا داعبت ذكاء جبينك أغمض عينيك وتمتع بصحتك ومالك والمخترعات .. فالموت قادم إليك .. ثم زمجر .. أى هدم للحياة هذا ؟ وأى قضاء على الإنسانية تحمله تلك الكلمات .. وأى دعوة إلى التكاسل والتخاذل يقوم بها دعاة الإسلام .. ؟<sup>(1)</sup> وقال صاحبي : ناديته على رسلك .. أيها الصديق .. أهذا هو مقدار فهمكم للإسلام ؟ أصحاب هذا التفكير الصباني هم قادة الغد .

إن لغة الأحاديث لا يفهمها إلا من عرف أسرارها ، أسرار البيان العربى ومراميه ... فمن لم يتعمق اللغة العربية لا يمكن أن يصل إلى فهم توجيهات القرآن ولا الحديث .. ويعد عن الصواب من يقول : إن الترجمة تؤدى الحقيقة اللغوية للغة الضاد .. وإلا .. ففى هذا الحديث الشريف تكمن كل القوى الداعية إلى البناء الصحيح الواعى ، فى جمال معناه الشريف : يعطى الحث الحثيث على اغتنام كل لحظة من الحياة للعمل المجدى ، وفيه جذب شديد للانتباه إلى الحياة وملئها بما يعود بالخير على ما بعدها ، فالعاقل لا يسير إلى غير وطنه لهدف ولا يسعى فى الطريق إلا لغاية ، ولا يستعمل صحة بدنه وقوة عقله إلا فيما يجده مجدداً مفيداً للمجموع ، الإسلام يدعو دائماً إلى عمارة الأرض وقيادة الناس إلى ما يسمو بهم وبحقق إنسانيتهم . ولو كانت رسالة الإسلام رسالة خمول وتواكل لما انتشر وعمر وسجل على الأرض حضارات هى التى كانت أساس كل ما نرى فى الدنيا المعاصرة من تقدم ونمو وازدهار .. وإنسى لأرى فى أرض الإسلام وميض نار توشك أن يكون لها ضرام والأمل فى الجيل الصاعد أن يكون جيلاً واعياً متحملاً لمسئوليته كاملة على تحقيق وجوده بين دول العالم فى كل مجال .

2 - هكذا يفهم الإسلام فهماً عكسياً لدى المفكرين المعاصرين إلا قليلاً .. وأرباب المبادئ والدعوات المعاصرة يحسنون التأتى لمقاصدهم ، ويجسدون الدفع عن مبادئهم ، ولكل حججه وبراهينه ، ثم ما طبع عليه الإنسان من الجدل (وكان

(1) يعبر فى ترجمة فرنسية عجيبة كأنه يلقى نشيداً شعرياً .

الإنسان أكثر شيء جدلاً ، ووراء تلك المبادئ والدعوات جاء عريض يساندها ، ونفع مادي يجذب إليها ، والهدف الواضح من خططهم - أن تباينت في رسائلها فسهي متحدة في غايتها - هو العمل المتواصل للكيد للإسلام والنيل منه .. هذا يحملنا على القطع بأن موقف اللدد والخصومة السافرة يدفع على العناد ويحمل على التماذي في الضلال ، كما أن الموقف السلبى يزيء الفساد شيوعا وانتشاراً ، فلنبحث عن الجندى الحصيف وليزود بالعدة والعتاد ثم يقذف به فى الميدان والله ينصره ويؤيده (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) وينفع فى هذا المجال الشاب المؤمن المتسلح بالعلم الواسع والاطلاع الدقيق على كتب القوم ومبادئهم العالم بأحوالها عن خبرة السائر على نهج الخلق فى الدعوة بالتي هى أحسن مع سعة الأفق والحلم الأحنفى والمرونة المعاوية والشجاعة العلوية والحكمة العمرية (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك) وقد تأكد لدى صاحبى من تجربته الشخصية أن الجهل بالإسلام وقواعده ، والبعد عن موارده الصافية مضافا إلى ذلك استغلال الأذكفاء الخبشاء لهذه الحال عند الشعوب ، هو الحافز الأول والداعى الأوحد لرواج الباطل ، لأن الشباب المعاصر لا يعرف أن ما يدعى إليه الباطل .. والذى تجب معرفته تماما هو اللغة الأصلية لغة تلك البلاد ، وما ذلك بعسير على الشباب ذوى الهمم العالية ، فالمبشرون يجيدون لغة كل بلد يدخلونها بجميع لهجاتها ، والنادر منهم من يجيد فقط اللغة التعليمية السائدة بين تلك الشعوب ، كما يعرفون معرفة تامة عادات البلاد قبل دخولها ، فلا أقل من أن يدرع داعى الإسلام هذا السلاح الذى لا بد منه لنجاح مهمته .. وإذا أنس إليه الناس استطاعوا فهمه وألقوا إليه السمع باهتمام وعاقبة ذلك النجاح بعون الله تعالى ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

## هذه أعمال دائم ثوابها

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) .

(رواه الإمام مسلم)

1 - الموت أمر لا بد منه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ وانتهاء الأجل حقيقة لا ريب فيها ، وقضاء محتوم لا يحتمل الجدل ، لا محيص عنه ولا مناص منه ، لا جسد يدفعه ، ولا قوة تردّه . ومن الناس من إذا مات لا تحس به الدنيا ، ولا يترك وراءه فراغاً يتطلبه ، هان على نفسه فى حياته الدنيا فأهمل تكوينها ، وغفل عن حقائقها ، فخبأ ذكره ساعة صعود روحه إلى بارئها ، ولم يعد له وجود ، كما لم يبق له أثر يدل عليه ، ومنهم من جال فى دنياه وصال فجاب الأرض وطاول الجبال ، غاص على در الحياة وغرف من أنهارها ، وأدلى بدلوه فى كل مجال ، فإذا قبضت روحه نعتته الدنيا بأسرها وناحت عليه بواغمها والعجماءات ، وعز على أهلها أن يواريه غيب محجوب ، وينأى به عن ساحتهم قدر مكتوب . ولما كان مقياس الإسلام عاماً يشمل خامل الذكر والنابه ، سعى دائماً إلى الطريقة المثلى والقدر المشترك الذى تقوم به عمارة الكون ما بقى كون ، والذى يستطيع المساهمة فيه المقل من الجهد والمكثرف فيه فلا يعبأ به الضعيف ، ولا يفوت القوى المتوثب .

ولكل جزاء تقدير ، والنتيجة صلاح هنا وجنى طيب للثمار هناك ، ذلك هو أن يقدم المسلم راداً لنفسه من عمل يده ، وبواسطة كدحه وجدّه ، كسب حلال ، وإنفاق فى الوجوه المشروعة الدائمة النفع الشراة بالخير دائماً ، وما أكثر الدروب والمسالك الموصلة إلى الحسنى وزيادة ، ولكن سيدى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - اختار ثلاثة من عديد لكثرة خيرها ، ولشمول نفعها فى الحياة بعد الموت ، وتفاعلها مع المجتمع الذى تنفق فيه تجارتها ، وتدعيمها لبنياته ، وإرسائها لأسسه على أصول ثابتة قوية فما الكلام بالمنطوق وكفى ، ولا بما يلفظ وحسب ،

وإنما هناك معان عميقة ، وآثار دفيئة تختبئ وراء فصاحه سيدي رسول الله تنعم الدنيا لو سارت على نهجها بالراحة النفسية والرضا القلبي والطمأنينة الدائمة ، وخذ القول من مصادره ولا تعقب .

2 - إذا مات ابن آدم انقطع عمله ، حقيقة ولا ريب ، من مات فتي والقناء لا ينتج ، وإذا دفن تلاشى من على سطح البسيطة ، والمتلاشى لا يقوم بنيانا ، ولا يؤثر في منفعل فانقطاع العمل الفعلي المؤثر من غيره متابع دائماً للموت ، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، إذا - فما العمل ، وما هي الوسيلة التي يرسمها الإسلام أو التي يجب أن يقرها ويدعو إليها لتكون سيرة طيبة ونفعاً شاملاً لصاحبها في دنياه وبعد رحيله عن الدنيا .

وضع سيدي رسول الله ﷺ لتحقيق ذلك الهدف ثلاث طرائق كلها بر وخير ورحمة وبركة للمجتمع الذي يعيش فيه المسلم العامل بها وللعامل نفسه ، وإليك إيضاح القول :

(1) صدقة جارية : ما هي الصدقة الجارية ، هي الدائمة المستمرة المتواصلة وكيف يمكنك الحصول على مصدر يغل صدقة جارية بعد موت صاحبها هذا لن يكون إلا بجهد وعرق وصبر وجلد متواصل للإنتاج والدأب غير المنقطع حتى تكون للمسلم ثروته التي يخلف منها صدقة جارية وهو إن فعل ، أفاد المجتمع الذي يعيش فيه فالإنتاج المثمر لا يكون إلا عن طريق مصنع أو متجر أو مزرعة وليس هذا بالقدر المعتاد لمواصلة الحياة وإنما يأتي من الزيادة والنماء ، والفيض عن المنصرف فقى هذا دعوة للتصنيع والبناء والإعمار بالطرق المشروعة المتعارفة إسلامياً واجتماعياً المرضى عنها من رب العالمين . فإذا وجد المال وفاض عن الحاجة أمكن لصاحبه أن يجعل الفائض في بناء مدرسة عامة ، تقضى على الجهل ، أو مستشفى يزيل الآلام ، أو آلة جهاد يدافع بها عن المسلمين ، ومن هنا نشأت نظام الأحياس في الإسلام ، وحبس العقارات والممتلكات الثابتة على المعوزين وما أكثرهم في كل زمان ومكان ، ويقول العلي القدير في محكم ما أنزل على خير خلقه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ..﴾ الآية 12 من سورة يس .

ومن هذا أيضاً بناء دور الضيافة يأوى إليها عابر السبيل وتضم بين جوانبها أبناء الطريق الغرباء عن ديارهم وتمدهم بما يوصلهم إلى مستقرهم ، حتى ما كان يفعله السلف الصالح من غرس الأشجار ليستظل بها السابلة من حرارة القبيظ ، فتلك أمور يتجدد نفعها ويدوم ثوابها وتتعود بالإحسان والرحمات على صاحبها ، وهي من كسبه وسعيه وجهده ولا شك .

(ب) أو علم ينتفع به : ويندرج تحت هذا الاسم من الحديث الشريف كل أنواع العلوم المفيدة للإنسانية دنوباً وأخروباً وما من شيء له قيمة في الدنيا إلا وإحسانه يؤدي إلى ثواب الآخرة ، فلو صدرت من مؤمن بالله واليوم الآخر مخترعات نافعة كان له ثوابها في الآخرة ، وأما صدورها عن الكافر الجاحد فأمرها موكول إلى علام الغيوب وحده ولا نستطيع لها حكماً ، وكذلك من أسهم في تحرير المؤلفات الشارحة للإسلام الداعية إلى الخير الموجهة إلى الله تبارك وتعالى ، كان عمله هذا مندرجاً تحت هذا المقطع من الحديث الشريف ، وما أحوج زماننا في جميع دوله وقاراته المعاصرة إلى علماء مسلمين فاقهين مجيدين أقوياء الإيمان بالله عاملين بكتابه وسنة رسوله ليحملوا تلك الرسالة الكريمة إلى الدنيا المعاصرة ، فهناك فراغ في الوجود الفكري لا يملؤه إلا فقه الإسلام ومعرفة رب السموات والأرض ، فأين الطبيب النطاسي الفقيه ليداوى بإخلاص كلوم الإنسانية المعذبة التي سلك بها فلاسفة العصر سبلاً أوصلتها إلى بهيمية هوجاء ، وشهوات جامحة ، فمن وفقه الله للاقتداء بسيدى رسول الله في الاستهانة بالمعوقات والمضى في سبيل الله كان حظه وفيراً في الدنيا والآخرة ، وقد قيل لسيدى رسول الله إن دعوتك إلى الله الواحد تشقك وتتعبك ، وتبعدك عن قومك وشيعتك فيجيبهم القرآن الكريم في آيات محكمات : ﴿طه<sup>(1)</sup> مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى<sup>(2)</sup> إِلَّا تَذَكُّرٌ لِمَنْ يَخْشَى<sup>(3)</sup>﴾ .

وهذه الدعوة ليست منك وإنما أنت رسولها المصطفى ، ﴿تَرْيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ وتمضى الآيات الكريمة موضححة قدرة الله مظهرة عظمته وأن من كان صاحب هذه القدرة فهو حافظ رسوله ومحيطه بعنايته ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وتسرد الآيات المحكمة على رسول الله قصص إخوانه الرسل السابقين وتشرح

له حال موسى عليه السلام وما كان من ضعف أمه وهي سيدة مستضعفة لا حول لها ولا طول ومع هذا يشاء العلى القدير أن يربى موسى في حجر عدو الله وعدوه فرعون ... ثم يؤيده بأخيه هارون . ويدعوهما إلى الانطلاق إلى فرعون يدعوانه إلى الله وأن لا يهابا جاهه ولا يخشيا سلطانه ويناديهما رب السماء والأرض حين يندو عليهما الضعف الإنسانى (وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا) فيقولان : (إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرَطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفَى) يقول لهما ربهما : (قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) .

فمن سلك هذا السبيل فى عصرنا حاملاً كتاب الله إلى الناس اجمعين كان له أجر الصديقين وكان عمله وإنتاجه علماً يدر عليه الرحمات ما لاح كوكب وما بدت ذكاء .

ولا أرى زمانا هو فى حاجة إلى الإسلام صافياً طاهراً خالياً من الشوائب مثل زماننا هذا الذى بث فيه دعاة الشر أفكارهم ونفشوا فيه سمومهم ، وبرزوا متصدين الجماهير العائرة خلقياً الميتة روحياً المنبته عن قيوم السموات والأرض إنباتاً كاملاً ولا أجد شيئاً يدوم ثوابه وتستمر رحماته من دعوة طيبة وكلمة كريمة وكتابة مفيدة تقدم لتلك القطعان الضالة لتردها إلى النهج القويم ، ولا يظن ظان أن الأضواء التسى تتراعى هنا وهناك من رحلات إلى القمر واكتشافات مثيرة قد تدعو إلى الهدوء والاطمئنان كلا وربى إنها لتزيد الطين بلة وتضاعف البلاء ، ولا منجاة إلا بالاعتصام بحبل الله مهما طال المدى وزادت المكتشفات المخبوءة فى الأرض والسموات .

(ج) او ولد صالح يدعو له : وهذا من جوامع الكلم الطيب الذى قلت كلماته وتعددت معانيه : فالولد الصالح هو الذى رباه أبوه فأحسن تربيته وقومه فأجاد تقويمه ، وهده إلى الحق فاتبعه وإلى نور الإسلام فاستضاء به .

ذلك الولد لا يصدر عنه إلا البر بوالديه وإسداء المعروف لهما أحياء وأمواتا ، وهذه دعوة قوية من سيدى رسول الله إلى تكوين جيل صالح من الأبناء ، والعمل على ما يوصلهم إلى القمة القيادية فى أحسن صورة وأقوم مسلك ، حتى تصدر عنهم الأفعال النافعة للوطن ، ليصبحوا مصايح تضىء حالك الليالى ، وأقمار يهتدى على ضوئها المدلج الحائر وفى الحديث الريف (.. وان ولد الرجل من كسبه) .

وفي نهاية المطاف تخلص من هذا الحديث الشريف بثروة اجتماعية عظيمة لو طبقت لأثمرت وأنتجت خيراً كثيراً . فالعامل في شعاب الحياة ليثرى عن طريق مشروع هو لبنة صالحة في بناء المجتمع ، وكذلك موجه علمه إلى نفع الناس وإرشادهم .  
وأخيراً الساهر على مصلحة الأولاد ورعايتهم ينشئ جيلاً طيباً كريماً ، وهكذا نجد التوجيه الكريم دائماً في سنة رسول الله وهدية ولعل الله يوفق القائمين على أمور المسلمين إلى التطبيق العملي المنتج إنه نعم المستعان جلا وعلا .

## حول الإسراء والمعراج

عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس ...

الحديث كما رواه البخارى ومسلم<sup>(1)</sup> واللفظ هنا لمسلم

تناول هذا الحديث الشريف بالشرح والإيضاح كبار العلماء منذ بدء الإسلام وقلوبه على وجوهه فى كل عصر ومصر بما لا يدع مقالا لقائل<sup>(2)</sup> ، والذي يعيننا منه اليوم ما يثيره من ذكريات وما تحقق فيه من معجزات لن يتناول إليها نتاج العلم الحديث ولا فتوحاته مهما بلغت فتلك معجزة خارقة وما يجرى الآن من الجولان فى الفضاء القريب من الأرض أو البعيد عنها والوصول إلى القمر هو نتاج علمية مما أفاضه الله على الإنسان ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ .

1 - هذا الكون بديع فى نظامه متناسق فى أجزائه ، متباين أحيانا فى أهداف موجوداته ، ولضرب المثل ترى ليلا جعله الله سكنا ، ونهارا يمضى فيه كل ناطق وياغم لطيته ، يبتغى فيها من فضل الله ، أو يحقق مرادا لبارئه من عدم ، ومبدئه من لا شىء ، والمخلوق الوحيد الذى حبته عناية مولاه قدوة خارقة على استخدام ما حوله ، والانتفاع بما غايه ، بتعاليم ربه الذى سخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا هو الإنسان ذو العقل الفريد والنزاع الفذة ، جواذب علوية ، وأضدادها سفلية والعلو والسفل لها معانه يحددها كيفما طاب له وحسبما يروقه ، أحيانا تجرى بحوثه على قاعدة وحينما بشذوذه يقسو وتزداد قساوته ، ويصلب وتشتد صلابته فتتال شراسته من عثرائه ونظرائه ، وطورا من الصق الناس به وأقربهم إليه قرية أو قرابة

(1) هذا الحديث طويل جدا يشرح قصة الرحلة المباركة تفصيلا ويحكى ما رآه صلى الله عليه وسلم فى السموات العلى وما كان من أمره (مع الكفار حين أخبرهم الخبر فقد كذبوا وعاندوا حتى ارتد بعض من آمن منهم ، وكان أشد الناس تصديقا لرسول الله هو سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

(2) وقد عرجنا على شرحه جهد المستطاع فى الجزء الأول من هذه الدراسة .

وقد لا يكون هذا لضيق في معيشته أو حاجة إلى مقومات حياة ، وإنما هي الحيوانية المستكنة فيه والوحشية الموروثة من آباء له لبشوا وقتًا ما في الغاب ، فاستعملوا الظفر والناب في إعداد الطعام وبناء كوخ وجنى ثمار ، ودفاع عن نفس ، وربما لقتال دون سبب باد ، ولا لعداء ظاهر ولا استجابة لشرف ، ولا ذودا عن حياض ، وحقا إن الفطرة السليمة داعية خير ورائدة هدى ، ودالة عل نضج اجتماعي ، يرحم متى وجبت الرحمة ، ويقسو حين تلزم القوة ، تضع الأمور في نصابها ولا تنبو عن ما يليق بها ، ولا تجردها من معانيها ، ولا ترنق صفاءها ، وهذا إذا سلمت واعتدلت وعلى الضد إذا تعلقت بأنانية أو بنزغة آنية ، ولهذا وضع أنه مهما ارتقت الفطر ونمت العقول واستقامت لها مواد بحثها فهي ليست بقادرة على رسم خطة أو وضع منهج يقوم أو يقيم أمور الحياة بميزان دقيق واعتدال أكيد وضمان محقق ، وشاءت إرادة الله تبارك وتعالى ألا يؤاخذ إلا تكليف فأرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وحباهم وأيدهم ببراهين وزودهم بقوى خارقة لما اعتاد البشر ، تلك هي المعجزات ، ومن معجزات خاتم الأنبياء المرسلين ﷺ إسرائه ومعراجه حيث قطع المسافات الأرضية والأجواء العلوية في سرعة لا يمكن أن تدخل تحت تعبير بشري فلا يقال أنها سرعة الصوت أو الضوء لأنها لا تدخل في نطاق تعبير عنه ألفاظ بشرية ومضت في زمن لم تجر فيه بحوث ضوء أو صوت في طفولة العقل الإنساني في بدء ولادته أو قريباً منها فسبحان الذي أسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى إلى السموات العلى .

2 - حاضرننا ، عالمنا المعاصر ، جرت فيه فتوحات علمية مثيرة ، بدأت منذ أمد بعيد وبدأت تبرز ثمارها وتنتفح أكمامها في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان أهمها إلى الآن نزول أول رجل على القمر ، خبر عجيب ، وحدث غريب في عرف الإنسانية اللابثة على كوكبها ذهرا طويلا لم تبرحه ، وكفاها من الكواكب الأخرى جمال باد ، ونور يلوح ، وتحركات تشاهد بالآلات أو بالعيون المجردة ، فلا عجب أن يتلقى العالم كله هذا الخبر الحق بدهشة وإعجاب وأن يعده فتحا مبينا ومقدمة لفتوحات علمية تتلوه ، وأثار هذا كثيرا أيضا من تساؤلات دينية ، ولهؤلاء المتسائلين الحق كل الحق في استجلاء الحقائق الواقعية على ضوء له ورد في شريعة الإسلام التي

تعتبر - وبحق - أرقى الشرائع والتي كان من أهم ما تصدى له علماءها لتأكيدهم بإصرار منذ بدء القرن السادس الميلادي أو قريباً من هذا التحديد هو تأكيدهم أن القرآن الكريم حوى كل ما يصح أن يقع من حوادث تصريحا أو إشارة فضلاً عن كونه كتاباً مقدساً يتعبد بتلاوته واحتوائه على شريعة وقانون ونظام حكومة وتحقيق وجود دولة متكاملة بنظام عام شامل .

والواجب فهمه والتأكيد عليه بهذا الصدد ، صدد الفتوحات العلمية الحاضرة ، والتي تليها وقد تكون بالغة الأثر أكثر منها هو أنه لم يقل أحد يعتد برأيه ويعتمد على تقريره أن القرآن الكريم كتاب يحتوى على نظريات خاصة ، أو مجموعة أقاصيص عن الحوادث العلمية ، وإنما القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي أطلق العقل من عقاله وزال كل الحواجز من طريقه وفتح له مجال البحث فى الكون وفى مبرراته حتى يخلص من كل ذلك إلى الإيمان بمدير الكون وموجده ، فالإسلام عامة والقرآن خاصة قد وضع للعقل المعالم والصور وأنار له الطريق وحنه على المضى قدما دون ونى أو تقصير ، أو تقاعس أو إبطاء فى البحث والدراسة ، وآيات الكتاب العزيز فى هذا الصدد لا تحصى عدداً ، إلا إذا أحصيت فضائل القرآن الذى ما خلا جزء منه من دفع قوى للإنتاج العقلى والتأمل الفكرى ، وعلى هذا فكل ما يكشف عنه النقاب من مخبآت الكون وإيضاح زواياه وأبعاده فهو مقبول ولا تعارضه سنة أو آية من الكتاب الحكيم ، وما القمر إلا كوكب مما خلق الله ، بل وخلق صغير بسيط إذا قيس بإخوان له وأخوات ، والوصول إليه ليس نهاية المسيرة العلمية أبداً ولن يكون ، وكل كشف يوصل العقلاء أولى الأبواب الفاقهة والبصيرة المستنيرة إلى سعة ملك بارئ الكون وعظمته وقيمومته ، وأليس من المفرج للمسلم القوى لعقيدته والمثبت لإيمانه أن يعلم ويؤمن بأنه أول من صعد إلى السماء وعاد منها هو رسول الله ﷺ ، ومعلوم أن هذا كان بقدرة الله معجزة لرسوله ومن غير المتوقع أن يحدث هذا علمياً فالذى حدث الآن هو شىء بسيط إلى جانب معراج سيد الرسل عليه الصلاة والسلام وما هو إلا خبر عادى لمن له أدنى مسكة من إيمان وهو نوع من استخدام الموجودات الكونية من أدوات وآلات سارت براكيبيها إلى القمر ، وهذا المسلم الذى يقف موقف المتفرج المتسائل الآن ألم يكن من الواجب أن يمضى أول

السابقين إلى الكواكب الأخرى ، ألم يكن له من معجزات رسوله الكريم ما يدفعه إلى التساؤل عن ما فى هذا الكون العجيب ، ولكنه العجز والضعف والونى والوهن والاعتماد على الغير وتلك حيلة لاعجز ، والمقصر ، ولعله أن يكون لهذا الحدث العلمى أثره فى دفع المسلمين للعمل فى نفس الحقل بمهمة ونشاط لتحصيل ما فات والسير مع الركب ، ومما يعطى القارئ فكرة توضح له نفاذ البصيرة العربية الناضجة ما نشر أن واحداً من علماء العرب (ج . م . ع .) قد دعى للاشتراك فى دراسة ويبحث المستحضرات القمرية مع أفاذ علماء العالم فى هذا الميدان فهذا اعتراف عالمى بقدرة المفكر العربى وقوته على البحث والاستنتاج ، بل إن الدكتور (الباز) المصرى هو الذى حدد لرواد القمر مواضع أقدامهم على القمر حتى قال أحدهم بعد عودته إلى الأرض : كنت أشعر أن الدكتور المصرى قد جاب القمر قبلنا وهو معنا فى كل خطوة نخطوها فوقه .

3- تفسير فى غير موضعه : يحاول بعض المعاصرين أن يفسروا قول الله تبارك وتعالى فى سورة الرحمن ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ حسب الوقائع الجارية ، ولكن موقع الآية الكريمة وسياقها ليس معهم فى هذا الشرح والتفسير ، والذى يناسب اتساقها ووضعها فى السورة الشريفة هو أنها واردة فى معرض التحدى للمشركين يوم البعث والنشور ، فبعد أن سردت سورة الرحمن أولها نعم الله على عباده فى البر والبحر والأرض والسماء أرشدته إلى أن هذه النعم كلها ليست مستمرة أبداً فقال عزل وجل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ثم أشارت الآية الكريمة إلى أن كلا من الإنسان والجن سيجازى على عمله وسيلقى ثواباً أو عقاباً مناسباً لما قدم ولا مهرب من ذلك بأى حال من الأحوال وكيف يكون هناك مهرب وقدرة الله محيطه بكل شىء فى الأرض والسماء ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ وتبدو إرادة الله سبحانه فى التهديد والوعيد الذى اشتملت عليه الآية الشريفة ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ قال الإمام البخارى سنحاسبكم ومن المعروف فى كلام العرب قولهم لا تفرغن لك أى لاخذنك على غرتك . فمعنى الآية الكريمة يا معشر الجن والإنس أين تذهبون من سلطان الله وقدرته المحيطة بكل شىء فأينما تذهبون أحيط بكم ، وقوله تعالى ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أى إلا بأمر

من الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرَقُ <sup>(10)</sup> كَلَّا لَا وَزَرَ <sup>(11)</sup> إِلَّآ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ <sup>(12)</sup> ﴾ .

فآلية الكريمة فى سياقها ومعناها لا تدخل تحت بحث معاصر وليس هناك ما يدعو لمثل هذه التأويلات البعيدة عن واقع القرآن ، وإنما هى واردة فى الحشر والقيامة وليصل الإنسان ببحثه حيث يصل به بحثه فالغاية والنهاية والمرجع والمآب إلى الله رب العالمين .

4 - ما كثيره ذكرى إسرائ رسول الله ﷺ : من غير المقبول ولا المعقول أن تمر هذه الذكرى دون أن تشير فى المسلمين كوامن الأمل لما يرونه من سيطرة أعداء الله على مقدساته على مسرى رسول الله ومعراجه (المسجد الأقصى) وليترجم هذا الألم وتلك الذكرى نارا وثورة تحرق المعتدين وتجليهم عن مقدسات المسلمين والمسيحيين ، أليس هذا مما يدفع إلى الفداء والتضحية والعمل الجاد المثمر فى قوة وترباط وأيدوا الاستعداد للعمل على ما من شأنه أن يمحو العار اللاحق بالعرب عامة والمسلمين خاصة ، فما قيمة الحياة وأنت ترى حرمتك مستباحة وإخوانك مشردين وديارك مفتتحة هل تقيم وزنا لروح لا يذهب فداء للشرف والكرامة ، هل يحتفظ بمال ولا تجود به فى هذا السبيل . وهو ينتهك مقدسات المسيح عليه السلام ويعبت بمهده ولا يراعى فيه عهداً ولا ذمة ولكنها البصائر تعمى تحت وطأة الموجات السياسية العاتية والمنافع الموهومة من وراء هذا العمل الشاذ فى عرف العقل والشرف والكرامة .

والآن لنمض كل بما يستطيع يداً واحدة وقلباً واحداً تحت قيادة حازمة واحدة لنصل إلى هدفنا الأسمى وهو تطهير الأرض المقدسة من مدنسيها ، ويومئذ يفرح عباد الله بنصر الله ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .

## المساجد الثلاثة

قال ﷺ : ( لا تشد الرحال<sup>(1)</sup> إلا إلى ثلاثة مساجد<sup>(2)</sup> : إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى مسجد إيلياء « أو بيت المقدس » .  
أخرجه مالك من حديث أبي هريرة

المساجد المعظمة في الإسلام هي التي تشد إليها الرحال للزيارة :

أول من شاد تلك المساجد على الأرض :

قضاء الله على بنى إسرائيل بالخروج من بيت المقدس وتشردهم في الآفاق جزاء وفاقا لعصيانهم وأمر الله في التوراة وقتلهم أنبياءه .

وحدة العرب والمسلمين مع الإيمان العميق بالله ورسله هي المحرر الوحيد للأراضي المقدسة .

### 1- المسجد الحرام :

هو القائم في مكة المكرمة بناه - أو جدد بناءه - سيدنا إبراهيم ولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، ثم هدم فأعاد بناءه قوم من جرهم ثم العمالقة ثم قريش .

ومسجدي هذا : هو مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة بناه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أول ما نزل إليها مهاجراً من مكة المكرمة وأقام إلى جواره بيوت نسائه أمهات المؤمنين رضى الله عنهن جميعاً .

**وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس :** وهو المسجد الأقصى ، ومعنى الأقصى أى

---

(1) لا تشد الرحال : الرحال جمع الرحل ، مركب للبعير ، وارتحل حط عليه الرحل فهو رحيل ومر حول وأنه لحسن الرحلة بكسر الراء . الرحل للإبل ، والمعنى لا يسافر المسلم قاصدا للزيارة إلا إلى تلك المساجد الثلاثة التي أشار إليه سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(2) المسجد : سجد أى خضع ، وأسجد طأطأ رأسه وانحنى . والمسجد كمسكن الجبهة وما كان من باب جلس فالموضع أى مكان السجود على الجبهة مع الأعظم الستة الأخرى الواردة فى الحديث أمرت أن أسجد على سبعة أعظم .

الأكثر بعداً ، وقد كان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة ، وقد بارك الله حوله حيث دفن كثير من الأنبياء والصالحين .

### من بنى المسجد الأقصى :

بعد أن قتل داود جالوت في حرب استعرت بينهما حكى قصتها القرآن الكريم في الآيات الشريفة من (246 إلى 251) من سورة البقرة<sup>(1)</sup> آتاه الله الملك على بنى إسرائيل وأصابهم في عهده طاعون جارف فخرج بهم عليه السلام إلى موضع بيت المقدس يدعونه ويسألونه كشف البلاء عنهم فاستجيب دعاؤهم فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً ، وكان ذلك بعد مضي إحدى عشرة سنة من ملك داود الذي توفي قبل أن يتم البناء فأتمه ابنه سليمان عليهما السلام .

وقيل إن الموت انتشر في بنى إسرائيل عقاباً لهم على مخالقات ارتكبوها ، فسأل داود ربه أن يعفو عنهم حتى لا يعمهم الفناء جميعاً فاستجاب الله له ، وشاهد داود الملائكة تعرج إلى السماء من فوق الصخرة فقال : هذا مكان ينبغي أن يبنى فيه مسجد ، ثم شرع في البناء ، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدس ، وأنت قد صبغت يديك بالدماء ، فليست بيانیه ، ولكن ابن لك سأملكه بعدك أسميه سليمان أسلمه من الدماء سيئيه ، فلما ملك سليمان بناه ، وكان عليه السلام يتجرد فيه السنة والسنتين ، ويدخل إليه طعامه وشرايه ثم مات سليمان في بيت المقدس وكان عمره نيفا وخمسين سنة<sup>(2)</sup> .

### 2- الإسرائيليون يفسدون في الأرض مرتين فيخرجون منها :

قصت الآيات الكريمة رقم 4 ، 5 ، 6 ، 7 ، 8 من سورة الإسراء أو سورة بنى إسرائيل أنهم أى الإسرائيليون سيفسدون في الأرض مرتين ، فإذا جاء وعد أولهما بعث الله عليهم عبداً له أولى بأس شديد يخرجونهم منها عقاباً لهم على إفسادهم ، ثم

(1) من قوله تعالى : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّنَا إِنَّمَا ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» الآية إلى نهاية قوله تعالى : «فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ» .

(2) تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري ج 1 ص 343 .

يتوبون فيعودون إلى ديارهم ، ولكن لا يلبثون أن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من مخالفة لأوامر الله تعالى ، فيجئ وعد الآخرة فيسلط الله عليهم من يفتك بهم ويفرقهم أيدي سبأ ، فما المراد بالافساد في الأرض في الآية الكريمة وهل وقع فعلا ؟

### والجواب :

إن المراد بالافساد مخالفة أحكام التوراة والتمادي في الفسوق عن أمر الله ومجاهرته سبحانه بالعداء ، والأرض الوارد ذكرها في الكتاب العزيز هي أرض الشام وبين المقدس وما والاها ، وقع ذلك منهم فعلا فأرسل الله عليهم من أجلاهم عن الديار وشردهم شذر مذر ومزقهم شر ممزق .

### المرّة الأولى :

روى محمد بن اسحاق أن (سنحاريب) ملك بابل جاء بجيش كبير ، ونزل مجاوراً بيت المقدس فهزمه الله وأمات جميع جيشه ، ولم ينج إلا (سنحاريب) وخمسة من خواصه ، فأسرهم ملك إسرائيل (صدقة) وأمر فطيف بهم سبعين يوماً حول بيت المقدس بعد أن طرح في رقابهم الجوامع<sup>(1)</sup> ، وكان يعطيهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم<sup>(2)</sup> ثم أطلق سراحهم فعادوا إلى بابل ومات سنحاريب وخلفه في الملك (بختنصر) .

في هذه الآونة مات (صدقة) ملك إسرائيل واختلفوا على الملك من بعده ، فاختلف أمرهم وعصوا نبينهم (أرمياء) ، ولما شدد عليهم النكير قتلوه ، وكان هذا إيذاناً بهلاكهم ، فسلط الله بختنصر فدخل هو وجنوده بيت المقدس ، واعملوا سيوفهم في رقاب الاسرائيليين ، حتى أفنواهم إلا قليلاً منهم ومضى بنى إسرائيل الزمان<sup>(3)</sup> وهم مستعبدون لملوك بابل ، وفي هذه الأثناء صلحت أحوالهم وتابوا إلى الله من ذنوبهم ، فعادت إليهم قوتهم ، وأمدهم الله بأموال وبنين ، وصاروا في عدد

(1) الجوامع الأغلال ، والواجد جامعة .

(2) مكن الله (صدقة) من أعدائه لأنه كان صالحاً يقيم العدل والقسط في رعيته وهم مستقيمون يعملون بما ورد في التوراة آنذاك .

(3) قدرة السدى بخمسةائة عام .

أكثر من عددهم الأول ، واستطاعوا طرد البابليين. واستنقاذ أسراهم منهم ، وعاد أمرهم في بيت المقدس كما كان ، وذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾<sup>(1)</sup> .

### وعد الآخرة :

تولى ملك بنى إسرائيل (لاخت) وكان وزير نساء فقتل نبى الله يحيى بن زكريا عليهما السلام ، حين نهاه عن الزواج بامرأة يحبها ممثلاً فى ذلك أوامر تلك الفاجرة حيث وقع تحت تأثير سلطان جمالها .... فسلط الله على بنى إسرائيل (اسبينانوس قيصر الروم) فغزاهم فى البر والبحر ، واستولى على اموالهم ونسائهم ، وأخذ جميع ما كان فى بيت المقدس من حلى وجواهر<sup>(2)</sup> وهذا قول الله جل وعلا : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوعُوا وَجُوهَكُمْ وَيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ .

وقد فعلوا بهم ما ساء وجوههم ، أى سادتهم - وذلك باهلاكهم ، ودمر الغزاة كل ما غلبوهم عليه من بلادهم ، وكان من أمر الإسرائيليين فى هذه المرة أن تفرقت بهم الآفاق ، وسار جمع منهم إلى الحجاز ، وأقاموا بالقرب من يثرب انتظاراً لظهور نبى من أبناء عمومته العرب بشرت بظهوره التوراة ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فزعموا أنهم سينصرونه وسينتصرون به على أعدائهم ، ولكن لما أعلن رسالته ﷺ خالفوه ، وتلك شنشنتهم ودأبهم الخلف دائماً ، وما بالطبع لا يتغير (وكل إناء بالذى فيه ينضح) .

وهل ينبت الخطى إلا وشيخة وتغرس إلا فى منابتها النخل

وهكذا جعل الله تبارك وتعالى هلاك بنى إسرائيل منوطاً دائماً بمعاصيهم وبعدهم عن تعاليم السماء ، ولما بعث الله سيدنا رسول الله محمداً ﷺ عادوه وعاندوه وكادوا له ونقضوا عهده ، فلم يجد بدأ من عقابهم ، فأجلاهم عن المدينة

(1) النفير والنافر من ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته قال الشاعر:

فاكرم بقحطان من والد وحمير أكرم بقوم نفيرا

(2) روى ذلك السدى والحافظ ابن عساكر .

المنورة بل وعن شبه الجزيرة جميعاً وقال الله تعالى فيهم ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَيْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ الآية 112 من سورة آل عمران .

سلك بنو إسرائيل منذ تفرقهم فى الأرض مسلكا ظاهره الذلّة والمسكنة ، وباطنه الاستيلاء على مصائر البلاد التى استوطنوها بامتلاك رؤوس الأموال فيها والمال عصب الحياة - من حازه دانت له الدنيا ومن حرمه فمكانه فى السفح ، وتحقق لهم قول الله تعالى : ﴿وَحَيْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أى وعون من الناس ، وهذا ما كان ، فقد أعانتهم الدول الكبرى المعاصرة <sup>(1)</sup> . فاعترفت بهم دولة فى أرض العرب التى اغتصبوا ظلما وعدوانا ثم أيدتهم بأموال وسلاح وجعلتم شوكة فى حلوق العرب والمسلمين ، وها ذى كل الدولة الكبرى دون استثناء تؤيد وجودهم فى الأرض المقدسة ، ومنها من يزودهم بالأسلحة الفتاكة ، ومنها من يزودهم بالأدمغة التى تدير تلك الأسلحة للقضاء على السكان الأصليين من عرب ومسلمين ولا من سميع ولا مجيب ، وكان آخر ما صدر عنهم تلك الجريمة الشنعاء البادية فى عدوانهم على المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله ، فما الحيلة معهم الآن ؟ .

لا حيلة إلا الدفع بالقوة ولا قوة إلا مع إيمان عميق بالله وعمل بما أوصى به رسله وأنبيأه ، فقوة الله غالبه ، ولكنه وعد سبحانه ووعدته لا يتخلف أنه سينصر من ينصره ﴿وَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ .

ومن القال الحسن أن يكون هذا الحادث البشع مدعاة لضم صفوف المسلمين عامة ، والعرب خاصة تحت لواء واحد والسير معا لإنقاذ الأراضى المقدسة ، والله مع العاملين ، ولن يترهم أعمالهم .. فالإقدام ، الإقدام أيها العرب .

والبدار البدار أيها المسلمون إلى إنقاذ المسجد الأقصى الذى تستصرخكم سقفه

(1) ورد فى بعض تفسيرات الآية ﴿وَحَيْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ أى بالولاء للمسلمين لحمايتهم ولكن هذا تفسير ذهب به الزمان ، وبنى على حسن الظن بالمسلمين فى كل عصر وآن، وما أكثر ما أخلف المسلمون حسن ظن علماء الإسلام بهم تحت وطأة الغرائز والشهوات .. ولله فى خلقه شؤون ؟!!!

المنهارة وتناديكم جدره المتداعية تحت وطأة العدو الغاضب .

أرانا كلنا يهوى الحياة لنفسه      حريصا عليها مستهاما بها صبا  
فحب الجبان النفس أورده التقى      وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ولكن .. هل يستجيب العرب والمسلمون ، هيهات ، لما يراد منهم ما داموا  
بعيدين عن دين الله والاستماع لدعوته ، نسأل الله لهم الهداية والتوفيق .

## ورثة الأنبياء

عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « العلماء ورثة الأنبياء » .

(رواه أحمد وأبو داود والترمذى وآخرون)

1- أرسل الله رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فقام يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه ، وبدأ دعوته سراً ثم جهر بها حين أمر بذلك لما نزل عليها قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾<sup>(1)</sup> .

وكان هذا أمراً بإعلان ما أمر به من التبليغ ولا يلق بالآ إلى تعنيف المشركين وإيذائهم ، ولا يهتم بما سيكون عليه أمره معهم بعد إعلان الدعوة فالله تبارك وتعالى حافظه منهم ، ومزيل لكيدهم ، وناصره عليهم ، وقد ورد فى الأخبار الصحيحة أن طائفة من المشركين كانت لهم شوكة وقوة ، وكانوا كثيراً ما ينالون من رسول الله ﷺ بالإيذاء باللسان ، وربما تجاوزوا ذلك إلى أبعد منه حين يمر بهم ، وقد أفتاهم الله جللت قدرته تباعا ، وقد ذكر عدد منهم فى كتب السيرة الشريفة مثل الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب فأماتهم الله جميعاً بأهون الأسباب ، حيث ورد أن سهماً تعلق بثوب الوليد فحمله كبرياؤه على أن يتركه ولا يبعده عنه فأصاب عرقا فى عقبه فمات ، ولحق به العاصى بسبب شوكة لصقت بأخمص قدمه ، وأصاب عديا بن قيس مرض فى أنفه فمات ، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداء أودى بحياته ، وعمى الأسود بن عبد المطلب ، وهكذا باد الواحد منهم تلو الآخر ورسول الله يرى ذلك ويشاهده ، وتوالت عليه الإساءات من كل جانب ، ولكنه مضى فى طريقه مبلغاً ما أمره الله بتبليغه ، وحين لزمته الهجرة من بلد استعصى إيمان أهله ، وتفننوا فى الإيذاء هاجر إلى البلد الذى رحب به أهله وأعانوه على أمره بكل ما استطاعوا من قوة وما أوتوا من مال وولد .

(1) الآية 94 من سورة الحجر .

وكان وجود سيدى رسول الله نوراً وهدى ، فهو مبعث الرسالة ومصدرها يبلغ ما يوحى إليه من ربه ولا يسأل أحد سواه عن ما يتعلق بالتفاصيل التى تشرح الإسلام وتوضح طرائقه ، فكان كل شئ فى العقيدة وخصائص ملبساتها . وما غمض منها يرجع فيه إلى سيدى رسول الله ، ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى بعد أن تركها على المحجة البيضاء . وبعد أن أتم الله نعمته على عباده بالإسلام وارتضاه لهم ديناً .

2- بعد رسول الله ﷺ بدأ الصحابة يتصدون للشرح والتوضيح فهم ورثته فى حمل الرسالة والقيام بأعبائها ، فما وجدوا له حكماً فى كتاب الله أو فى سنة رسول الله أخذوا به وقبلوه وطبقوه وحلوا به مشكلاتهم ، وأما ما نجم من الأمور التى لم تحدث على عهد رسول الله ﷺ ، عمدوا فيه إلى القياس والتطبيق مراعين ما ورد من الأحكام عن رسول الله ، مقارنين لا مباعدين ، فظلت روح الشريعة ونصوصها تضى حاكمة بين الناس . ومصدرها أصحاب رسول الله ، ﷺ ومن بعدهم التابعون لهم بإحسان .

وإذا فتحنا صفحات التاريخ متحدثاً عن القرون الأولى وجدنا علماء الإسلام قد حملوا الأمانة على أحسن وجه وفى كل ميدان ، وما جاوزوا ما يشير به الإسلام قيد أنملة فقعدوا القواعد ، واستنبطوا أصول الأحكام وتشاوروا فيما غم عليهم ، وما غمض من شأن وجالوا فى كل مجال ، فلما امتدت الفتوح الإسلامية ، وخشى عقلاؤهم ضياع آثار رسول الله انتدبوا أنفسهم إلى جمع ما تفرق من الأحاديث وغربلوا تماماً ، ولم يرتضوا إلا الصحيح بشروط وضعوها لمعرفة والاعتناع به ، وبرزت أسماء كريمة من علماء المسلمين العاملين أمثال الأئمة . أئمة التشريع والفقهاء ، وهم كثر يفوقون الحصر وإن كان قد شهر بعض أعلامهم لطول جهادهم فى تحصيل العلم وتعليمه للمسلمين ، وتعطر التاريخ العلمى للإسلام بوجود هؤلاء الصفاة .

3- كان أمثال أبى حنيفة ومالك وأحمد والشافعى والبخارى ومسلم والحسن البصرى والأشعري وغيرهم ممن ورثوا الشريعة عن رسول الله ﷺ حقاً وأدوها صدقاً ، وجاء من بعدهم فى كل قرن من حمل تلك الدعوى على أحسن وجه ، وحارب بشدة كل بدعة نجمت ، وأبدى رأى الإسلام واضحاً فى كل مرة سألته ، ظهرت وبهذا

حققوا الوراثة عن رسول الله ﷺ الذي قال : (العلماء ورثة الأنبياء) ثم قال فى موطن آخر ما خلاصته (نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة) فعلم أن ﷺ لم يورث درهما ولا ديناراً ، وإنما ورث العلماء الهداية والإرشاد وتحمل المسؤولية الشرعية كاملة .

ولما اتصل المسلمون بالأمم ذات الحضارة القديمة ، ونقلوا ثقافتهم إلى لغتهم ولم يقصروا فى البحث ، ولم يقبلوا الأمور على علاتها ، بل أخضعوا البحوث كلها لقواعد إسلامية وزادوا فى حضارة العالم حضارة ذات خصائص مميزة وعلائم واضحة .. واقتضى اتساع رقعة الدولة وتشعب مصالحها تنوع البحث بعيداً عن العبادات والمعاملات ، ونشأت بحوث فى الكون وما تقوم به أمور الحياة فى معاشها ، فجال علماء الإسلام فى هذا أيضاً كل مجال ، ووضعوا أسس الحضارة المعاصرة ، وكانوا رواداً فى علوم مختلفة ومن الممكن أن يقال - ولا قلب مطمئن لما يقال - أن وجود المسلمين وحضارة الإسلام مرحلة كان لا بد منها للتطور الحضارة الذى نراه ونشاهده ، ونعيش فى ظله ونلمسه .

4- وجد المسلمون دافعهم إلى الدرس والفحص فى كتابهم الكريم المنزل من حكيم حميد ، فقد جعل الله آدم خليفة فى الأرض وجعل قصة خلافته من المحكم لا من المتشابه ، وضرب بها الأمثلة على تفضيل آدم على جميع ما عداه من المخلوقات مسخراً تلك الكائنات لفكره وبحث وعلمه ، فقد هيا الله له هذه الأرض ، وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه ، وجعل الإنسان عاملاً باختياره وأعطاه استعداداً فى العلم والعمل ، ولما علمه الأسماء كلها أمر ملائكته أن يسجدوا إعظاماً لعمل آدم ، وتقديراً لمدى معرفته بأسرار الكون ومكنوناته ، وفى ثنايا ذلك الفخر العظيم والتعظيم البالغ مداه ، أبان الله لآدم ولذريته من بعده أن طريقهم فى الحياة ليس سهلاً ولا هيئناً ، وإنما تلاحقه العقبات وتملأه المشكلات ، وكان أول مظهر لذلك نكوص إبليس وتكبره عن السجود لآدم ، وقال الله له : ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾<sup>(1)</sup> وبالتالى لذريتكما من بعدكما ، ولا تهنوا أمام المشكلات المتلاحقة والعوائق المانعة من التقدم .

(1) الآية 117 من سورة طه .

5- بعد هذا : وجد المسلمون فى قرآنهم الأمر بالنظر فى السموات والأرض ومعه الأمر بالاستقامة فى الدين ، ولم يجدوا فرقا بين الأمرين ، فكلاهما من الله تعالى فوجب عليهم أن يعمرُوا حياتهم بالعبادات الخاصة لله ، محققين قوله تعالى : ﴿فَاسْتَقِمُّوا كَمَا أُمِرْتُمْ﴾<sup>(1)</sup> .

فالاستقامة مطلوبة من رسول الله ، ومن أمة الإسلام جميعاً ، ويعد ذلك واجب عليهم أن يتقوا فى البلاد عن خفايا الكون ليصلوا إلى أسرارهِ وتنفيذاً لأمر الله أيضاً فى قوله سبحانه ﴿قُلْ الظُّرُوفُ مَاذَا فى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ، فالأمر للوجوب فإذا نحن قرأنا آيات الاحكام ، وعملنا بها وطبقناها ، فلنقرأ آيات العجائب الكونية ، ونعمل على التطبيق فى الزراعة والصناعة والتجارة والبحوث الكونية ولما كنا قد أهملنا ذلك حيناً لسبب أو لآخر فلنكفر عن هذا التقصير ولنبدأ بالعمل الجاد ولنحمل أبنائنا حملاً قويا على الفناء فى سبيل البحوث الكونية ، ومن سار على الدرب وصل ، وبهذا نكون ورثة حقيقيين لرسول الله وقائمين دائماً بحق الله ، وجديرين بتلك الوراثة حتى نتسّم المكان الذى أرادهُ الله لنا كأمة وسط لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول علينا شهيداً .

---

(1) الآية 112 من سورة هود .

## معالم الطريق إلى النصر

- إيمان قوى بالله .
- سير على هدى رسول الله ﷺ .
- تجمع إسلامى كامل .
- نفير عام ينظم الأمة الإسلامية .

1 - أرسل الله رسله بالهدى ودين الحق ، وأيدهم بالمعجزات ، وهى الأمور الخارقة للعادة يظهرها الله على يدي مدعى النبوة تصديقاً له فى دعواه فنجى الله نوحاً وأغرق قومه بالطوفان لما عصوا أمر ربهم ، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأعطى موسى العصى التى كانت تلقف ما يأفكون . وأقدر عيسى على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله .

وأما سيدى رسول الله خاتم النبيين فقد كانت معجزته الكبرى ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه هدى للمتقين . وإعجازه من حيث بلاغته التى أعتت فحول البلغاء فى عصر نزوله ومن جاء من بعدهم عن الإتيان ولم يمثّل أقصر سورة منه ، وفوق هذا وذاك ما اشتمل عليه من تشريع ينظم أمور الحياة فى شتى صورها وأشكالها اجتماعية واقتصادية وعلاقات دولية ، مشيداً بالتربية الاستقلالية ، وداعياً إلى النضوج الفكرى ، فالأمة التى تنتسب إليه وتعيش فى ظله وتنفذ ما جاء به تنفيذاً كاملاً شاملاً لا بد وأن تصبح فى مقدمة أمم الأرض قوة واقتداراً ، وقدرة عملية فى جميع ضروب الحضارة الانسانية ، فلا يمكن بحال لأى مصدر تشريعى أو تقنيى أو تربوى أو داع إلى نهضة فكرية أو تقدم علمى أو باحث فى كيفية الحصول على السعادة الإنسانية أن يصل أو يقارب ما جاء به الإسلام وسجله القرآن وفصلته السنة ، وأبدع فى تطبيقه وتشقيق مسائلة تقنيئاً علماء المسلمين ، وما أبرزه علمياً فى حياة الناس اليومية أمراء المؤمنين المخلصين العاملون ، ونضرب الأمثلة للتقريب مارين بآيات كريمة من كتاب الله تعالى :

ففى مجال التشريع العام يقول الله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَظُرُّ بِالْعَدْلِ وَإِلْحْسَانٍ﴾<sup>(1)</sup> ، وفى ميدان السباق الفكرى والتأمل العقلى للوصول إلى نتائج علمية وافية يقول : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾<sup>(2)</sup> . ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(3)</sup> . وفى الدعوة إلى الترابط الدولى ترد الآية الكريمة : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾<sup>(4)</sup> . وفى الاقتصاد : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾<sup>(5)</sup> ، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾<sup>(6)</sup> ، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾<sup>(7)</sup> ، وفى تقوية الصلات الاجتماعية للنتاج الفعال فى مجتمع متماسك : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾<sup>(8)</sup> . « إلى آخر ما هنالك من كمال كامل لا يرقى إليه نقد ولا يطاوله اعتراض ولا غرو فهو تنزيل من حكيم حميد وتشريع ممن يعلم السر وأخفى .

2- ومن أهم المعجزات المؤيدة لصدق رسول الله ﷺ بعد القرآن الكريم إسرائؤه ومعرجه ، فهذه المعجزة توضع فى المكان الأسمى من التوجيه العلمى وطلب البحث الكونى من أتباع سيدى رسول الله فى كل زمان ومكان ، وتأتى فى مقدمة الحث الأکید على الاستكشاف استطلاع أسرار الكون علوية وسفلية واستثمار نتائجها فى إسعاد البشرية ورقى الحضارة الإنسانية . فمن المؤكد تاريخيا والمحقق علميا والموثوق به إخباريا أن سيد الخلق ﷺ أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى لحظات من ليل ، وعرج به إلى السموات العلى فى دقائق معدودات ، ولم

(1) الآية 90 من سورة النحل .

(2) الآية 190 من سورة آل عمران .

(3) الآية 101 من سورة يونس .

(4) الآية 13 من سورة الحجرات .

(5) الآية 31 من سورة الأعراف .

(6) الآية 29 من سورة الإسراء .

(7) الآية 67 من سورة الفرقان .

(8) الآية 2 من سورة المائدة .

تتجاوز الرحلة كلها مع لقاءته عليه الصلاة والسلام بإخوانه الأنبياء ومفاوضاته مع موسى بخصوص الصلوات الخمس ، واستطلاع أحوال عصاة أمته الأخروية ، بضع لحظات من الليلة ذاتها . ولو سألتنا العلماء المعاصرين الباحثين فى أحوال الكون والواصلين إلى بعض أسراره لأجابوا : لا مستحيل مطلقا فى وقوع هذا الأمر وحصوله فلئن كان الإنسان العادى قد وصل إلى كوكب غير الأرض ، فأحرى بسيدى رسول الله عليه السلام وضيف رب العالمين الذى أحاط بكل شىء علما ، أن يصل إلى حيث يريد له من أمره بين الكاف والنون الذى بيده مقاليد كل شىء وهو على كل شىء قدير .

3- بعد هذا العرض السريع لبعض آثار قدرة الله تعالى وإحاطة علمه وحد به على البشرية بالتشريعات السديدة والتعليم مفيد والتربية المجدية تتساءل : ألم يأن للذين تشرفوا بالانتساب إلى الإسلام أن يعرفوا طريقهم المرسوم فيسلكوه نفسه ، ومن لم يثبت وجوده بهمته وعلمه لا يمكن أن يقدره غيره ولا يقيم له وزنا سواه ، وأن التفاخر بالأنساب والرغم قد مضى زمانه ، وأنه لم يأخذ صورة بارزة إلا فى أذهان العاجزين القاصرين ، ولم يكن من سلف الأمة عاجز ولا مقصر فقد جرى على ألسنتهم :

إن الفتى من يقول هانذا      وليس الفتى من يقول كان أبى

وذاع بينهم :

نفس عصام سودت عصاما      وعلمته الكر والاقداما

وصيرته ملكا هماما

وشاع من أمثلتهم السائرة .

(كن عصامياً ولا تكن عظامياً فتهلك)

وعرفوا أن لن يهون على الناس إلا من هانت عليه نفسه فقالوا :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها      هوانا بها كانت على الناس أهونا

ألم يحزن للمعاصرين من ورثة أولئك الأشاوس الأمجاد أن يتحاشوا أن يقال

فيهم :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام  
ألا فلينشدوا مع شاعرهم وهم يعملون وينفذون :

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا  
ومع الآخر :

وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ويملك سمعيه اليراع المثقب  
وليرددوا :

من لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد  
4- ولكل هذا يجب أن يعلم المسلمون عامة والعرب منهم خاصة أن الطريق  
واضح لا حب ، وأن سلوكه جد هين لا يستحيل مع عون الله .  
الطريق ودلائلها للانتقاد من كابوس الأعداء - وما أكثرهم - بينة وها هى ذى  
رسومها :

أولا : إيمان قوى عميق بالله وعمل وتطبيق لكتاب الله وسير حيث على هدى  
رسول الله .. وسينتج كل هذا بعد التركيز الحق والتنفيذ الصريح لأحكام الإسلام ،  
حتى لا تذهب أصواتنا أدراج الرياح ، وحتى لا يصدق علينا المثل القائل ، (مالى  
أسمع جعجعة ولا أرى طعنا) .

ثانياً : نفي عام تشترك فيه كل الأمة الإسلامية مساهمة بكل قادر على الوقوف  
على رجلين من أبنائها ذكوراً وإناثاً ، شباباً وشيباً مضحين بالسبد واللبد وباذلين كل  
تالد وطريف فى سبيل نصر مؤكد بعون الله سبحانه .

ثالثاً : دعوة صريحة لا موارد فيها ولا التواء لأولئك المجاهدين أن يجعلوا  
هدفهم إحدى الحسنيين مؤمنين بما عند الله وليسمعوها صريحة قوية صادقة ليتدبروها  
حقيقة مدوية من واقع جهاد المسلمين وتوجيه رب العالمين فى سورة النساء من  
التنزيل الحكيم ، ليصيخوا إليها سماوية قرآنية تحث على إدامة الصلة بالله فى ميدان  
القتال رمزاً لطلب عونه وانعظافا إلى ساحته وأملا فى نصره وتأيدده ، قال تعالى :

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (1).

5- وبغير هذا الإيمان والعمل ، لا يكون إلا نصر مخبول - إذا كان - وعمل مبتور ونهاية إلى بوار .

وأنا أؤمن بالله ولا أصدق إلا ما أوحى من عند الله ، وذلك هو نداء القرآن وهدى سيدى رسول الله ﷺ الذى أنجبت دروسه وتعليمه المثل العليا للإنسانية الفاضلة الفعالة للخير من كل الميادين والمجالات .

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع

جئنى بمثلهم عاملين فى الحقل الإنسانى لا يرجون من وراء عملهم جزاء ولا شكوراً .

وهاك بعض الأمثلة للرجال المؤمنين :

- 1- أبو بكر : الواقف وحيدا ضد المرتدين على كل المخالفين .
- 2- عمر : فريد الإنسانية فى شدة ودقة تطبيقه للعدالة الإنسانية بادئاً بنفسه والأقربين إليه .
- 3- عثمان : التقى الورع ذو النورين المضحى بماله وصحته فى سبيل الله ساعة العسرة .
- 4- على : وما أدراك ما على ، صاحب (ذى الفقار) باب العلم ، مطبق سياسه المحبة ولو كانت النتائج ضده ، فاقها كتاب الله واقفا عند حدوده .
- 5- خالد : سيف الله صاحب المواقف الفذة فى تاريخ الدنيا ماضيا وحاضرا فى تاريخ البشرية جمعا . ألم تر إليه يوم أقصى عن القيادة فقاتل جنديا يحمل راية الإسلام لا يرجو إلا الله واليوم الآخر .

(1) الآية من سورة النساء رقم 102.

6- أبو عبيدة : أمين هذه الأمة كما نص على ذلك سيدى رسول الله ﷺ . بهذه النماذج العليا ساد المسلمون ، وسادت حضارتهم ، ويمثلها تعود للمسلمين الصدارة كما كانت . وبالمروور عبر التاريخ خلال القرون لا تدم فى كل عصر ومصر مثالا رائعا فريداً للكمال فى السلم والحرب فى العلم والبحث فى التقنين والتشريع من أبناء الإسلام ، فاقتدوا بهم واعملوا وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ويوم يتجمع المسلمون تحت راية الإسلام سيطأطى العالم كله رأسه إجلالا لهم ، ويصيخ سمعاً لمطالبهم وينفسح لهم المكان اللائق بكرامتهم فى المجال الدولى ، ولن يستعصى عليهم شأن ما من شئون الدنيا ... ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز .

## الانتفاع بالزمن

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : (أعذر الله إلى امرئ ، أخر أجله حتى بلغه ستين سنة)<sup>(1)</sup>.

(رواه البخارى)

1- البقاء فى الدنيا قليل مهما طال ، فما دام الأجل محدودا ، والعيش موقوتا ، ولكل نهاية مؤكدة ، وغاية ينتهى إليها ، فالزمن الموصول إلى الهدف لا يفوق العد ولا يتجاوز ماله من حد ، وبين البدء والخاتمة غدو الموجود ورواحه يستطيع بيقظته وجده وتقديره قيم ليا له وأيامه أن يجعلها عريضة أكثر منها طويلة فلا يدع لحظة تمردون فائدة يجتنيها وثمرة يقتطفها ، وعمل نافع يؤديه ، يدرس بنفسه ميول نفسه ، ويعرف حقيقة وجوده من وجوده ، ويتفاعل مع إنسانيته ، فيروضها على الحسن من الانطباعات ، وبأخذها بالحسن ليغرسها فيها ما جناه ، حلو شهى ، ويدرب تفكيره على سلوك دروب الأنبياء والراشدين من عباد الله ، ويتجافى عن ما ينزل بآدميته إلى درك العجماوات ، وبهذا يؤثر فى بيئته بالخير ، ويقود مجتمعا يعيش فيه إلى النور ، إلى الحق الأبلج ، معرضا عن ما يلاقى من معوقات ، صامدا للأحداث والخطوب ، إذا مر باللغو مر به كريما وإذا خاطبه الجاهلون قال سلاما ، فيعلو على المثبطات ويصبح أهلا لتحمل أعباء العبودية لله ، والتمسك بحريته كاملة غير منقوصة فيما وراء ذلك ، وحين يفيض عليه ربه رضاه ويمنحه عونَه فسيصبح كل صعب لديه سهلا ، وكل عظيم هينا .

إذا صح عون الله للمرء لم يجد عسيرا من الآمال إلا مسيرا

2- ورسول الله ﷺ هو المثل والقُدوة ، وهو المصطفى لرسم الخطة المثلى للحياة الكريمة فى هذه الدار الحائلة ، وقد استطاعت تعاليمه الموحاة إليه من رب

(1) الأعدار- ازالة العذر . والمراد أنه لم يبق له عذر كأن يقول : لو طال أجله لفعلت كذا وكذا من الخيرات ، وقيل : أن معناه أن الله لم يترك للعبد سببا فى الاعتذار يستمسك به .

كل شئ أن تحول طبائع المخلوقين من ضعف إلى قوة ، ومن جزع إلى صبر و صمود ، ومن عجز إلى سلطان و سطوة ، ومن استكائة و انطواء في رقعة معينة من صحراء العرب إلى انطلاق لا يعرف الحدود ولا القيود ، ومن معرفة محدودة وثقافة ضيقة إلى علوم وابداعات ، فكان ممن انطوى تحت لوائه القائد المحنك و العالم المدره و السياسى الفطن ، و تطورت معارفهم و تنوعت فلم تدع بحرا إلا خاضته و لا لجا الا اقتحمته ، و لا ميدانا إلا جالت فيه ، و شعر الذين انتفعوا بترائهم لو غابوا عن الوجود لما ارتقى فكر إلى ما إليه ارتقى ، أو على أحسن الفروض لاقتضى الوصول إلى درجتهم زمانا يطول ، و جهدا يضمنى ، و رأيا يعبى به أولوا العزم ، و كان منهم من عمر و من من اخترمته منيته في ريعان الصبى ، و لما يتجاوز الأربعين خريفا .

3- و في هذا الحديث الشريف موضوع الدرس حث أكيد على اغتنام فرص الحياة للتزود منها بكل ما استطاع من عمل الخير الدنيوى فعن طريقة ينمو الجنى فى الدار الآخرة ، و لا يتفوق الإنسان على غيره إلا بنفاذ بصيرته ، و صفاء روحه ، و تساميه عن الانغماس فى المادية القاتلة ، و ليس معنى هذا أن يتعلق بأهداب الخيال و يبني قصورا من رمال ، و إنما فى عمل سيدنا رسول الله ﷺ الأسوة دائما فيها هوذا - كما ورد فى سيرته المطهرة- يحفر بنفسه الخندق مع أصحابه ، و يحمل التراب و يلتفت إليهم فى رحمة رحيمة ، و حب عميق و يقول . اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة . فاغفر اللهم للأنصار و المهاجرة .

و فى لقاءاته الكريمة معهم ، و ما كان ليفارقهم أبدا ، يغرس فى نفوسهم النور من التواكل و الضعف و يحملهم حملا على اغتنام لحظات العافية و القوة للانتفاع بنتابها ساعة الضعف و الحاجة فيقول صلى الله عليه وسلم معلما و هاديا و مرشدا : فيما أخرجه الحاكم عن ابن عبيس رضى الله عنهما : ( اغتتم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، و صحتك قبل سقمك ، و غناك قبل فقرك و فراغك قبل شغلك ، و حياتك قبل موتك ) فما أسماه من توجيه و ما أحكمه من قول فيها هى ذى فرص فى الحياة خمس ، إن أستغلت أثمرت و أئنت و آتت أكلها سعادة فى العاجلة و الآجلة .

4 - و نص على الستين لأن استكمالها مظنة لإنهاء الأجل ، فقد قيل أن المراحل

الحياتية التي يجتازها المرء فى عبوره أربعة هى : الطفولة ، ثم الشباب ، ثم الكهولة ، ثم الشيخوخة ، وغالبًا ما تكون الأخيرة بين الستين والسبعين حيث يظهر ضعف القوة بالنقص والانحطاط وفيما أخرجه أبو يعلى عن أبى هريرة (معتك المنايا ما بين ستين وسبعين) فمن بلغها ينبغى له الإقبال على الآخرة ، واللياذ بباب الله وطلب المغفرة مما أسرف فيه على نفسه فى شباب مضى ، وعافية ذهبت ولن تعود .

وفى هذه السن يقوى العقل ويشد ، وكثير من العلماء على اختلاف نزعاتهم كان إنتاجهم الدسم الغزير الفائدة بعد الستين ، بل منهم من استنارت بصيرته وانفتحت على مغلقات الكون بعدها فجاء بما صار مضرب الأمثال فى الجودة العلمية والاتقان الفكرى ومثالا للنبوغ الإنسانى ، وإن كان بعض من احترموها قبل هذه السن عبقرىا لا يبلغ شأوه ، ولا يسبق فى ميدانه .

ومن الميول الغريزية التى لا تفارق الإنسان معهما طال به الزمان ما نصت عليه أحاديث أخرى ، تلك هى حب الدنيا وطول الأمل ، قال صلى الله عليه وسلم : (لا يزال قلب الكبير شابا فى اثنتين : فى حب الدنيا وطول الأمل) وفسر الأمل هنا بالرغبة فى طول العمر ، وحب الدنيا بالعكوف على جمع المال ، وقال ابن الجوزى : الأمل مذموم إلا للعلماء فلولا أملهم لما صنفوا ولا ألقوا ، ولكن هذا شىء مطبوع فى جميع بنى آدم ، وفى الأمل سر لطيف فلولا ما نعم أحد بعيش ولا شرع فى عمل ، وفى الحديث الشريف : (لولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجرا) وقد مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم طول العمر مع حسن العمل فقال : (خيركم من طال عمره وحسن عمله) .

5 - والباحث الفاقه لأصول الإسلام وقضاياها ، العارف بدرويه المتعمق فى دراسته لكتاب الله وستة رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، مع المامه بما صارت إليه حال المجتمعات المادية المعاصرة ، وما آل إليه أمرها من اضطراب عقائدى ، وانهيار روحى ، وانقصاص عرى الصلوات الإنسانية والروابط الروحية بين أهلها ، لا يجد لها مناصا من سلوك الطريق الوسط السوى الذى حددته آيات الله فى القرآن العظيم وأفاضت فى الأحاديث الشريفة .

ولكن أنى يكون ذلك وأبناء الإسلام لا يفقهونه ولا يدركون مراميه فقد جهلوا كل شيء عنه إلا القشور التى لا تسمن ولا تغنى من جوع عقلى وضياع فكرى ، وما يردهم إلى صوابهم إلا أن يعوا ويدرسوا من جديد كتاب الله فهو والوحى المنزل الذى لا تعتوره شبهة نفع مادى أو بحث وراء فائدة شخصية ، وإنما يرجى بتطبيق أحكامه تحرير العقول من الشرك الحاصل والناجم فى أزمئة بعيدة ، ورفع الظلم الإنسانى الذى استشرى حين تخلى البشر عن تعاليم السماء وركنوا إلى أنفسهم يستوحونها الهداية ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد .

6 - والحديث الشريف موضوع البحث يدعو إلى استغلال لحظات الحياة فيما يخدم القضايا الإنسانية وذلك عن طريق الإسلام ، وإذا بلغ الرجل الستين ولم يكن له قدم صدق عند الله فى حق الدعوة فلا يلومن إلا نفسه التى بين جنبيه فعليه وحده تقع مسئولية ما سيلقى من جزاء عادل يوم القيام : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ وَأَنْفُسَكُمْ وَأَنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (1) .

والاسم لا يحتاج فى إظهار عدالة قضايه إلى الاستدلال بآراء أعدائه وإن كان الفضل ما شهدت به الأعداء كما هو المأثور ، وإنما يحتاج بالدرجة الأولى إلى همة أبنائه فهو يستصرخهم صباح مساء أن هلموا إلى رحابى واحملوا رايتى ، وتولوا القيادة التى ضل أهلها يوم أهملتموها ، وإنى لشديد الأمل واسع الرجاء فى الجيل المعاصر إذا أحسن توجيهه ، وإذا فتح عيونه على حقيقة ما يتردى فيه البعيدون عن نور الله من شقاق وخلاف وتناحر وضياع فى تيه الحياة الذى لا آخر له ولا منقذ منه إلا قيادة عربية إسلامية واعية ، فالعربى هو أول من جاهد ورفع لواء الحق يوم بدا له نور الله لأول مرة وسيكون هو الذى يتولى ردع الناس وردهم إلى اللواء الإسلام آخر الأمر فهو الذى يستطيع فقه كتاب الله ، واستخلاص الأحكام منه وصنع الدواء لكل داء عياء فى الأوساط الإسلامية المعاصرة ، وإن غدا لناظره قريب ، والتوفيق من الله وحده هو حسبنا عليه نتوكل وإليه ننيب .

(1) الآية 7 من سور الإسراء .

## بين الأمل والحقيقة

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (خط النبي صلى الله عليه وسلم خطوطا ، فقال : هذا الأمل وهذا أجله ، فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب)<sup>(1)</sup> .

( رواه البخارى )

1 - للإنسان آمال لا تنتهى ، ولا يبلغ مداها ، والأمل هو حادية إلى كل تطور إلى الأفضل لحياته ، فلولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجرا ، العاقل الفاقه لأحوال الدنيا لا يجعلها أكبر همه ، فينسى الآخرة دار المستقر ﴿وَأَنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾<sup>(2)</sup> ، وكل لحظة تمر تقترب به إلى النهاية المحتومة ، وقد تحترمه المنون على حين غفلة ، فيمضى إلى دار حساب شديد ، يوم يقوم الناس لرب العالمين يتجرد فيه من كل ما ملك وجمع ، من المال والولد ، والإماء والعييد ، والطارف والتلبد ، ويتبرأ منه كل عرف فى الدنيا ، بل الأقربين من ذوى القربى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ<sup>(34)</sup> وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ<sup>(35)</sup> وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ<sup>(36)</sup>﴾<sup>(3)</sup> وقد يتساءل لماذا هذا الفرار والجواب : ﴿لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾<sup>(4)</sup> . ولو أن هؤلاء أطاعوا وأقبلوا ، ولاقوا صاحبهم لقدمهم فداء لينجو بنفسه مما يلزمه من ههول ، ﴿يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ كَوَيْفَ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ<sup>(11)</sup> وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ<sup>(12)</sup> وَقَصِيئَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ<sup>(13)</sup> وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ<sup>(14)</sup>﴾<sup>(5)</sup> . وهيئات هيئات لما يؤمل ويرجو ، وكيف ومن ورائه عذاب محيط ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْمَأَنَّنَةٌ إِذْ لَمَّ أَصْحَابُ النَّارِ وَتَلَاؤُهُمْ<sup>(15)</sup>﴾<sup>(6)</sup> .

(1) وعند البيهقى من وجه آخر ما لفظه : (خط خطوطا وخط خطا ناحية ثم قال : هل تدرون ما هذا ! هذا

مثل ابن آدم ومثل التمنى ، ذلك الخط : الأمل بينما يأمل إذ جاء الموت .

(2) الآية 64 من سورة العنكبوت .

(3) الآيات من سورة عبس رقم 34 إلى 36

(4) الآية 37 من سورة عبس .

(5) الآيات من 11 - 14 سورة المعارج .

(6) الآيات من 15 - 18 سورة المعارج .

وقد كثر في الآيات المكية الحديث وطال عن الآخرة . وما يلقى فيها المارقون من ويل وثبور ، وجحيم وأنكال ، كما وصفت النار بالوصف المخيف المرعب فوقودها الناس والحجارة ، وعليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ، ينادون وأردى جهنم ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾<sup>(1)</sup> ويقول رائداهم مغربا بالملحدين فى آيات الله ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾<sup>(30)</sup> ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ<sup>(31)</sup> ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ<sup>(32)</sup> ﴿ (2) .

وأما المثابون المنيبين إلى الله فهنيئا لهم ما أسلفوا من خير ، وما قدموا من معروف ، حيث تقيهم أعمالهم بفضل الله من العذاب ، ويبدلون به جنات النعيم : ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا<sup>(13)</sup> وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَمْطُهَا تَذَلِيلًا<sup>(14)</sup> وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا<sup>(15)</sup> قَوَارِيرٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدَرُوهَا تَقْدِيرًا<sup>(16)</sup> وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا<sup>(17)</sup> عَنِينًا فِيهَا نَسِيمٌ سَلْسِيلًا<sup>(18)</sup>﴾ (3) .

2 - وأول منازل الآخرة القبر ، وأن أمر القبر لعجيب ، حفرة تضيق بالوافد إليها فتضمه ضمة تختلف لها أضلاعه ، وهذا أول أحوالها ، ثم يأتيه من يسأله عن سيرته فى الدار القادم منها ، ويناقشه فى أصول معتقداته بإيجاز ، فقد لا يستطيع جوابا ، ولا يملك ردا ، لأنه حيل بينه وبين ما يعينه على الجواب ، وهو بنفسه الذى أوصد الباب حين حاد عن جادة الصواب ، واطرح الحق الصراح ، وولى الأدبار ، واتجه كليا إلى دار البوار ، وحينذاك يضرب بمرزبة<sup>(4)</sup> ما أثقلها ، يروى الطبرانى عن البراء مرفوعا (يقال للكافر من ربك ، فيقول لا أدرى ، فهو تلك الساعة أصم أعم أبكم فيضرب بمرزبة لو ضرب بها جبل لصار ترابا) .

وأما من أجاب صوابا فما أسعده وما أعظم سروره ، فعن أبى داود : (يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان : ما ربك ؟ فيقول ربي الله ، فيقولان : وما دينك ؟ فيقول : دينى

(1) الآية 48 من سورة القمر .

(2) الآيات 30 - 32 من سورة الحاقة .

(3) الآيات من 13 - 18 من سورة الإنسان .

(4) المرزبة بالتخفيف : المطرقة الكبيرة التى للحداد.

الإسلام ، فيقولوا : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ ، فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله تعالى فأمنت به وصدقته ، فينادى مناد من السماء : صدق عبدى فافرشوا له من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة وألبسوه من الجنة ، ويفسح له فيه مد بصره) .

والأحاديث الشريفة التى تتحدث عن القبر وأحواله لا تكاد تحصى عدداً مما ورد فى الكتب الصحيحة المعتمدة .. ومن آيات القرآن الكريم ما يشير إلى وقوع العذاب فى القبر ، يقول الله تعالى : ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخِلُوا نَارًا﴾<sup>(1)</sup> ، ويقول سبحانه : ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾<sup>(2)</sup> ، وقوله جل شأنه : ﴿أَلَهَآكُمُ التَّكَاثُرُ﴾<sup>(3)</sup> حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ<sup>(2)</sup> ...<sup>(3)</sup>

أما الأحاديث فقد تواتر عن سيدى رسول الله ﷺ فى عذاب القبر ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (سألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر ، فقال : (نعم عذاب القبر حق) وفى صحيح مسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ ، كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن : (اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال) .. وفى الصحيحين أيضاً عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : (أن أهل القبور يعذبون فى قبورهم عذاباً تسمعها البهائم) وورد أن النار التى فى القبر ليست من نار الدنيا وإن كانت أشد منها ، ولا يشعر بها لأحياء ، بل ربما دفن الرجلان فى قبر واحد فيكون لأحدهما روضة من رياض الجنة ، وللآخر عذاب أليم ، وقدرة الله أعظم وأعجب من هذا ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون .

(1) الآية 25 من سورة نوح (وليس الجن) .

(2) الآية 93 من سورة الأنعام .

(3) الآيتان : 1 ، 2 من سورة التكاثر .

3 - وماذا بعد القبر ؟ يمكث الثاوي فيه ما شاء الله له أن يمكث ، ثم تحين الساعة التي لا تأتي إلا بغته ، وقد بدأت أشراتها منذ بعثة سيدي رسول الله الذي يقول ﷺ : (بعثت أنا والساعة هكذا وقارب بين اصبعيه السبابة والوسطى) .

ولكن أخذت الآن تكثر وتتابع ، ما نحن من العلامات الكبرى المنصوص عليها في الكتاب والسنة ببعيد ، فهذا هو ذا دين الله قد بدأ يتقلص شيئاً فشيئاً من نفوس أتباعه بالورثة ، وقد ورد في الصحاح أن الساعة لا تقوم إلا على قوم كافرين ، لا يعرفون من أمر الدين شيئاً ، وأن العلم سيقبض بموت العلماء .

فكلما اخترمت المنون نفس عالم بكتاب الله وسنة رسوله لا يترك من بعده خلفاً يساويه أو يقاربه ، وأما القرآن الكريم فقد ورد أيضاً في الصحيح أنه سيمحي يوماً من المصحف ومن الصدور فتبقى أوراق المصاحف بيضاء لا أثر فيها لكتابة ، وقلوب الحفاظ فارغة لا تذكر آية واحدة ، حتى يقول أحدهم لصاحبه ، كنت أعرف شيئاً نسيت ولا أدري ما هو .. أخرج الديلمي من حديث أبي هريرة وحذيفة رضى الله عنهما مرفوعاً : (يسرى على كتاب الله ليلاً فيصبح الناس وليس منه آية ولا حرف في جوف إلا نسخت) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (عن السلف : إن القرآن العظيم كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود) ، وأن معنى إليه يعود ما جاء في الآثار ، أن القرآن يسرى به حتى لا يبقى في المصاحف منه حرف ، ولا في القلوب آية) وأخرج ابن ماجه من حديث حذيفة رضى الله عنه مرفوعاً :

(يدرس الإسلام حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ، ويسرى على كتاب الله تعالى في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية) وأخرج ابن ماجه أيضاً بسند قوى ، وكذلك الحاكم والبيهقي والضياء عن حذيفة رضى الله عنه : (يدرس الإسلام كما يدرس وشى الثوب حتى لا يدري صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة ويسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى منه في الأرض آية ، ويبقى طوائف من الناس الشيخ والعجوز ويقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة (لا إله إلا الله) فنحن نقولها .

قال السفاريني : أثبتت السنة الصحيحة أن أهل الأرض يكفرون ويعبدون الأوثان وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس ، فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم عن حديث

ابن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( تجيء بعد موت عيسى ريح باردة من قبل الشام فلا تبقى على وجه الأرض أحدا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى ولو أن أحدكم دخل في كبد حوت لدخلت عليه حتى تقبضه ، فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيتمثل لهم الشيطان فيقولون ما تأمرنا فإياهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم في دار رزقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ في الصور) .

وقد بدأ التمهيد لتلك الأحداث بشكل مخيف ، فأصبحنا نرى كثيراً من المسلمين لا يرون بأساً في انتشار المنكرات بل يروجون لها ، وظهر فيهم ما أهلك الله به بنى إسرائيل ، ولعنهم على السنة أنبيائه : ﴿لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ<sup>(78)</sup> كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ<sup>(79)</sup> كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ<sup>(80)</sup>﴾<sup>(1)</sup> .. أخرج الإمام أحمد بسند قوى عن أنس رضى الله عنه مرفوعاً : ( لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض لا إله إلا الله) رواه مسلم بلفظ (حتى لا يقال فى الأرض : الله .. الله ..) .. نعوذ بالله أن ندرک هذا الزمان ، كما نعوذ به سبحانه ونلجأ إلى حماه أن يجتنبنا شرور هذه الأيام وأن يحول بقدرته بين المعاصرين وبين ما يغضبه عليهم أنه بهم رؤوف رحيم .

4 - ويعد أن تعباً الدنيا بالشور ، وتضييق بالكفر والفجور ، وتستباح الحرمات على قارة الطريق ، ولا يوجد من يقول : هذا حلال وهذا حرام ، وينزل البشر فى اتباع شهواتهم إلى درجة العجماوات ، حتى يلقي أحدهم أخاه على فاحشة الزنا مجاهرا بها فيقول له : هلا ملت قليلا عن الطريق العام ، ويقول فى ذلك رسول الله ﷺ : (.. ويكون قائل هذا فيهم مثل أبى بكر وعمر فيكم) عندئذ يأتى ما لا مفر منه ، وينفخ فى الصور إسرافيل فتميد الأرض بأهلها ويومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(67)</sup> وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ

(1) الآيات 78 - 80 من سورة المائدة .

فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ<sup>(68)</sup> وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ  
بِنُورٍ رَبَّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا  
يُظْلَمُونَ<sup>(69)</sup> وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ<sup>(70)</sup> ﴿١﴾

وأما مراتب المعاد بعد ذلك كما ورد في السنة الصحيحة فستكون على النسق

الآتي :

- 1 - البعث والنشور .
- 2 - ثم المحشر .
- 3 - ثم القيامة لرب العالمين .
- 4 - ثم العرض .
- 5 - ثم تطاير الصحف .
- 6 - ثم السؤال والحساب .
- 7 - ثم الميزان .
- 8 - ثم الصراط .
- 9 - ثم الحوض (الكوثر) .
- 10 - وأخيرا إلى المنازل الخالدة المعدة لكل حسب مشيئة الله ورضوانه وحكمه  
بالقسطاس بين عباده .

نسأل الله جلّت قدرته أن يمن علينا بفضله وأن يشملنا بتوفيقه وأن يدخلنا في  
زمرة من قال سبحانه وتعالى فيهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ  
الْبَرِيَّةِ<sup>(71)</sup> جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ  
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ<sup>(72)</sup>﴾ ﴿٢﴾ .

ولئن كان لنا في الدنيا بقاء ، فستكون لنا عودة بعون الله وتوفيقه في دروس قادمة  
لبسط القول في مراتب المعاد والله المستعان .

(1) الآيات : 67 - 70 من سورة الزمر .

(2) الآيات 7 ، 8 من سورة البينة .

## إلى أين نحن مسوقون؟

عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله .. الله .. ) .

(رواه البخارى ومسلم وأحمد)

## الفصل الأول

1 - عرفته منذ أمد بعيد رجلاً يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، صادق الإيمان ، لا يصدده عن دينه صاد ، ولا يدفعه عن القيام بواجباته نحو ربه دافع ، ولا تعوقه دنيا أفاعها الله عليه عن غدوه ورواحه إلى بيوت الله ، طبق على سلوكه أحكام الله أكمل تطبيق ، وجاهد وجاهد في الله حق جهاده بكل ما استطاع وما يستطيع من قول وعمل ، وبذل ، وهو سائر في نفس الخط المستقيم دون حيدة أو التواء ، حتى ليخاله من يخالطه عن كذب أنه لا يعايش عصره ، ولا يحس بما يدور فيه من مجون وزيف سلوك ، وإنما هو رجل عصر النبوة الصافي الذي لم تندسه أفكار فجة وقحة ، ولم تستطع أن تنمو فيه تلك المسائل الحقيرة ذات الريح العفن الكريه ، هو سليل من بكى يوم ألمات بماله الملمات فافتقده في عرض البحار وابتلعه اليم .

وما كان جوابه حين سئل عن دواعي حزنه ومصادر ألمه إلا أن قال : إنى جزع أسيف لا على عرض زال وقد يعود ، وإنما أسفى ومثار غمى أنى لم أعمل عملاً يحتسب لى عند الله ، عملاً يكون فى ميزانى يوم القيامة ، وإنى أعاهد الله لو أقبلت أم دفر ثانية ، أن كون أول ما أقوم به عمارة بيوت الله والبر بعياله وقد وقى ما عاهد الله عليه ، فشاد لله بيتاً لا يزال يحمل اسمه إلى اليوم وغدا ، وحكى عنه معاصروه أنه كان يحمل مواد البناء بنفسه ليعلى لله مناراً فى زمن ما كان أحوج البلاد فيه إلى تلك المنارات ..

التقيت بصاحبى ذات صباح بعيداً عن صخب الحياة ومفاتها فى هدأة عمل وسكون ليل ، وجرى الحديث متناولا وقائع العصر بعد جولة قمنا بها فى أحياء مدينة أوروبية<sup>(1)</sup> اشتهرت بالعلوم والمعارف منذ عصور ، والجمال جمال التنسيق والإبداع الذى لا يزيده مرور الأيام إلا فتنة وروعة وقوة وقال صاحبى : حبذا لو كان هذا مصروفا فيما خلق لأجله ، ووجه للإنتاج النافع والبناء الداعم للحضارة الإنسانية ،

(1) مدينة باريس والصاحب هو : السيد .ع. ( 1380 هـ ) ( 1970 م ) .

المسامير لتعاليم رب كل شيء التي أوحاها إلى رسله إذن لكان لها سياق عظيم يحمي من الفتنة والضياع ، فالعقل مهما كشف وفقه فهو عن إدراك سر الحياة الدفين محجوب ، فذلك غيب مكنون ، استأثر به فاطره ، والشهوات عامل معوق معاكس لاستقامة الحقيقية ، وما نحن أولاء نرى إلى جانب المظهر الحضارى البادى ، بقعا سوداء تشوه إنسجامه ، وتذب بروائه ، وتكاد تأتي على الأثر الخير فيه ، مع أنه ما من ممنوع يبدو مغربا جذابا إلا وإلى جانبه مباح أكثر إغراء وأشد جاذبية لو أحسن التوجيه إليه والأخذ بأسبابه ، ولكن الأمر كما قلت : هو شيطان الغرور ، وحب المخالفة ، ومحاولة الوصول إلى كل شيء دون رقابة أو محاسبة ، بل وأفرغ كل العناية فى جانب المادة وحدها ، مادة تشيد المصنع ولا تبني الروح ، تؤمن بالإنسانية بمقدار ما تدر موارد ما يكفل للمصنع الاستمرار فى طريقه ، وما يديم صخب الآلة ، حتى ولو كان ما ينتج سما ومدفعا وقنابل ، فرأبى أن التقدم العلمى فرس جموح ، ولا يكبح جماحه إلا شكيمة ولجام ، وما هى إلا إيقاظ الروح لتعمل إلى جانب المادة ، فتحول منتجاتها إلى بلسم وعافية وبناء وإلا فإلى أين نحن مسوقون ؟

2 - سؤال وارد ولا شك .. ويحتاج إلى جواب ، وجوابه لا يستقى إلا من الشريعة ، من الدين ، من المصدر الصافى ، من الكتاب والسنة ، ومن المعلوم بداهة أن السنة موضحة ومؤسسة أحيانا ، يقول سيد الخلق : (أوتيت الكتاب ومثله معه) والكتاب قد أشار وأكد أن للعالم نهاية ، وأن للدنيا فناء سيلحقها قريبا وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، ولكن متى وكيف ؟ أما المتى فالله أعلم به ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ ، وأما كيف فقد فصلته بعض آى القرآن الكريم وأفاضت فيه السنة الشريفة فالقرآن يقول : ﴿وَكَيْفَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ (1).

وفى أوائل كثير من سور القرآن ما يزيد المسألة تفصيلا والأمر وضوحا كسورة الأنبياء والحج والحاقة والمعراج والقيامة .. الخ .

(1) الآية 68 من سورة الزمر .

وفى أحاديث رسول الله ﷺ تفاصيل وافية عن أحوال الساعة وما يسبقها من أحداث وأمارات تشير إلى دنوها وتؤذن بقرب وقوعها ، وقد مررنا بطرف منها فى أحاديث سلفت ، ويعينى هنا جواب صاحبي على سؤاله : إلى أين نحن مسوقون ؟ .

رأى صاحبي وشاهد ورأيت معه وشاهدت ، وعرف الكثيرون الذين جابوا آفاق الدنيا المعاصرة طولا وعرضا ، أن العمل بما أوحى الله إلى رسله بات منزويا فى دور العبادة لا يتعداها ، بل إنه فارقها فى بعض بلاد العالم المتمدين - كما يسمونه - فكثير من الشباب إذا أراد زيارة معبد ما لا يراعى واجب اللياقة والاحترام ، وإنما يدخل باستهتار واستهزاء ، والواقع أن تلك المعابد صارت قاصرة - تقريبا - على العجائز الذين يودعون الحياة ويشعرون بأن دورهم على المسرح قد ألغى نهائياً ولن يعود ، وهناك - والحق يقال - لا تتدخل الحكومات فى شئون الناس وخاصة فى معتقداتهم ، بل إنها تعينهم على التدين أحيانا ، ففى كل أسبوع يعرض فيلم دينى على شاشة (التلفاز) فضلا عن محاولة إثارة النخوة والتعرة الدينية ضد الآخرين لسبب أو لآخر بأساليب متعددة يعلمها من عاش هناك ، فالعائق ليس رسميا ، وإنما هو نابع من قادة الفكر ، وأكثر ما بدأ من مذاهب وفلسفات بعد الحرب العالمية الثانية يكاد يكون منشوءة عوامل شخصية تفاعلت بها نفس صاحبها لمؤثرات بيئية خاصة .

ثم بدئى بتطبيقها على السلوك ، ولما كانت إلى المادة أقرب منها إلى الروح اعتنقتها شباب من الجنسين وزادها رسوخا ، ومكن لها أن بعض مشيربها والذين تبناها أساتذة فى جامعات مرموقة<sup>(1)</sup> ، ومنبت البعض من صميم الطبقة التى تحمل المال والترفع إلى القصور وتكدح فى جمعه وتنميته دون أن يكون لها حظ فيه ، وتلك الفئة تمثل الكثرة الكاثرة من كل الشعوب ولم تنصفها أديان هناك ولا أحكام ، ونتج عن تلك الفلسفات ما تتخبط فيه تلك المجتمعات بعيدا عن القيم الإنسانية الفاضلة التى يقررها ويقرها وحى السماء كما يؤيدها العقلاء ، فما العقل فى أصلته ببعيد عن الوحي الإلهي ، وأشير دائما إلى الوحي وإلى السماء لا هروبا من مقاييس عقلية خاصة ، وإنما لأنى أجد تلك المقاييس إن صدقت وصدرت عن إخلاص للعلم

(1) كالوجودية فان زعيمها سارتر كان أستاذا بجامعة باريس .

والإنسانية بعيداً عن الأنانية والنوازع الفردية البحتة متلاقية مع الوحي أيما تلاق ،  
ومتجاوية كل التجاوب .

ويعد .. فقد سرت عدوى تلك المبادئ والآراء إلينا لأنها متعاقبة مع منتجات  
المصنع التي لا نملك أن نتعد عنها ، وإلا تعرت منا الأجساد ، ودكت البيوت ،  
ولطالت علينا المسافات وفقدنا كل مقومات الحضارة المادية ، فلو أمسكت بأى من  
شرقنا فى أى بقعة من أرضنا لألفيته من قمة رأسه إلى أخمص قدمه لا يملك إلا لحمه  
ودمه حين يريد أن ينتسب إلى ترابه ، والمصنع لا يقدم لنا وسائل الحياة إلا مع  
تمهيد لها يحطم المثل الموروثة والقيم الأصلية ، والأمر لا يحتاج إلى مزيد بيان ،  
فالحديث إلى أولى الألباب .

3 - وندلف إلى أوطاننا - أوطان العرب والمسلمين - باحثين متسائلين : لماذا  
ننسلخ بهذه السرعة من أصالتنا ، ولأى داع نتبع كل ناعق ، ونغفل سريعاً مقومات  
وجودنا ، فمن المعلوم أن لكل شعب مميزاته ، ولكل أمة مقوماتها التي لا تعرف إلا  
بها ؟ أيعود ذلك إلى ضعف فى الأصول ؟ أم إلى تخلخل الإيمان بها ؟ أم إلى عجز  
حراسها ؟ أم أن ما نحن فيه هو تمهيد لتنفيذ قضاء مبرم سابق لا يد لنا فى رده ؟  
فسيحدث رضينا أو كرهنا ، أردنا أو لم نرد .. والإجابة على هذه الأسئلة مجتمعة ،  
تمثل الإجابة الكاملة على السؤال الرئيسى ، إلى أين نحن مسوقون ؟ فلنتعرض  
للإجابة عليها الواحد تلو الآخر ، ولو طال البحث وتشعب .

(أ) قامت على أصول التوجيه الإسلامى دراسات ، وأنشئت باسمه كراس فى  
جامعات غربية أكثر منها شرقية ، وتناولتها أقلام صديقة وأخرى محايدة وثالثة سافرة  
العداء ، ووضعت لتوضيح نضوجها أو للتجنى عليها كتب ومؤلفات ، ولم يعد فيها  
سر خاف نخشى أن يتعرض للهواء فيفسد ، أو لضوء الشمس فيتبدد ..

فأما الصديق - لا المعتقد<sup>(1)</sup> فرأى بعد استقصاء وتعمق دراسة ، أن كل أمر

(1) لأن المعتقد لتلك الأصول لا كلام لنا معه ، ولا استدلال لنا بفعاله أو أقواله ، فأمره دائر بين أمرين :  
فهو إما وارث لمعيقته فلا يناقش ولا يقتدى به . وأمر ناظر باحث فيوكل إلى نظره ويحسه ويصح أن  
يحدى حدوه .

الإسلام خير ، لأن ما ينشده الباحث عن السعادة قد وفرته تلك الأصول تماما فالمجتمع الذى تطبق فيه تعالم الإنسان نصاً وروحاً يبسب فيه كل أعدة الإنسانية وتنمو على أرض مقومات الحياة الحرة الكريمة فى ظل حراسة ساهرة واعية .. وأعدة الإنسانية : الجهل والمرض والفقر ، ومقومات الوجود الفاضل : إباء وحرية ومساواة ، وموقف الإسلام من الأعدة والمقومات معلوم واضح ، فما أكثر ما تحدث عنها كتابه الكريم ، وما أوضح بياناً فسرتة سنة نبية ﷺ . ولنخرج على مواقفه من كل منها ..

1 - فالإسلام الحق نور يببب ظلام الجهل ، وما يزال به حتى يمحوه نهائياً من بيئة يعيش فيها ، وقول القرآن هو الفيصل ، والسنة مؤكدة والتاريخ شاهد عدل .

فى القرآن : نجد أول خطاب إلهى إلى رسول الله ﷺ يتجه إلى العلم الماى للجهل ، فالأعوة إلى القراء توجبه إلى مفتاح العلوم ، إذ هى النافذة التى يطل منها العقل على نتاج صفوة العلماء فى الماضى والحاضر ، وفى حب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت على تعلم العبرية كما رواه ابن الأثير فى تاريخه توجبه آخر لكل عاقل أن يلم ببلغة ذات قيمة فى عصره لينفذ منها إلى علوم لم تسجلها لغته ولم يعها تراث آباءه أو معاصروه من بنى قومه ، وفى قوله تعالى : ﴿.. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ..﴾<sup>(1)</sup> ؟ توضيح لفائدة العلم فهو الموصل إلى أسمى ما يطلبه مؤمن من عمله وهو معرفة ربه وعبادته على هدى وبصيرة ، فالذى لا يعلم يخبب خبب عشواء لأنه لا يدرك الهدف فيما يأتى وما يذر لأنه جاهل بالنتائج ، والجاهل لا يصلح أن يكون من عببب الله المصطفين الأخيار ، فمن علم بلغ أعلى معارج الخير ومن جهل درج فى دركات الشر ، ولا يخفى هذا على ذى لب يفهم وعقل يفكر ، فالمعتبرون بحجب الله المتعظمون بها هم أهل الحجا والعقل لا أهل الجهالة والغفلة .. وأية إشادة بقيمة العلماء أعظم من تلك التى يشير إليها قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ..﴾ .

والعلماء هنا ليسوا الفقهاء بالمعنى التقليدى الإصلاحى المعروف لدى المسلمين وإنما تعنى الآية الكريمة المسلم العالم بكل الظواهر الكونية وخفايا الوجود بالقدر

(1) الآية 9 من سورة الزمر .

الذي يستطيع الوصول إليه إنسان عاقل باحث مفكر ، واستعراض آيات الكتاب الحكيم التي تحتوى على مادة (ع ل م) لا يدع مجالاً لشك في أن هذا لتنزيل المبارك اشتمل على أوفى ما يمكن أن يقول به قائل في تمجيد العلم ، وعلى الدفع القوي إلى محو الجهل من بلاد يسودها الإسلام شريعة ونظاماً ، فلم يسبقه ولم يأت بعده من وفى العلم حقه ، وأنزل العلماء منازلهم السامية في قمة رعاة الإنسانية في الحياة الدنيا ، وفى أعلى درجات الفردوس فى الآخرة : ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (1) .

وفى السنة : يكفى حديث واحد من عشرات المئات من الأحاديث الشريفة الداعية إلى العلم والمشيدة بفضل العلماء .. عن قيس بن كثير قال : كنت جالسا مع أبى الدرداء فى مسجد دمشق فجاء رجل فقال . يا أبا الدرداء : (إنى جئتك من مدينة رسول الله ﷺ ما جئت لحاجة ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وأن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم ، وأن العالم ليستغفر له مَنْ فى السموات وَمَنْ فى الأرض والحيتان فى جوف الماء ، وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وأن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) . رواه أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه والدرامى .

وأخيراً يبقى حديث التاريخ : وتاريخ المدرسة الإسلامية معلوم مشهور وواضح غير خفى وقد ترجمت آثارها إلى كل اللغات الحية ، ولم يعد أمرها خافياً فى عالم علماء الدنيا المعاصرة على الأخص ، وأسماء المعلمين لا تكاد تحصى خصوصاً من تصدروا للعلوم الأصيلة فى كل فن وعلم ، وكانوا اللبنة السليمة القوية التى قامت عليها حضارة العالم المعاصر شرقية وغربية ، العالم الذى لا يمكن أن ينسى أسماء الفلاسفة المسلمين ولا الفقهاء من أمثال الكندى ، الفارابى ، ابن سينا ، ابن رشد ، أبو حنيفة ، مالك ، والشافعى وأحمد ، وابن تيمية أخيراً ، وليس كذلك تلاميذه وتأثير مدرسته فى علماء العصر شرقاً وغرباً ، وغير هؤلاء ممن يعبى بهم الحاضر

(1) الآية 11 من سورة المجادلة .

ويقف دون بلوغ عددهم العاد الحصيف ، فقد أخرجت المدرسة الإسلامية علماء فى كل علم وفن ، كما أسلفنا وذلك مشهور معلوم ، وهل يخفى القمر أو هل تجحد زكاء .  
وحيث أقف تاركاً الحديث الآن إلى درس قادم - بعون الله تعالى - أهيب بالقارئ الكريم والسمع المتبصر ألا يتعجل معرفة الصلة بين حديث الباب وبين ما ذكرنا ، فذلك آت بفضل الله فالصلة وثيقة وإن غداً لناظره قريب . والله الموفق والمستعان .

## الفصل الثانى

1 - فى الفصل الماضى تناول القول مشار هذا البحث ، الذى انطوى على التأكيد المؤيد بالبراهين العقلية والواقعية بأن المجتمع الذى تطبق فيه أحكام الإسلام نصا وروحا يبىد كل أعداء الإنسانية وتنمو على أرضه مقومات الحياة الحرة الكريمة فى ظل حراسة ساهرة ماهرة واعية ، ألمنا بطرف من موقف الإسلام من (الجهل) وأوضحنا مدى إصراره على إبادته ، وحرصه على رفع التمكين لنور العلم أن يمتد أفقه بكل وسيلة ممكنة ، وحملة العامة والخاصة على رفع العوائق من طريقه فلا عذر لجاهل يقيم على جهله فى بلد تعلقو فيه راية الإسلام ، ويتردد على أسمع أبنائه صباح مساء قول الله تبارك وتعالى : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَسَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾<sup>(1)</sup> .

ونعرج فى درس اليوم موضحين كيف يعالج الإسلام المرض والفقر حتى يجتث أصولهما ، ويقتلع جذورهما من أرضه ويأتى على منابتها فى مظانها فلا يبقى لهما أثرا فى واديه ولا ظلا على وطن يسود فيه ، فالشعب الذى تعتل صحة أبنائه ، وتفشوا فيهم الأمراض ، محكوم عليه بالفناء ، حيث لا يزال يتهاوى حتى يتلاشى .

ومن أهم عوامل انتشار الأويثة تلوث المياه ، وإلقاء القاذورات على قارعة الطريق ، وإهمال النظافة فى المسكن والملبس والأجسام ، والدارس لبديها الفقه الإسلامى فى عبادته التى هى القربى إلى الله ، وعمادها ولا شك : هى الصلاة ، يلقى من أولى مقوماتها الطهارة فلا تصح صلاة بدون وضوء<sup>(2)</sup> .

فقد روى أحمد والشيخان من حديث عبد الرحمن بن صخر مرفوعاً : (لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ) وتبنيها على أهمية الوضوء وبيانا لمنزلته ، وأن الصلاة هى أهم ركن من أركان الإسلام بعد الإيمان لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة ،

(1) الآية 9 من سورة الزمر .

(2) أو ما ينبوب عنه عند فقدان الماء .

قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ (1).

وروى البخارى وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصارى قال : سمعت أنس بن مالك يقول : (كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة) .

وروى مسلم من حديث أبي هريرة أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع فى العضد ثم غسل يده اليسرى حتى أشرع فى العضد ثم مسح رأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرف فى الساق ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع فى الساق ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ .

فالنظافة ركن الصحة البدنية وأما الوسخ والأقذار فمجلبة للأمراض والأدواء الكثيرة ، ومن ثم نرى الأطباء يشددون فى أيام انتشار الأوبئة والأمراض المعدية فى طلب المبالغة فى النظافة ، والإسلام يرى أنه جدير بالمسلمين أن يكونوا أصح الناس أجساما وأن تنتقى الأمراض من بينهم ، فالدين مبني على العناية بنظافة الأبدان والثياب والأمكنة لأن هذا ينفى أسباب تولد الجراثيم ويمنع انتشار الأمراض بينهم .

ويرى الإسلام مع هذا أن من تكريم المسلم لنفسه وأهله وقومه الذين يعاشونه أن يكون نظيفا فمن كان كذلك كان جديرا بحضور مجامعهم ولقاءاتهم ومن كان وسخا قذرا مجته العيون واحترق عند كرام الناس ولا يروونه أهلا لمجالستهم ، ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل يوم الجمعة والتطيب ولبس الثياب النظيفة لأنه يوم يجتمع فيه الناس فى المساجد لعبادة الله تعالى ، روى مالك وأحمد والبخارى ومسلم من طرق عدة أن النبي ﷺ قال : (غسل الجمع واجب على كل محتلم) (2) وروى البخارى عن سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ، ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه ، ويمس طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى) .

(1) آية 6 من سورة المائدة

(2) من بلغ سن التكليف .

وأفرد الفقهاء جميعاً على اختلاف مذاهبيهم بآباً يشرحون فيه أنواع المياه التي يجوز منها التطهير ويصح بها الوضوء والاعتسال ، وآخر يوضحون فيه وجوب الابتعاد عن النجاسات حتى تصح العبادات ، ونهى رسول الله ﷺ عن التبول في الماء الراكد حتى لا يفسد وتفوح منه الروائح الكريهة الضارة بالصحة عموماً . فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه ) متفق عليه .

وفيما رواه مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله ﷺ أن يبال في الماء الراكد ... ولم يقتصر حرص الإسلام على صحة الناس أن يحضهم على الطهارة للعبادات بل تتعدى ذلك إلى إبعادهم عن أماكن العدوى وانتقال الأدوية فنهاهم عن الدخول إلى بلد موبوء وعن الخروج منه إذا كانوا فيه حتى لا ينتشر المرض ويعم وحتى ينحصر في مكانه فيمكن القضاء عليه وهذا أساس الحجر الصحي المعمول به في عصر الوصول إلى القمر ، كما نهى عن الامتلاء من الطعام وقسم الأمر ثلاثة أقسام : ثلث للماء ، وثلث للطعام وثلث للنفس ، وقال سيدي رسول الله : ( ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ) وورد في الآثار إياكم والبطنة إلى آخر ما هنالك من آثار الرسول وصحابه وتابعيه مما يدل على الحرص الشديد على سلامة الأبدان بكل طريقة ممكنة مما لو ذهبت أشير إلى مواطنه فضلاً عن إحصائه لطال الحديث وما انتهى المطلوب .

2 - وإذا تجاوزنا القول عن حفاظ الإسلام وعنايته بصحة الناس ، وجرهم بعيداً عن الأمراض بما لا تجد له ضريباً ولا مشابهاً لدى أي تشريع آخر مهما كانت مصادره ، أقول إذا تجاوزنا هذا البحث إلى الكلام عن علاج الإسلام للفقر والجوع لأفينا العجب العجاب من تخطيط هذا الدين وتعاليمه للقضاء على هذا العدو والألد للإنسانية بالوسائل التي لا يضار بها أحد في نفسه أو ماله وفي الوقت نفسه ترسي أسس السلام والألفة والمحبة بين الأفراد مجتمع تسود فيه ، ولا نتعرض هنا إلى مبادئ سادات في دول معاصرة عولجت بها الحالات الاقتصادية في تلك البلاد .

ولا نشير إلى مذاهب أقرت مهددة كرامة الإنسان في صورة ما قدم إليه من إحسان ، ولا نريد أن نتحدث عن قيود لبيدهيات مقومات الإنسانية تحولت من الحديد إلى

الذهب فهي قاتلته على أى حال ، فلكل هذه الأمور مواضع أخرى بعضها نوقش وفند ، وبعضها لا زالت تحميه حراب وقنابل ومصير تلك النظم إلى الفناء ، فما لم ينبع من قيم تعلقو بالخلق المقوم لوجود الإنسان كإنسان وإن لاح برقاً فهو خلب ، وإن بدا من بعيد ماء فسيجده ربحاً من الزمان ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ (1) .

وإنما نورد هنا ما وضحه القرآن ، وما أورده للقضاء على العدو الألد والخصم الكاشح ، ألا وهو الفقر والعوز فقد حرص التشريع الإسلامى على محوه بنشر الوعى العلمى ، والدعوة إلى الكفاح المتواصل ونبذ الاتكالية ، والتبطل ، والتعاون الجاد للبناء القوى المتكامل ، ويتضح هذا من خلال الصور التى تبدو للنظرة السطحية شيئاً فردياً هيئاً لا يعالج مشكلة عامة ، ويخرج منها نفسها الدارس الباحث الذى يريد الوصول إلى الحقائق من منابعها النقية ومصادرها الحققة فى غير التواء ولا تدليس أقول يخرج منها بقواعد ثابتة بناءة تحفظ الإنسان إنسانيته وكرامته وتحيله من تافه لا يؤبه له إلى لبنة قوية صامدة لها كيائها الأصيل فى تكوين المجتمع الفاضل .

فحين يقول سيدى رسول الله : (اليد العليا خير من اليد السفلى) يوجه كل سامع مصغ لهذا المنطق القوى الكريم إلى العمل الذى يؤتى أطيب الثمرات ، ويزيد على الحاجة ويعين بما فضل عاجزاً لا يقوى على كسب ، ويجىء إلى المجلس الشريف مستجد يطلب قوتاً فيسأله الرسول الكريم أليس فى بيتك شىء ؟ .

فيجيب قعب وحلس ويؤمر بإحضارهما ، ويعرضهما المشرع الحكيم على الناس فى مزاد علنى ويشترى بما نتج من ثمنها فأسا وجبلا ويقول لصاحبه اذهب واحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوماً ، ويختفى الرجل ثم يعود مرفوع الهامة موفور الكرامة عزيز النفس ويخبر أنه احتطب وباع واشترى الطعام والكسوة لأهله وفضل معه ما تصدق به على عاجز بائس محروم لا يقوى على عمل ، والثروات لا تهبط على أربابها من السماء - إلا فى ندرة نادرة ، والنادر لا حكم له - وإنما تنمو من القليل ، وتتكاثر من ضئيل ، وبالجد والمثابرة والعزم والجهد يبنى الحطاب مصنعا ويشيد

(1) الآية 17 من سورة الرعد .

داراً للإنتاج يعمل بها الكثيرون ويحصلون بعرقهم على ما يجعلهم أعضاء نافعين لمجتمع يستقرون فيه .

وأما من عجز عن عمل لشيخوخته أو مرض أو أى عائق لا يستطيع التغلب عليه ، فلمثل هذا حق مقرر فى مال الواجد المستطيع يأخذه سراً أو علانية لكى يودى إليه على أى حال : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾<sup>(1)</sup> ويشير ما أثر عن العرب عامة أنهم كانوا يعدون من مكارم الأخلاق وحميد الشيم ، الإسرار بالإحسان فقد قال حكماؤهم :

(إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا صنع إليك فانشره)<sup>(2)</sup> وقال دعبل الخزاعى :

إذا انتفعوا أعلنوا أمرهم      وإن أنعموا أنعموا باكتنام

وقال سهل بن هارون :

خل إذا ما جئته يوماً لتسأله      أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا

يخفى صنائعه والله يظهرها      إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

وقال العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه : لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال : تعجيله وتصغيره وستره ، فإذا أعجلته هنيئه ، وإذا صغرته أعظمته ، وإذا سترته أتممته) .

ومن مقول بعض الشعراء :

زاد معروفك عندى عظما      إنه عندك مستور حقيير

تتناساه كأن لم تأته      وهو عند الناس مشهور خطير

ويظن بعض المعاصرين أن فعل الواجب لأنه الواجب مذهب مستحدث ويعلم الله أنه ما من حديث إلا وله فى القديم مرجع ، ولقد دعا القرآن الكريم إلى أداء المعروف دون من واصطناعه دون انتظار الثناء ، وإنما يفعل الخير لأنه أمر رب الخير فهو واهبه فى الأصل ومثيب عليه فى النهاية ، بل يرى القرآن الكريم أن فى المن

(1) الآية 271 من سورة البقرة .

(2) إذا لم يكن فى نشره غضاضة .

إبطالا للشواب وبعداً عن الإخاء السوى الذى تقوم صلته مع الأخوة وأبناء الوطن على الفناء فيهم والغض من كل ما يفعل لصالحهم مهما عظم وجل ، فمن قيم صنيعه فقد أهدره قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .. الخ الآية 214 من سورة البقرة .

ويقول شاعر القوم :

افسدت بالمن ما أسديت من حسن ليس الكريم إذا أسدى بمنان

وقال أبو بكر الوراق :

أحسن من كل حسن فى كل وقت وزمن  
منيعه مريوية خالية من المنن

وسمع ابن سيرين رجلا يقول لآ-ر : فعلت إليك وفعلت . فقال له : أسكت فلا خير فى المعروف إذا أحصى ، وروى عن سيدى رسول الله ﷺ قوله : (إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ، ويمحق الأجر ، ثم تلا ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ .

فالمسلم الصادق فى إيمانه يقدم ما يستطيع أن يقدم من خير وإحسان ، طاعة لله وامثالاً لتعاليمه وتصديقا لرسول الله ﷺ ، ومجتمع يسوده التكافل يختنى فيه الفقير حيث يجد المحتاج عوناً فى شدة ، ولقمة فى سغب ، وكساء فى عرى ، وماوى حين يعز المأوى ، ولياذا يحميه من النازلات ، ودرعا يقيه الغائلات ، وقلوبا كريمة تتجاوب معه فى أحزانه حتى تمحوها ، وآلامه حتى لا يشعر بها وكل ما مر مما أشرنا إليه هو فى الصدقات الاختيارية فى الإسلام ولكنها إجبارية لدى القلوب المؤمنة ، فهو أى المؤمن يصدق وصايا رسول الله ويعمل بها ، ورسول الله هو الذى يوضح فى كثير من أحاديثه الشريفة أنه لا يريح رائحة الجنة من بات شعبان وجاره طاو ساغب ، بل يزيد رسول الله الحبيب ﷺ الأمر إيضاها حيث يقول فى شأن الجار (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه) أى يجعله وارثا ، ويقول عليه الصلاة والسلام : (لا تشتري فاكهة فيخرج بها ولدك ليغيب بها ولده ، ولا تؤذ به بريح قدرك إلا أن تغرف له منها ، ولا تستعمل عليه فى البناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه) وما الناس فى أى مجتمع إلى جار ومجاور له .

وأما البذل القسرى بالتشريع الإسلامى فهو الزكاة : وهى ضريبة لابد منها تجبى بأمر الحكومة القائمة وتوزع على فقراء المسلمين وفى مصالح الشعب عامة ولها مصادر وموارد ومقادير مقررة فى الإسلام منذ بزوغ فجره ، قاتل عليها أبو بكر رضى الله عنه ونفذ بذلك تعاليم القرآن الكريم ولم يسمح لغنى أن يغتال حق الله فى ماله مهما كانت سطوته وقوته ، وما هذا التشريع الحكيم إلا تكوين لوزارة المالية الإسلامية تجبى من الأغنياء ما يرد على فقرائهم ، ويوم قام هذا التشريع الإسلامى لم يكن لدول تعد متحضرة الآن وجود فى الوجود .

أما بعد : فهل لنا أن نتساءل ؟ إلى متى يظل المسلمون فى أوضاعهم المائلة ولديهم الإمكانيات الروحية التى لا تطال لدى الآخرين ، والقوى المادية التى لا تملكها ولا تحلم بها شعوب كثيرة على وجه البسيطة ، إلى متى يقون رعايا لا راعين<sup>(1)</sup> ؟ أينقصهم العلم ؟ أيعوزهم العقلاء ؟ هم فى قلة من عدد ؟ .

جواب كل ذلك لا ، فقد انتشرت المعرفة الحضارية فيهم منذ بدء الإسلام وأضافوا إليها حضارات أخرى وعلومًا ومعارف أنتجتها العصور الحديثة<sup>(2)</sup> وفيهم العقلاء من يفوقون غيرهم فى كثير من أمم الأرض وعددهم والحمد لله يجعل عن الحصر<sup>(3)</sup> ، فهل من مذكر ؟ ..

أم هناك قيود تفوق انتشار الحرية والإخاء والمساواة بينهم ؟ حتى يعتدوا بأنفسهم ويقتحموا عقبات الحياة بكياسة وجرأة ويمضوا إلى حيث أراد لهم خالقهم إلى الصدارة والكمال والقيادة ، لهذا درس سيأتى حتى يرتبط عنوان البحث بصلب القول ومضمون الكلام .

---

(1) أقصد الصدارة الفكرية والرعاية بمعنى توجيه العالم كله إلى نور الإسلام ، فهذه رسالة المسلمين كافة على اختلاف درجاتهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية ، والعالم ينتظر المخلص الآن ولا هادى إلى الصراط السوى إلا الإسلام ...

(2) وكانوا هم اللبنة الأولى لها ، وحلقة الوصل فى ربط حديثها بقديمتها .

(3) وكثير منهم يعمل فى أرض العدو ويحارب فى مسقط رأسه ، فيضاف إنتاجه الفكرى والعملى إلى غير منيته ودينه فهل من قادر عاقل يرجع الطير إلى وكناتها .

## الفصل الثالث

1 - لا يزال الحديث موصولاً بما قدمنا في الدروس السابقة كاشفاً عن إدراك الإسلام لمشكلات المجتمع الإنساني ، غائصاً على أسرارها مفتشاً عن خباياها ، متتبعاً مكانها ، دالاً على خطورتها ، منذراً بويلات تفاقمها إن هي دامت ولم يقف عن الإبانة عنها ، وإنما أفاض في وصف العقار<sup>(1)</sup> الذي يقضى عليها في مهدها ، ويبيدها قبل نجومها ، مفهماً أن الجاهل أو الفقير أو المريض لا يمكن بحال أن تقوم بهم وبأمثالهم حضارة ، وكيف وهم جياع متها لكون لا يعون ؟ وقد مرت - في درسين سابقين - لمحات من أضواء سلطت على تلك الآفات ، وما رسم لها العليم الحكيم من علاج يحسمها ، وبطهر الأرض من وجودها ، وما عال مع اقتصد ولا مرض من أكل إذا جاع وترك الطعام وهو فيه راغب ، ولا جهل من اتخذ القرآن العظيم أمامه وقدوته وهاديه .

بقي أن نطلع على مشهد آخر تبدو فيه يد الإسلام مبسوطة للإخاء ، مقدمة للحرية ، عاملة على المساواة ، كل ذلك في أكمل عرض ، وأجمل صورة وأوضح بيان .

(1) حكمة الإسلام تجتث الخصومات ، وتقضى على العداوات وتنيخ راحلة الأخوة والحب في مناخ يعفى آثار التفرق والاختلاف ، ولن نبعد في استدلالنا عن ساحة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد فاضت سنته الشريفة بما لو طبق واقعياً لاستراح الناس ، وعم التراحم ، وما شكا امرؤ ضياع حق ، أو عدوانا على حمى ، ولتلاشت ألفاظ السوء ، واستقرت في المعاجم ولم تستطع أن تبرز سائرة على قدم ، وهل رأيت أجمل أو أجل من توجيه يرتفع بالبشر إلى مستوى يجعل التدنى عنه إنكاراً للإنسانية وعوداً إلى البهيمية المتوحشة النافرة الفاتكة ، ويدرك هذا من نهى الإسلام على تعاطي أمور تبدو للسطحي هينة ، ويدرك المتعمق أنها على ثقافة مظهرها سوس رهيب ينخر في عظام المجتمعات حتى يبيدها ، ومن بديهيات المدرجات منها (الغيبية) التي رسم لها القرآن الكريم صورة بشعة تعافها النفوس

(1) عقار ككتان ما يتداوى به من النبات أو أصولها (القاموس المحيط ج 2 ص 94)

الآية الكريمة ، فيقول الله في محكم آياته حاثا على حفظ غيبة الناس أيا كانوا :

﴿... وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ..﴾ (1).

مشبها الاغتياب بأكل اللحم بجامع التمزيق في كل ، فالمغتاب ينهش الأعراس ويمزقها ، وناهيك بفضاعة التصوير إذا كان المأكول لحم أخ ميت فتلك حال مستقدرة كرهية لدى الناس جميعاً ، واستمع إلى هادى الثقلين حين يقول مبعدا عن هجر القول وفاحشة حاضا على صون الألسنة وإسماكها عن الخوض في أعراس الآخرين .

روى مسلم وأبو داود والترمذى أنه ﷺ قال : (أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أفرأيت لو كان في أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته) .

وقد وجدت كلمات سيدى رسول الله ﷺ حقلا خصيبا فى نفوس صحابته عليهم جميعا رضوان الله ورحماته ، فامتثلوا ، ودعوا غيرهم بسلوكهم وأقوالهم إلى انتهاج نفس المسلك الكريم الذى انتهجوه ، يروى البيهقى عن سعيد بن المسيب رضى الله عنهما أنه - أى سعيد - قال : كتب إلى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله ﷺ : (أن ضع أمر أخيك على أحسنه ، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً ، وأنت تجد لها فى الخير محملا ، وما كافات من عصى الله فىك بأفضل من أن تطيع الله فيه) ..

وسمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلا يغتاب آخر فقال : (إياك والغيبة فإنها ادم كلاب الناس) ويؤكد هذا المعنى الشريف قول سيدى رسول الله فى حجة الوداع : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا) ، فقد عبثت السنة الشريفة بكل ما يوطد أركان الإخاء بين الناس وما يباعد بينهم وبين العداوة والحناء وجعل سيدى رسول الله ﷺ من علامات الإيمان الصادق الحب فى الله والتلقى فى رحابه : (وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ..) ومن القربى إلى الله ورسوله بذل النفس والنفس لإسعاد بائس أو صلة رحم أو تيسير على معسر ، وفى الوقت نفسه لم يقم وزنا للون ولا لجنس .

(1) الآية 12 من سورة الحجرات .

(ب) وموقف الإسلام من الحريات أشهر من أن يدل عليه ، فهو ضد كل ما يقيد الإنسان وما يحد من نشاطه السوى ، وما يضيق على معتقداته ، ويضغط أفكاره ، فلا خضوع إلا لله ، ولا عبودية لسواه ، والعامل من يستخدم الحرية فى كل ما يعود على مجتمعه بالخير والسلام فإن تكلم كان كلامه للصالح العام ، وإن نقد جعل نقده بناء لا هادما ، وإن كتب فليدافع عن قضية عادلة تعنى قومه ومواطنيه ، وإن سافر فليجلب المنافع فى كافة صورها المفيدة لوطن تظله سماؤه وتقله أرضه وينعم بخيراته ، ويسروح ويغدو حرا فى رحابه ، وإن حكم فليس قواعد العدل ، ويقطع دابر الخصومة ويعين على نوائب الدهر وكلها حريات يكفلها الإسلام ، ويدعو لها ، ويرفع العوائق من طريقها لتثبت وتدوم ، وبهذا يكون أبناء الإسلام لبنات صالحات لقيام بناء متماسك يصمد للعواصف والاعاصير .

(ج) والمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وإتاحة الفرص المتكافئة للجميع هى من بديهيات الإسلام ومن أصوله التى لا تقبل النقض ولا المعارضة ، ومن صميم توجيهاته ، فيفسح المجال لكل قادر على ارتياد الطريق ، وكل عامل وما عمل ، ومن أبطأ به عمله لمن يسرع به نسبه ، والناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأى منهم على آخر إلا بمقدار ما ينتج وما يفيد ، فلئن كان الكل من آدم وآدم من تراب ، فالتفاضل بينهم بالفعالية الذاتية فى الحياة عامة ، والإسلام يدفع بكل قوة العاملين إلى الصدارة ، أما المتقاعدون فلا مكان لهم تحت الشمس ، ولا قيمة لهم ولا وزن فى عرف الإسلام .

هذه واحدة ، وأخرى معروفة معلوم ومسئوليتها على القائمين بأمر المسلمين وهى إقامة حدود الله ، وحدود الله لفظ يبدو مخيفا للبعض ، والواقع أنه شىء مريح إلى أقصى حدود الراحة ، فأى حد يخيف ، أهو قطع يد السارق أم هو رجم الزانى ؟ هذان هما أشد ما يبدو من الحدود ولكن هل مجرد الاسم يثير الزواجر ، أم ان العاقل هو الذى يبحث ويدقق ويعلم كيف ومتى تطبق تلك الحدود ؟ ألا يعلم الناس من تاريخ الإسلام أن حد الزنا لم يثبت مطلقا بشهادة شهود خلال أربعة عشر قرنا ؟ وإنما ثبوته دائما كان بالإقرار ، وألا يعلمون أن رسول الله ﷺ يقول : (أدروا الحدود

بالشبهات) ؟ وهل يدرون أنه لابد من ضمانات اجتماعية خاصة يقرها الإسلام ثم يعاقب بعد تطبيقها أولاً بقطع يد الخارج على المجتمع الذي يكفله من كل نواحيه ؟ وحينئذ يصير عضواً فاسداً يجب أن يبتز ، كما يقطع العضو من الجسد إذا أصابه داء عياء ، وكان لابد من الخلاص منه ليسلم الجسم كله .

فالنتيجة التي تخرج بها هي أن التبعة في اضطراب المجتمعات الإسلامية يعود بعضها إلى علماء المسلمين ، أعنى الفقهاء منهم على الأخص ، والجزء الآخر على الحاكمين ، ولا شيء يسوء مطلقاً في هذا القول إذا كان رائدنا تقويم معوج مجتمعاتنا والحفاظ عليها .

3 - وفي نهاية المطاف يجب ألا ننسى أن استعراض التاريخ ، ودراسة وقائعه دراسة واعية فاحصة متعمقة توضح لنا أبعاد الحياة الإنسانية على ظهر الأرض ، وأنها تمر دائماً بتطورات وانتقالات لابد منها ، لا يستطيع الإنسان التحكم فيها ، ولا إخضاعها لسيطرته بشكل عام ، والمسلمون أنفسهم أدركتهم تلك الحالات لاحتية فما يبدو غريباً فيهم الآن ، سادهم في عصور مضت عصور انتقالهم من بدو بادية إلى حضارة ومدنية ، ومطالع صفحات الأيام الأخيرة للدولة الأموية ، وأيام العباسية يجد مصداق هذا القول ثابتاً واضحاً .

فيوم فتحوا بلاد الفرس والروم بنوا وشادوا ، وجدت فيهم علوم ومعارف وظهرت لديهم فلسفات وانطباعات لم يكن لهم بها عهد من قبل أيام الصحراء والخيام والإبل والنعم ، فوجدت حانات الخمر ، ودور البغايا إسراراً أو إعلاناً ، واختلط حابلهم ونابلهم ، وتكاثر الطباء على خراش ، وبدا فيهم الشذوذ عن المألوف السوي ، وقل مثل هذا في قديم الرومان والفرس ، وسر حتى تلتقى بمثله في بابل وآشور ومنف ، وقف متأملاً النتائج الحتمية لهذا الانطلاق في العصر الغابرة أنها كانت حكماً بالفناء على تلك الحضارات جميعها ، واستيلاء غيرها على مقدراتها ، ثم ضياع بعضها إلى الأبد ، وصارت تاريخاً من التاريخ ، وتلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولئن كان التاريخ يدرس للعبرة ، ولتلافي أخطاء قوشت كيان أمم ، وطمست معالم حياتها ازدهرت ردحا من الزمان فأولى بالمعاصرين أن يحاولوا

البعد عن الانزلاق في تلك المهاوى التي أهلكت من قبلهم ، فلا يدعو الجبل على الغارب هكذا حتى لا يفلت الزمام من أيديهم ، وما ترك القرآن الكريم تلك الأمور دون تنبيه على مغبتها ، وإنما أشار إليها وتحدث عن نتائجها طويلاً ، فكم من أمة بطرت معيشتها فبادت ، فهل من مذكر يسمع قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَغَتْ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾<sup>(1)</sup> وقد جرت سنته التي لا تتخلف في عباده أن يملأ لهم حتى إذا بلغوا القمة في الفساد والعتو عن أمره أخذهم بقارعة تدع الحليم حير ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾<sup>(2)</sup> . والقارئ للقرآن الكريم يجب ألا ينسى الوعيد الشديد المتمثل في بعض آياته التي تشير إلى إملاء الله للناس ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، واتلله سبحانه قادر ولن يقف أمام قدرته فائق ما ، ولن يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه عزيز حكيم ، فلنصغ للقرآن الكريم يقول : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾<sup>(44)</sup> فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(45)</sup> ﴾<sup>(3)</sup> .

وأخيراً : هل من الممكن أن يتجه البحث اتجاهها مرتكنا على القرآن والسنة أيضاً ولا يبعد عنها فيقال : إن الزمان حين يشرف على نهايته ويمحى ذكر الله من الأرض وتبدو أشرط الساعة والساعة آتية لا يريب فيها ، ففي أحاديث رسول الله ﷺ ما يشير إلى هذا ويؤكد أنه فقد ثبت بالسنة الصحيحة أن أهل الأرض يكفرون ويعبدون الأوثان ، وأنه لا تقوم الساعة إلى على شرار الناس .

فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم من حديث ابن عمر رضی الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : (تجىء بعد موت عيسى ریح باردة من قبل الشام فلا تبقى على وجه الأرض أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون

(1) الآية 58 من سورة القصص .

(2) الآية 12 من سورة البروج .

(3) الآيتان 44 - 55 من سورة الأنعام .

معروفا ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقولون : ما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم في ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ثم ينفخ فى الصور) وقد روى أحمد ومسلم والبخارى حديث الباب ، وهو قوله ﷺ : ( لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض الله ، الله ) .

فإلى أين نحن مسوقون فى عصرنا هذا ؟ أ إلى تمثيل دور أو طور لابد لأجيال معاصرة أن تقوم به على المسرح ، كما قام به غيرها ، ثم تبيد كما بادت ، ويגיע من بعدها من يعمر ويسود ، ويطبق أحكام الله من جديد ، وهكذا دواليك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، أم هى النهاية والمصير إلى تحقيق الساعة انتظارا لتنفيذ مهمة إسرافيل !

لعلها الأولى أو الثانية ، وإن كنا نتضرع إلى الله أن يعفى المعاصرين من أن تتحقق فيهم إحدى هاتين النهايتين ، وأن يوفقهم للابتعاد عن الواقع الذى وإن بدا سينا فليس من الصعب تلافى أخطائه على العقلاء إذا صحت العزائم ، وصدقت النيات والله الموفق المستعان .

## حول النبوة

مضى الحديث عبثاً بالكلم الطيب من هدى رسول الله ﷺ ؟ والتقى فى مسيرته بقلوب عامرة بالإيمان الذى وجدت حلاوته مشربة بحب الله ورسوله ، فعبت منه ، وصار نورها الذى يهديها فى بيداء الحياة ، ورائدها الذى تقتفى خطاه فى صحراء الوجود ، ثم بدا لمطمئن إلى هذا اللون من تقديم السنة المطهرة أن يتساءل أثر حوارهم مع رهط من مراهقى الثقافة الوافدة ، وعبر عن تساؤله فى ذكائها الفطن الأريب مشيراً إلى تساؤل الرفاق فى أسف لما دعاه شكوكا وتسميه الحقيقة حيرة عابرة تردها نظرة فاحصة ثم أوضح ما يرومون بنص تساؤلهم ، ما برهان صدق النبى ؟ وما هى الدواعى لظهور حملة هذا الوصف على مسرح الحياة الدنيا ؟

وأليس فيما منحنا من عقول الغناء الكافى للمضى نحو تحقيق أهدافنا على الأرض ؟

ولوى هذا التساؤل عنان الدرر المعتاد إلى بحث يجيب عنه ، ويمكن اندراجه تحت نقطتين لهما حق الامتداد إلى ثلاثة إذا دعا الداعى : تدور الأولى منهما حول تحقيق صدق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وتعقب الثانية ببيان قيامهم بدورهم بين البشر .

1 - قصة الحديث حول النبوة مؤيدة ومعارضة تمتد حوادثها إلى أزمان ضاربة فى أغوار الماضى ، فالانقياد الفطرى الذى لازم الدعوة الإسلامية أول أمرها ، ما لبث أن تسربت إليه عوامل الشك وانفتحت عليه أبواب الاتهامات حين اختلط حملة الإسلام بالبيئات التى التحفت الدين ولم تتبطنه ، وكان هذا ظاهرة طبيعية من قوم رأوا فى الدعوة الجديدة عاديا ألغى دياناتهم وأتى على كثير من مقدساتهم ، وأخضع لسلطانه من كان يطاول السماء ولا يتصور أن يدانيه أحد ، وتكالب الموتورون على هذا الناشئ القوى العود ، ومحاولين تقويض أركانه ، ولكن هيهات لما يرومون ، فقد عاجوا خاوى الوفاض حتى من خفى حنين ، ما كان لهم أن يحققوا مآربهم ولن يكون ما دام بين حملة الإسلام مفكرون يؤمنون بما حكاه التنزيل الحكيم ﴿إِنَّا لَحَسْبُنَا نَزْلُهَا الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(1)</sup> .

(1) الآية 9 من سورة الحجر .

ولست أريد هنا سرد آراء أولئك الحاقدين معتقئ المزدية والمانوية يعضدهم مارقون تصدى لهم فى وقتهم الحسن البصرى وعمرو بن عبيد ، ثم أجبرهم على أن يأرزوا إلى أحجارهم أحذق الجدليين صاحب الفكر الرصين والرأى السيد والأجوبة الباترة لشبه الخصوم ، ذلك هو (النظام) ثم تلميذه الجاحظ من بعده ، ومن هنا نحوهما على مر العصور إلى يومنا هذا ، فذاك بحث فلسفى يثقل على عقول المتسائلين ، وإنما سأسلك طريقا وسطا يجلووا لحقيقة فى يسر معتمدا على ركائز من واقع حياة الانبياء والمرسلين ، وما كان لهم حوار مع معاصريهم وما اتسم به سلوكهم من استقامة وفتنة وصدق حسن معاملة لم يرق إليها غيرهم ، فأولئك هم المصطفون الأختيار .

(1) قام الإجماع على أن البرهان الأول على صدقهم هو المعجزات التى ظهرت على أيديهم ، وأورد كثيرون من المتصدين لأحفاق حقهم أدلة تعضد المعجزة وتقويها وتصلح سنادا متينا يثبت نفس الدعوى ، فمن البديهي أن الكاذب يظهر كذبه واضحا فى الذى يأمر به ويخبر عنه ، كما أن الصادق يعرف صدقه من ثنايا قوله وفعله ، ويؤيد ذلك قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِمَاتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ (1) . وفى الحديث الصحيح (ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلابها إن خيرا فخير وإن شرا فشر) وقال عثمان رضى الله عنه (ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحاته وجهه وفتلات لسانه) ... وقيل شعرا .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ومن أصدق ما يدل على صعوبة تخلص الإنسان من طبائعه ومسلكه ، وعلى عدم قدرته على التقلت من عاداته ومألوفه ، ويبرهن على أن المقدماء تتبعتها نتائجها إن صدقا وإن كذبا ، ما كان موقف خديجة رضى الله عنها يوم عاد إليها رسول الله ﷺ بعد أول لقاء له مع الوحى وبادرها قائلا (إنى قد خشيت على علقى) فأجابته على الفور إجابة الدارس لسلوكه ، الفاقه لما هو عليه من الخير ، الموقن بصدق فراسته وما يقول : (كلا . والله لا يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتقرى الضعيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الدهر) .

(1) الآية 30 من سورة محمد .

فقد خشى رسول الله عارض السوء فجاءته بما ينفيه عنه مستدلة بحميد ما درج عليه هو في سلوكه ، ومثل هذا حكم النجاشي حين قص عليه المهاجرون الأولون إلى الحبشة ما كان من أمر رسول الله فقال لهم : (إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة) ولسنا نبعد عن نفس الجادة حين نورد ما دار بين أبي سفيان وقيصر الروم كما حكاه البخارى ومسلم والمؤرخون حول النبي ﷺ ، وانتهى بإقرار قيصر الروم بنبوته مستنتجا حكمته من واقع ما عليه صاحب الرسالة ، ولطرافة الحوار نذكره مفصلاً بنص رواية الطبري في تاريخ الأمم والملوك (1) .

« عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : (حدثني أبو سفيان بن حرب قال : (كنا تجاراً ، وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قدر حصرتنا حتى نهكت أموالنا فلما كانت الهدنة<sup>(2)</sup> بيننا وبين رسول الله خرجت في نفر من قريش تجاراً إلى الشام وكان وجه متجرنا منها (غزة) فقدمنها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها ، وكانت حمص منزله فخرج منها يمشى على قدميه متشكراً لله تعالى حين رد عليه ما رد ليصلى فى بيت المقدس ، فلما انتهى إلى (إلياء) وقضى فيها صلاته ومعه بطارقة وأشرف الروم أصبح ذات يوم مهموماً يقلب طرفه إلى السماء فقال له بطارقتك : ما بك أيها الملك الغداة ، قال : رأيت فى هذه الليلة أن ملك الختان قد ظهر ، قالوا : أيها الملك ، ما نعلم أمة تختن إلا يهود وهم فى سلطانك ، وتحت يدك فابعث إلى كل من لك عليه سلطان فى بلاده ، فمره فيضرب أعناق كل من تحت يده من يهود واسترح من هذا الهم فوالله إنهم لفى ذلك من رأيهم يديرونه ، إذ أتاه صاحب (بصرى) برجل من العرب ، وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها ، فقال : أيها الملك إن هذا الرجل من العرب من أهل الشاء والإبل يحدث عن أمر حدث فى بلاده فسله عنه ، فلما انتهى به إلى هرقل رسول صاحب (بصرى) طلب هرقل إلى ترجمانه أن يسأله : ما الحدث الذى كان ببلاده فسأله فقال : خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد اتبعه الناس وصدقوه وخالفه ناس ، وقد كانت بينهم ملاحم فى مواطن كثيرة فتركتهم على ذلك ، فقال هرقل :

(1) ص 228 من الجزء الثانى طبع مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1357 هـ - 1939 م .

(2) يشير إلى صلح الحديبية عام ست من الهجرة الكبرى .

جردوه .. فإذا هو مختون ، فهاج هرقل ، وصاح : هذا والله الذى أريته لا ما تقولون أعطوه ثيابه وتركه يمضى لطيته ، ثم دعا صاحب شرطته ، وأمره أن يقلب الشام ظهرها ويطنا حتى يجيئه برجل من قوم هذا النبى ، قال أبو سفيان : فوالله لنحن بغزة إذ هجم علينا صاحب الشرطة ، فقال : أنتم من قوم الرجل الذى ظهر بالحجاز ؟ قلنا : نعم ، قال : أيكم أمس به رحما ، قلت : أنا ، فقال : أدنه فأقعدنى بين يديه ، وأجلس أصحابى خلفى ثم قال : إنى سائله فإن كذب فردوا عليه ، يقول أبو سفيان : فوالله لو كذبت ما ردوا على ولكنى كنت امرأ سيدا تكرم عن الكذب ، وعرفت أن أيسر ما فى ذلك إن أنا كذبت أن يحفظوا ذلك على ، ثم يحدثوا به عنى فلم أكذبه ، فقال : أخبرنى من هذا الرجل الذى خرج بين أظهركم يدعى ما يدعى ، قال أبو سفيان : فجعلت أهون له من شأنه وأصغر له أمره وأقول : أيها الملك ما يهمك من أمره إن شأنه دون ما يبلغك ، وقيصر لا يلتفت إلسى قولى .. ثم قال : أنبئنى عما أسألك عنه من شأنه ، قلت : سل ودار بينهما الحوار الآتى :

قيصر : كيف نسبه فيكم ؟

أبو سفيان : محض أوسطنا نسباً .

قيصر : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

أبو سفيان : لا . ما جرينا عليه كذبا .

قيصر : لقعد علمت أن ما كان لترك الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله . وتابع أسئلته .

قيصر : فهل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما يقول فهو يتشبه به ؟

أبو سفيان : لا .

قيصر : فما صفة أتباعه منكم ؟

أبو سفيان : الضعفاء والمساكين والاحداث من الغلمان والنساء ، وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يتبعه منهم أحد .

قيصر : أخبرنى عن تبعه أيحبه أم يقلبه ويفارقه .

أبو سفيان : ما تبعه رجل فقارقه .

قيصر : أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟  
أبو سفيان : سجال يدال علينا ويدال عليه .

قيصر : فهل يغدر ؟ - وهنا يقول أبو سفيان - فلم أجد شيئا مما سألتني عنه أغمره فيه غيرها ، فقلت : لا ، ونحن منه في هدنة ، ولا نأمن غدره ، ويقول أبو سفيان : فوالله ما التفت إليها مني ، ثم كرر عليه الحديث ، ثم عقب عليه قائلا : لئن صدقتني عنه ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين ، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه ، انطلق لشأنك ، قال أبو سفيان : فقممت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى ، وأقول أي عباد الله لقد أمر ، أمر بن أبي كبشه ، أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام .

ويعقب شيخ الإسلام ابن تيمية على هذا الحديث <sup>(1)</sup> مستعرضا كلمات قيصر الروم وأجوبة أبي سفيان ويؤكد أنه لم يكن من خلق رسول الله ﷺ الكذب قط ، بل لم يعرف عنه إلا الصدق وهو يتورع أن يكذب على الناس فتورعه عن أن يكذب على الله أولى وأحق ، والإنسان قد يخرج عن عادته إلى عادات بني جنسه ، فإذا انتفى هذا وهذا كان أبعد عن الكذب وأقرب إلى الصدق وكان أتباع رسول الله من الضعفاء ، وهذا من علامات الرسل ، فأتباعهم دائما ابتداء من الضعفاء ، يحكى القرآن الكريم عن نوح عليه السلام وقومه : ﴿ قَالُوا أَلْوَمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ <sup>(2)</sup> ، وقالوا : ﴿ وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُادِي الرَّأْيِ ﴾ <sup>(3)</sup> .

وكان المؤمنون برسول الله يتزايدون ولا يترد أحد منهم بعد الإيمان ، وهذا من دلائل الصدق والحق ، فإن الباطل لا بد وأن ينكشف آخر الأمر فيرجع عن الاتباع ويمتنع عنه من لم يدخل فيه .

وبالنظر في واقع ما يصادفنا يوميا نرى أن معرفة الناس والحكم عليهم بدراسة أحوالهم ، وما يشتهر عنهم وأن عقلاء هم يثبتون على نحو من الصفات والعادات لا يتجاوزونه ، وكثيرا ما يجاب المستفسر عن شخص لم تكن له به معرفة : أنه ذو عقل

(1) ص 94 من شرح العقيدة الأصفهانية - دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

(2) الآية 111 من سورة الشعراء .

(3) الآية 27 من سورة هود .

ومروءة وخلق ويسرد المسئول أدلته على قول بما يبدو ممن يتحدث عنه ، وإذا كان العكس أجاب : أنه فاتك ألوى ، كاذب مداهن ، أو أنه غر جاهل أحقق إلى آخر ما هنالك من أوصاف الخير أو الشر حسبما تدور عليه حال الشخص فمن عرف بشيء شهر عنه والسلوك الخاص بكل الأنبياء كان واضحا غي خفى على معاصريهم فلم ينعتوهم بسوء أبدا إلا ما يمليه الحقد الدفين والعداوة الكامنة لدى ضعفاء النفوس ومرضى القلوب .

وأما أمر المعجزات : وهى الأمور الخارقة للعادة المتحدى بها التى ظهرت على يد الأنبياء فواضح ظاهر ما القرآن عن يبعيد ، فهو المعجزة الخالدة لخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ، وما كان لأحد أن يأتى بمثله ولن يكون ، وورد هذا فى أسلوب التحدى ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾<sup>(1)</sup> .

ويذكر الشهرستانى (أن النبوة ليست صفة راجعة للنبى ، ولا درجة يبلغ إليها أحد لعمله وكسبه ، ولا باستعداد نفس يصل به إلى الروحانيات ، وإنما هى رحمة ونعمة يمن الله بها على من يشاء من عباده وبصطفيه ويؤيده بالخوارق المعجزة) ، وعقد الإمام الحجة الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) فصلا عنوانه (حقيقة النبوة) قال فيه :

(ولدليل وجودها «أى النبوة» وجود معارف فى العالم لا تتال بالعقل ولا تدرك بالكسب ، فإن من بحث عنها علم بالضرورة أنها لا يصول إليها إلا بالإلهام الإلهى ، وتوفيق من جهة الله تعالى ، ولا سبيل إليها بالتجربة فيتبين أن فى الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التى لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها ، وما ذكرنا قطرة فى بحرهما ، ومعجزات الأنبياء أكثر من أن يتحدث عنها ولا سبيل إليها ببضاعة العقل أصلا<sup>(2)</sup> .

(1) الآية 88 من سورة الإسراء .

(2) ص 133 المنقذ من الضلال - طبع دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

(ب) وأما دواعى وجود الأنبياء وظهورهم من بين البشر فله وجوه كثيرة يكفى واحدا برهاناً مؤيداً للدعوى ، فما بالك بها مجتمعة ، ولنسق ما يتسع له المقام منها :

فمن المعلوم ضرورة أن من الأمور والوقائع الكونية ما يمكن للعقل أن يستقل بإدراكها دون الحاجة إلى معين ، وذلك كإدراكنا أن العالم لا بد له من صانع حكيم مدبر محيط بكل شىء علماً حتى يجرى على هذا التناسق ، وبهذا التوازن والانسجام العجيب فى كل مظاهره والموجودات فيه .

فمن غير المسلم به عقلياً أن يأتى هذا النظام عفواً وارتجالاً وصدفة ، ودور الأنبياء هنا تأكيد وتقرير للعملية العقلية المستنيرة ، وبهذا الدور تندفع أعداء المكلفين جملة وتفصيلاً ، ولو ادعى البشر أن هذا القوى القادر الخالق الذى اهتموا إلى معرفته عقلياً لم يبين لهم الشرائع ، وقد سلط عليهم الشهوات والهوى ، ولم يمد لهم بمن إذا سهوا أرشدهم ، وإذا مال بهم الهوى منعهم ، لم يزل اعتراضهم قائماً ، كما أنهم على فرض إدراكهم الحسن والقبح فهم عاجزون عن إدراك صفة الجزاء على وجهه الشرعى بالخلود فى الجنة للمحسن وفى النار للمسيء ، فتحدد نوع الجزاء خارج عن نطاق مدركاتهم إدراكاً كاملاً محدداً متميزاً .

ومن الأمور ما لا يستقل عقد بإدراكها بعدها عن الحواس المعتادة ظاهرة كانت أو باطنة ، ولا يعلم نفعها أو ضررها على وجه يحسن معه استعمالها ، والتجربة لا تقى بالمقصود منها إن دخلت فى نطاق المحسن فكثيراً ما نجد من الأشياء ما يصلح دواء ، وغذاء ويلسماً شافياً ، وآخر هو سم نافع وصدور أدواء وإدراك كنه الأشياء يحتاج إلى توجيه صحيح وعلى سبيل المثال ، قد يرى البعض أن فى شرب الخمر نشوة ، وأن فى قتل فلان خلاصاً من عدو ، وأن الفجور بحسناً أجنبية عنه غم ، وأن استيلاءه على ما للغير فوز وأى فوز ، ويغفل فى الوقت نفسه عن الأخطار المستكنة وراء فعاله ، والتي تشيع الفوضى الاجتماعية وتقضى على الطمأنينة وتعادى العدالة .

ولا يغرب عنها تفاوت الإدراكات ، وإن الكامل نادر ، وإن الاسرار الإلهية عزيزة جداً ، زد على ذلك حاجة الناس إلى الصناعات النافعة ، كما أنه لا بد فى المعيشة من علم الأحكام والسياسة وتبادل المنافع والمصالح ، وقد وضع الرسل أسس كل تنظيم

يضمن للبشرية هدوءها واستقرارها وتعاونها ، كما دلها على منافع المعادن وعلمها الصناعات ، والأمثلة في القرآن كثيرة قال تعالى : فى حق داود عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾<sup>(1)</sup> وفى نوح عليه السلام ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾<sup>(2)</sup> ، وعن المعادن ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾<sup>(3)</sup> ، وفى قواعد العدالة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾<sup>(4)</sup> .

وفوق هذا - ما كان للإنسان أن يدرك تفاصيل الشرائع كما رسمها مدبرها ، فمن يستطيع أن يفصل الصلوات وأحكامها ومقاديها ومواعيدها والصيام وحدوده ، والحج ومكانه وزمانه ، فإذا تأملنا ما سبقت الإشارة إليه ألفتنا الحاجة ماسة إلى وجود الرسل ، وعلمنا أنه لهذا أرسلهم الله كما تواتر ذلك فى مختلف الأعصار ، وهنا نقف عن الكتابة لفعل فيما مضى به القول بعض الغنية لمستفهم إن كان غير مكابر ، باحثاً عن الحق طالباً الوصول إلى المعرفة دون عناد ، وأما من أراد الجدل لأنه الجدل فليس إلى مثله يساق الحديث .

---

(1) الآية 80 من سورة الأنبياء .

(2) الآية 37 من سورة هود.

(3) الآية 25 من سورة الحديد .

(4) الآية 90 من سورة النحل .

## هذا بصائر من ربكم

روى البخارى بمسنده المتصل عن أبى سعيد الخدرى قال :  
قال رسول الله ﷺ : (يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم  
يتبع بها شعاف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن<sup>(1)</sup>).

---

(1) مفردات لغوية . يوشك : يقرب . شعف الجبال : جمع شعفة وهى رؤوس الجبال . مواقع القطر : بواطن الأودية وخصها بالذكر أنها مكان الراعى . يفر بدينه : أى بسبب دينه ليخلص له دينه .

## الفصل الأول

1 - مر بي ذات صباح سيد مرموق من سادات القوم عمر الإيمان قلبه ، وملك عليه لبه ، وصار ديدنة وهجيريه ، راعه اضطراب الأفكار وكثرة الفتن عقائر ترتفع هنا وهناك ، وضروب من الناس كانوا فى خباء توجب طبيعة نشأتهم ونوع ثقافتهم أن لا يقام لهم وزن ولا يلقي إليهم بال ، فلا سابقة لهم فى جلاذ ، ولا ماضى فى لصال ، قد رفعوا عن وجوههم القناع وسفروا بكفر صراح ، وسودوا صحائف تنكر باري النسيم وتعنون<sup>(1)</sup> سلوكها علما ، وتقيمه حكمة وتبرزه ثقافة ، وتقدمه رشداً ، تريد أن تكون (براقش) وتأبى أن يذكرها التاريخ (زرقاء) وما درت ، والمراهق لا يدرى وإنما يساق - إنها تتخبط فى غواية وعماية وتسلك بيذا مجهل ، وتقاد إلى ظلمات ما بعدها ظلمات .

خشى صاحبي أن يصيبه بلاء يعم وشر يسود فعا ج إلى الكلم الطيب يستنبهه باحشا عن مقر أمين به يلوذ وفيه يبقى على ما ضمت جوانحه من إيمان ، ووجد ما كان يبغى بعد أن لقي من سفره هذا نصبا<sup>(2)</sup> فاشترى غنيمات ويعث بها إلى شعاف الجبال كى يلحق بها إذا دعا الداعى ، وأهاب المنادى ، ووقع القول وكان لا بد مما ليس منه بد .

جرى الحديث يستعرض العلل والأدواء فما وجدنا غير الإسلام ملاذا ، ولا فى سواه حماية فهو دين الله رضى المارقون أو كرهوا ، ورحمته إلى عباده ، ورسوله مصطفاه وخاتم أنبيائه وأشار أن يكون الحديث عن هداه وعقائده وعن رب كل شىء ووجوده ، ولعل حيرة أن تزول ، وعقلا يستجيب ، وكوكبا يضىء للمدلجين الحيارى .

وهنا سمعنا هتافا من أعماق قلوب مؤمنة أيها السيد : إن الإسلام لا يطاول وإن بناءه مشيد لا ينال وإن أمره لمستقر لا يضيع ، فمن أنزل كتابه حفظه ، وهو من

(1) عنون الكتاب جعل له عنوانا (تراجع مادة عنن فى لسان العرب لابن منظور فقيها بحث يطول) .

(2) سفر الروح وعناؤها وكمن مقيم وهو باد ، ورائع وهو غاد .

هو ، له قدرة المحيي المميت الذى ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (50) وَتَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطغَىٰ (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (55)﴾ الآيات من سورة النجم .

وإن لله رجالا امتشقوا حسام العقل وتسنموا غارب الحقيقة يدافعون عن العقيدة ، هم كالسيل المتتابع يمرون مع حقب الزمان فيحيون الموات وسيبعثون الطمأنينة إلى القلوب ومع ضوءهم سيتوارى خفاش ، ويأرز إلى حجره سام ، وإذا تخطفوا فيسخلفهم من هو أشد منهم صرامة وأقوى علماً وأوسع معرفة ، وهكذا شأنهم مع الأيام حتى يأتي أمر الله ، وحينذاك يقبض العلم كما شاء الله له أن يولد ، وتكون الحاقة والواقعة ولن ينجم ذلك قريباً ، فقرعينا واهناً بالا وسبح اسم ربك الأعلى ، إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون . تلك فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم .

2 - الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لخلقه ووصى به أنبياءه ورسله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (1) . ومعناه أفراد الله بالألوهية وكل خصائصها والاستسلام لمشيئته والرضا بالتحاكم إلى شريعته ، وهو الذى ارتضاه لعباده لا أى دين سواه ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

### وقضايا الإسلام لها جانبان :

جانب (نظري) فى حاجة إلى بحث واستدلال وأعمال فكر ونظر ، وهو الذى لا تقوم الشريعة إلى بعد ثبوته ، ولا ترسو قواعدها إلا به ، ولهذا دأب العلماء المتصدون لأمر الدين الإسلامى على تسمية تلك المباحث بأصول الدين تارة والعقدية تارة أخرى ، وبعد التسليم المبنى على البراهين القطعية بوجوب واجب الوجود وحصول القناعة الكافية بجىء دور الجانب (العملى) وهو دور الشريعة

(1) سورة الشورى الآية 13 .

الشاملة للعبادات والمعاملات والجهاد والسير (وأفضل أصناف الأركان الدينية هي الواقعة تحت جنس الاعتقادات فإنها معدودة من حيز العلم والأصناف الأخرى معدودة من حيز العمل ، وليس يشك أن نسبة العلم إلى العمل مضاهيه لنسبة العلة إلى المعلول أو لنسبة البدء إلى التمام والشئ متى فسدت علته واختل بدءوه لم يحلقه الصلاح أبدا .

والشئ إذا بطل تمامه فقد لحق الخلل بدؤه لا محالة ، فالاعتقادات هي التي تبذل لها المهج والأرواح ولأجلها تحتل المحن والمشاق حتى أن الرجل قد يكون موسوما بطهارة الأخلاق وبالعفة والسداد ولا يلتفت إلى فضائله إذا كان مدخول العقيدة ، وبل تنفى عنه صفة العدالة . وينزل منزلة الفجار في الشهادة ومنزلة الأعراب في الميراث ومنزلة السفلى في المناكح»<sup>(1)</sup> .

والعقيدة في معناها العام بصرف النظر عن كونها دينية أو سياسية أو مذهبية خاصة ، مستندة إلى حقيقة أو وهم أو إلى خرافة - تطلق على التصديق الناشئ عن إدراك شعورى أو لا شعورى يقهر صاحبه على الإذعان لقضية ما من غير برهان ، فلا فعالية للعقول في تكوين مثل هذا الاعتقاد غالبا وإن طلبت له البراهين المؤيدة بعد استقراره وتكوينه ، والمعنى اللغوى قريب من هذا ومؤيد له فاستعراض مفهوم كلمة (عقد واعتقد) في قواميس اللغة<sup>(2)</sup> نخلص منه إلى التعريف التالى :

العقيدة (ما انعقد عليه القلب وتمسك به وتعذر تحويله عنه لا فرق في ذلك بين ما كان راجعا إلى تقليد أو وهم وما كان راجعا إلى دليل عقلى<sup>(3)</sup>) .

وقد جرى القول عند علماء الكلام على أن العقيدة بمعناها الاصطلاحى تقابل العلم والمعرفة وتواكب الإيمان فالاعتقاد عندهم هو الإدراك الجازم المطابق للواقع

(1) ص 125 من كتاب الأعلام بمناقب الإسلام لأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى المتوفى سنة 381 هـ (1992) م تحقيق الدكتور أحمد عبد الحميد غراب طبع سنة 1967 بالقاهرة .

(2) وفى المصباح المنير اعتقدت كذا عقدت عليه القلب والضمير ، حتى قيل العقيدة ما يؤمن الإنسان به .

(3) محاضرات فى التوحيد للشيخ على حسب الله ص 11 طبع القاهرة سنة 1952 .

الناشئ عن دليل وقيد الجازم هنا ينفي الظن<sup>(1)</sup> والوهم<sup>(2)</sup> والشك<sup>(3)</sup> فلا تقوم بواحدة منها عقيدة ، ومطابقة الواقع على مقتضى قواعد الإسلام يبعد اعتقادات أخرى كالشكيب<sup>(4)</sup> واعتقاد امتياز أمة على غيرها<sup>(5)</sup> وأما القيد الأخير فوضعه احترازا عن التقليد وإن نازع فيه بعضهم مستدلا بما وقع على عهد رسول الله ﷺ حيث آمن الكثيرون وحسن إسلامهم دون أن يطلبوا على ما دعوا إليه برهانا وبظهور جليا في كبار الصحابة رضى الله عنهم فقد آمنوا بعد أن ارتضوا خلق رسول الله وسلوكه ومعاملاته قبل الرسالة وبعدها .

ولم يؤثر عن واحد منهم طلب دليل كالأدلة التي يقيمها المتكلمون ، وقد يكون هذا راجعا إلى سلامة فطرتهم وبعدهم عن التعقيدات الفكرية التي نشأت فى عصور متأخرة وفشت بعد اندماج المسلمين من العرب مع الأمم الأخرى التى حملوا إليها الإسلام وكان لها فى الوقت نفسه ماض حضارى يحمل طابعا فلسفيا خاصا ، ومع هذا لو قيل إنه لا بد من الدليل لتركيز العقيدة الإسلامية لكان الجواب أنه حق وضع أسسه القرآن الكريم حين دعا إلى النظر السهل الميسور لعامة سكان البادية ومن فى مستواهم العقلى ، ليصلوا منه إلى معرفة الله ، وهو المأثور عنهم (البعرة تدل على البعير ، وأثر السير يدل على المسير) ، فنحايهم القرآن هذا النحو البديهي الإدراك من الأدلة فى مثل قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ<sup>(17)</sup> وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ<sup>(18)</sup> وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ<sup>(19)</sup> وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ<sup>(20)</sup>﴾ .

كما حفلت آيات القرآن الكريم أيضاً بالدعوة إلى التعمق فى النظر والفكر ، والأصالة فى الاستنباط بطرق علمية وخبرة عملية ذاتية ودراية واعية فأهاب بالناس أن ينظروا فى الكون ومنشئه وما يحويه من موجودات مبتدئا بالإنسان نفسه ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وهو بهذا يضع القاعدة الأساسية للانطلاق الفكرى فاتحا المجال

(1) وهو إدراك الطرف الراجع .

(2) وهو إدراك الطرف المرجوح .

(3) وهو إدراك الطرفين على السواء .

(4) يراجع فى هذا إظهار الحق لرحمة الله الهندي ، والجواب الصحيح لابن تيمية .

(5) يشير إلى قول اليهود (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَجْبَاؤُهُ) .

للباحثين تاركاً دقة التفصلات للإنسان يصل إلى أسرارها بجهد العقل وسلاحه العلمى فى مختلف العصور الصاعدة بدون انقطاع . على أنه مهما نقب الإنسان عن خفايا الكون فلا بد له أن يدخل فى نطاق الآية الكريمة ﴿وَمَا أَوْتِمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وقلة ما أوتى الإنسان من العلم يكشف عنه ويؤيده بوضوح حال من سبقونا ومقارنته بما نحن عليه الآن فلو حدث قمة العقلاء منذ سنين بأن إنسانا استطاع المشى على القمر لقالوا إن محدثكم به مس من الشيطان ، فقد مضى زمن المعجزات وسيصل من بعدنها إلى أبعد من ذلك ما دامت العقول تعمل ولا تتوقف وستقف مكتشفات اليوم إلى جانب ما يحمله الغد موقف القزم إلى جانب العملاق فمع كل صباح جديد كشف علمى فريد وعلم الله لا يتناهى ﴿وَلَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ﴾ . الآية السابعة والعشرون من سورة لقمان .

وموقف الإسلام هذا كان فارقا أساسياً بينه وبين ما عرف عن أديان أخرى تحجب المعرفة عن العقل تقيده ولو وصل إلى نتيجة لا تؤيده ، وأرى أن التقليد كفاف لحصول العقيدة الدينية مبدئياً فإن قدر المقلد على تأييد ما اعتقده وتوكيده بالدليل ثم قصر فى تحقيق ذلك فهو آثم شرعاً ، وإلا كعوام لمسلمين ومن على شاكلتهم فإيمانهم صحيح وتقليدهم كفاف دون إثم ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وهكذا كان مسلك رسول الله ﷺ مع من دعاهم إلى الإسلام ، وعليه درج الراشدون من خلفائه رضى الله عنهم .

ويعد .. فإن العقيدة الإسلامية تمتاز بصفائها وعدها عن التعقيد وملانمتها للنفطرة السليمة ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ كما أن لها خصائص مميزة فى التوجيه والتربية العامة والخاصة ومن اليسير استخلاص ذلك من مدلول كلمة (التوحيد) التى جعلها الله مفتاحاً للدخول فى الإسلام كدين .

ففى المقطع الأول منها « لا إله إلا الله » :

1 - تحرير من العبودية لغير الله الواحد ، ومنع من الانقياد إلى أية قوة مخلوقة فكل العالم بما فيه خاضع لنظر الإنسان ومسخر له ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ وهو محل بحثه ودراسته فمهما خفيت عليه الأسرار فهو مكلف

بكشفها والوصول إلى أعماقها ليستخدمها فيما يرقى به ويطور معيشته إلى الأفضل  
﴿قُلِ الظُّرُوفُ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

فلا يوجد في تعاليم الإسلام الصحيحة ، ولا في مصادره المؤكدة الثبوت ما يعوق أو يحول أو يقف ضد أى باحث أو دارس مهما تنوع بحثه وتشعبت دراسته بل القرآن يؤكد أن نهاية مطاف المفكرين الهادفين الوصول إلى معرفة الله الواحد معرفة حقيقية تتبين لهم فى أحكام الصنع ودقة التكوين من آثار قدرة الله وإبداعه ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَانِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾<sup>(1)</sup> ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ<sup>(2)</sup> الآيات من سورة الملك .

ومع هذا فليس لآى كائن تقع عليه الحواس أو لا تقع ، سلطان يؤهله لأن يعبد من دون الله وهذا هو الحق الذى سيوصل إليه يوما ما ﴿سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وفى الآية الكريمة إلماع إلى أن الوصول إلى أسرار الكون غير الإنسان أيسر من معرفة خفايا النفس البشرية ويبرز هذا المعنى فى تقديم الآفاق على الأنفس .

يقول الكسيس كاريل فى كتابه الإنسان ذلك المجهول : لقد بذل الجنس البشرى مجهودا جبارا لكى يعرف نفسه ولكن بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظات التى كسدها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار الروحانيين فى جميع الأزمان فإننا استطعنا أن نفهم جانب معينة فقط من أنفسنا .

إننا لا نفهم الإنسان ككل ، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة وحتى هذه الأجزاء يصعب علينا إدراك كنهها فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير فى وسطها حقيقة هى إلى الآن مجهولة لنا ، وواقع الأمر أن جهلنا بأنفسنا يكاد يكون شبه تام فكثير من الأسئلة التى يلقيها وارثوا الجنس البشرى تظل بلا جواب .. إذ من الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان ما زال غير كاف وإن معرفتنا بأنفسنا ما برحت بدائية<sup>(1)</sup> .

(1) الكسيس كاريل فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول) ترجمة السيد شفيق أسعد فريد .

2 - وفي هذا المقطع أيضاً دعوة للخروج عن طاعة من انحرف عن الجادة المفارق لدينه البعيد عن تطبيق أحكامه ، ولئن وجد في بعض الأحكام الإسلامية ظل للرق فذلك لإذابته والقضاء عليه لا لتثيته وسيجد الفاحص المنصف ذلك واضحاً جلياً في آيات القرآن الكريم والسنة والتشريع وأعمال الراشدين .

3 - فتحت آفاق البحث والاستطلاع وأفسحت مجال الرؤية للكون وما فيه من آثار قدرة الواحد الواجب الوجود والكون كتاب مفتوح لمن قدر على حل طلاسمه وفك ألغازه . وأمكنه وضع الحلول لمعمياته واستجلاء خفاياه ، وما كل ذي بصر بصير ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وقد جاء ختام آيات كثيرة من القرآن الكريم حاثاً على الفهم والفقہ والعلم (إن في ذلك لآيات لقوم .. يعقلون .. يفقهون .. يسمعون .. يتدبرون .. الخ) .

وأما المقطع الثاني : (محمد رسول الله) : فإنه يوجه التفكير إلى النظر في مهمة الرسول والرسول جميعاً بالقياس إليه ، فما جاءوا به كله من عند الله تعالى ولا شيء لهم (عليهم السلام) إلا التبليغ فقط ، ووظيفتهم منحة وهبة من العلى الكبير ، وشأنهم إيصال ما كلفوا بإيصاله إلى البشر ، وعدم الخلط بين الوحي وبين أى فكر بشرى ، وواضح أن الهداية وشرح الصدور لقبول الدعوة أمر خارج عن مهمة الرسل ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ .. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ .

والإيمان بالرسول من أسس العقيدة الإسلامية ، وهو مستلزم للإيمان بما بلغوه عن ربهم ، ومن معيياتهم العقيدة ، وهى الأصل والشريعة وهى المنهج والتطبيق ، وهذا هو العلم والعمل ....

والدرس موصول إن أذن الله تعالى .

## الفصل الثانى

حار (1) الناس فيما هو واقع فى المجتمعات المعاصرة على اختلاف وجودها ، فقد انتشر بين الناشئة مجافاة الأديان ، والانغماس فى المادية البحتة ، ووصل البعض إلى إطراح فكرة (الألوهية) وانبرى كثيرون من قادة الفكر يبيّنون خطل هذا الاتجاه ، ويبرهنون على أنه مجاف للإنسانية الفاضلة ، واتخذ الراغبون فى السلامة العزلة مسلكا ، وتلمسوا لمسلكهم تعليلا فهموه من بعض أحاديث الرسول ﷺ الحاتة على اعتزال الفتن .

والإسلام الصراح وإن حذر من الفتن والانغماس فيها ، فقد دعا بقوة إلى الإيمان بالله الواحد ، وأوضح بالبراهين القاطعة وجوده ووحدانيته ، وإنه لن يستقيم أمر الحياة بغير هذا الإيمان ، فالعقيدة الإسلامية قوة دافعة للإجادة والافتنان فى كل شىء ، حاته على الإبداع والاختراع والمضى قدما بالإنسانية إلى ما يمكن لها فى الوجود المثالى الكامل ، لارتكازها على الاعتصام بالله القوى العليم الخبير ، ولنستعرض الركن الأول ، من أسسها القويمة وهو الإيمان بالله تعالى :

### 1- مفهوم الإله فى الإسلام :

الله - هو الخلق المعبود بحق ، المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن كل نقص ، وعلى هذا فمفهوم الإله فى الإسلام - أنه هو القوة المبدعة للأشياء والأسباب ، المنشئة دون مثال سبق للسنن والقوانين الثابتة البادية فى مظهر العالم . (والعالم هو الخلق كله أو ما حواه بطن الفلك ، ولا يجمع فعل بفتح العين المهملة بالواو والنون غيره ، وتعالمه الجميع علموه) (2) .

ولا يطلق على الإله فى الإسلام أنه سبب وإنما هو خالق الأسباب والعلل المتصف بالقدرة والعلم ، فله سبحانه وجود خاص متكامل ، فلا تدرك ذاته حسيا بحال من الأحوال ، وإنما تعرف بآثارها ، ويمظاهر القدرة ، فله المثل الأعلى ﴿ذَلِكُمْ

(1) حار يحار .. نظر إلى الشىء قلم يهتد لسبيله .

(2) القاموس المحيط جـ 4 ص 153 الطبعة الرابعة سنة 1935 - القاهرة .

اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ <sup>(102)</sup> لَا تُدْرِكُهُ  
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ <sup>(103)</sup> ﴿١﴾ .

## 2- أدلة وجوده تعالى :

منذ أقدم العصور بحث الإنسان عن القوة المؤثرة في الكون إيجادا وإعداما ،  
وجمع وتعريفا ، والتي يستند إليه وجوده وتدييره ، ويصدر عنها ما يخرج عن طوقه  
وقدرته ، وما يوقفه حائرا مبهور الأنفاس أمام العظمة البادية في هذا التنسيق البديع  
لحركة الأفلاك علويها وسفليها وتنوع الموجودات من سماء وأرض ، وبحار وأنهار ،  
وصحارى وجبال ، وجماد وحيوان ، ونبات وما أمدت به من حرارة وبرودة وما منحت  
من ليل ونهار وفصول مختلفة وغير ذلك مما يجعل عن الحصر ، وكل شيء بمقدار  
وميزان لو اختلف قليلا لهلك العالم ويباد ، واتخذ البحث طرقا وأشكالا مختلفة ،  
وجاء في كل عصر فلاسفة وعلماء سلكوا طريقا مماثلا أو مغايرا لمن سبقوهم  
وقديما حاور شيخ فلاسفة اليونان (سقراط) منذ أربعة وعشرين قرنا منكرًا للإله  
محاورة ولا نرى بأسا من إيرادها ، أنتهت بإيمان محاورة <sup>(2)</sup> .

سقراط : أ يوجد رجال تعجب بمهارتهم وجمال صنائعهم ؟

أريستوديم : نعم ، أعجب في الشعر القصصى بهوميير ، وفي التصوير بزوكسيس ،  
وفي صناعة التماثيل بيلوكتيت .

سقراط : أى الصناعات أولى بالإعجاب الذى يخلق صوراً بلا عقل ولا حراك أم  
الذى يبدع كائنات ذات عقل وحياة ؟

أريستوديم : طبعا الذى يبدع الكائنات المتمتعة بالعقل والحياة إذا لم تكن تلك  
من نتائج الاتفاق .

سقراط : وهل يمكن أن يكون من الاتفاق أن تعطى الأعضاء لمقاصد وغايات  
خاصة ؟ عين ترى ، وأذن تسمع ، وأنف يشم ، ولسان يتذوق ، والعين تحاط بحراسة

(1) الآياتان 102 ، 103 من سورة الأنعام .

(2) دائرة معارف القرن العشرين - للأستاذ فريد وجدى ج 1 ص 486 .

لحساسيتها وضعفها فتثقل عند النوم أو عند الحاجة ، وتحرس بالرموش والحواجب ، ويجعل للأذن جهاز خارجي يجمع لها الصوت ، هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق ؟ والميل المودع في النفوس للتناسل ، والحنان في قلوب الأمهات ، بالنسبة للأولاد مع ندرة أن ينفع ولد أباه أو أمه ، والطفل الذي يلهم الرضاعة بمجرد ولادته هل يمكن أن يكون ذلك كله من نتائج الاتفاق ؟

أريستوديم : لا ، إن ذلك يدل على الإبداع ، وعلى أن الخالق عظيم يحب الكائن الحي .. ولكن لماذا لا نرى الخالق ؟

سقراط : وأنت أيضاً لا ترى روحك التي تتسلط على أعضائك ، فهل معنى هذا أن تقول أن أفعالك صادرة عن اتفاق وبدون إدراك ؟ وانتهت المحادثة بإيمان أريستوديم بالإله ..

ومن بعد سقراط برهن تلميذه (أفلاطون) على وجود الله . (وكان يرى كما يدل كلامه في محاوره طيماوس أن الإله واحد بدليل أن العالم واحد وأنه منظم) .

ثم تتابعت الدراسات العقلية واختلفت طرائقها في تصوير فكرة الألوهية كما تشعبت أدلة كل طائفة على ما ذهبت إليه ، وتنوعت ، حتى جاء الزمان الذي نبئت فيه حضارة من نوع جديد تعتمد على نزعات فكرية اقتصادية تحمل في طيات مقوماتها نفس الصور الإلحادية التي مر بها الزمان لابساً ثوباً يناسب العصر مع الاتفاق في النتائج المضادة للإيمان ، حبلى بالعداء السافر لكل الأديان ولوعاتها يقال في هدوء وتبصر : ما رأيكم في قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ <sup>(1)</sup> الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ <sup>(2)</sup> ﴾ <sup>(1)</sup> فهل باستطاعتكم منع مقدر له الوجود أن يوجد حيواناً كان أو إنساناً أو نباتاً أو جماداً أو كوكباً علوياً أو سفلياً ، وهل في مقدوركم إيقاف الفناء والتخلص من عوامله ودفعه عن أنفسكم فضلاً عن غيركم ، وما موقعكم حيال قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ ؟ وستترك لكم المجال لتحاولوا تبرير انحرافكم عن الجادة إن كنتم صادقين وما نظنكم فاعلين .

(1) الآيات الأولى من سورة الملك .

وقد نجمت في الإسلام طوائف المتكلمين الذين خلطوا البحوث العقائدية بما عرفوا في فلسفة اليونان التي ذاعت وانتشرت في بدء ظهور الدولة العباسية وأتت أكلها في عصر الخليفة المأمون ومن بعده ، واتخذوا المنطق الأرسطي وسيلة البرهان ، وأشهر مدارسهم الأشعرية والماتريدية والمعتزلة وأبرز أدلتهم العقلية على وجد الله هو إثبات حدوث العالم لأنه جواهر وأعراض ، متى ثبت أن العالم حادث ثبت أن له محدثا عالما قادرا مريدا ، وذلك هو الله تعالى .

وقد نبغ من المتكلمين من دافع عن العقيدة بحرارة وقوة وجلد وثبات أمثال النظام ومدرسته وأضرابه ، والأشعري وأتباعه الماتريدي وأنصاره ثم ابن رشد الذي نقد طرائق المتكلمين ودعا إلى طريقة خاصة أسماها الطريقة الشرعية للبرهنة على وجد الإله المعبود بحق . قال ابن رشد : ... فإن قيل : إذاتبين أن هذه الطرق كلها (يعنى طرق أهل السنة والمعتزلة والصفوية) ليست واحدة منها هي الطريقة الشرعية التي دعا الشئ فيها جميع الناس على اختلاف فطرتهم إلى الإقرار بوجود الباري سبحانه ، فما هي الطريقة الشرعية التي نبه عليها الكتاب العزيز واعتمدها الصحابة رضوان الله عليهم ؟ قلنا - الطريق التي نبه الكتاب العزيز عليها ودعا الكل إلى الدخول في الإسلام من بابها تنحصر في اثنتين :

إحداهما : طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله ولنسم هذه (دليل العناية) .

والطريقة الثانية : ما يظهر من اختراع جواهر الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل ولنسم هذه (دليل الاختراع)<sup>(1)</sup> .

ويعد ، فنتجاوز المتكلمين محيلين الباحث الألمعي على ما تركوا من تراث<sup>(2)</sup> ونعرج على أدلة القرآن ففي ما احتوى عليه من براهين وأساليب للوصول بالمتدبر

(1) ابن رشد : (مناهج الأدلة في عقائد الملة) ص 151 مكتبة الأنجلو المصرية .

(2) وليرجع في دراسة هؤلاء الأفاضل ومعرفة مذاهبهم إلى كتب المتكلمين وما أكثرها وفي قمتها مقالات الإسلاميين للأشعري . ومواقف الأيجي ، ومناهج الأدلة لابن رشد ، والعقائد العضدية ، والعقائد النفسية وبعض كتب الغزالي وإمام الحرمين (أبو المعالي الجويني) ... الخ .

الظن إلى القناعة العقلية بحقيقة الألوهية ، ما يصلح لكل المستويات العقلية المستقيمة ، لا العليقة السقيمة ، مبتدئا بالأعرابي ذى الفطرة السليمة ، ومنتهايا بالفيلسوف ذى النظريات العميقة .

فالمستعرض لآيات الذكر الحكيم الخاصة بإثبات وجود فاعل مختار عالم قادر حكيم ، يلفها داعية إلى النظر فى الكون المحيط بنا ، والذي تقع عليه الحواس ، مشيرة إلى أن وجوده بهذا الأحكام والإتقان ، وكمال التدبير ، وتسخير كل ما فيه للإنسان الذى هو قمة الموجودات وسيدها المطلق ، يدل بكل قوة ووضوح على أن كل ما نرى ، وما نشاهد لا يمكنه أن يكون مصدره الصدفة بحال ، فهذا الليل والنهار والمس والقمر وتعاور الفصول وخلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ، وجماد ونبات ، وما يلزم لتلك المخلوقات كى تعيش وتحيا من ماء وهواء وغذاء ، وما يستلزمه تنوعها وتباينها أحيانا من مواءمة بينها كى تستقر وتتكاثر ، والقوامه على حفظها ورعايتها لتستمر فى أداء مهماتها ، كل ذلك يحمل العقال المتبصر على الإيمان العميق بوجود الصانع المختار العليم القادر سبحانه جل وعلا ، ولنصغ سمعا مع تدبر وتفهم كاملين إلى آيات كريمات تؤيد ما أشرنا إليه ، قال تعالى :

1 - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ<sup>(21)</sup> الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ<sup>(22)</sup>﴾ (1) .

2 - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ<sup>(2)</sup>﴾ .

(1) سورة البقرة 21 ، 22 .

(2) سورة البقرة 164 .

3 - ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (1).

4 - ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (33) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِمَّنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (36) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَتَّازِلَ حَتَّىٰ غَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَتَّبِعِي لَهَا أَنْ تَظُنَّ أَنَّ الْقَمَرَ وَاللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40) .

5 - ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (6) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (7) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (8) وَجَعَلْنَا نُومَكُمْ سُبَاتًا (9) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (12) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا (13) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (14) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (15) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (16)﴾ (2).

6 - ومن الآيات ما تنعى على الإنسان عجزه وتبدي ضعفه ، وقصور باعه أمام أضعف المخلوقات ، وتتحداه أن يحاول إيجاده أو مثله - هيهات - أو أن يستخلص ما تسلبه من زاده ومتاعه ، مع ما أوتى من عقل وما منح من حكمة قال جل شأنه : ﴿..إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)﴾ (3).

7 - وآيات تظهر دخيلة النفس الإنسانية ، وحيرتها أمام الكوارث والنوازل إذا ادلهمت خطوبها ، وشحها ويخلها ، بل وجودها نعم الله جللت حكمته إذا أنعم

(1) سورة آل عمران 190 .

(2) سورة النبا 6 - 16 .

(3) سورة الحج 73-74 .

عليها . قال سبحانه : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا<sup>(19)</sup> إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا<sup>(20)</sup> وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا<sup>(21)</sup> إِلَّا الْمُصَلِّينَ<sup>(22)</sup>﴾ (1) ، وقال عز اسمه : ﴿وَإِذَا أَلْمَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا<sup>(2)</sup>﴾ .

وفى هذا الصدد تأمل أيضا قوله تبارك وتعالى فى الآية الثانية عشرة من سورة يونس : ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُورِثُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

وآيات تأمر بحمد الله وشكره على نعمه التى لا تحصى ، وتقرر الأدلة على تفرده بالخلق والتدبير ، وتوجب عبادته وحده ، وأنه لا ينبغي عبادة سواه . قال تبارك وتعالى :

« قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ أَلَلَّهُ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ<sup>(59)</sup> أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَلْبَسْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُثْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَلَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ<sup>(60)</sup> أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِيَالَهَا أَثْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَلَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ<sup>(61)</sup> أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ أَلَلَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ<sup>(62)</sup> أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَلَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ<sup>(63)</sup> أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ<sup>(64)</sup>﴾ (3) .

وهكذا تمضى آيات القرآن الكريم شارحة المظاهر الكونية وأصولها وأن مردها إلى الله ، لتبرهن على وجوده وقيوميته ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ويستطيع كل حسب إدراكه أن يعرف خالقه ويهتدى إليه فالعامى يؤمن بظاهر من القول ، والمتعمق الفاحص يصل إلى أسرار الخلق والإيجاد .

وقبل أن تنتقل إلى أقوال العلماء المعاصرين وشهاداتهم بوجود إله مدبر للكون

(1) سورة المعارج 19 - 22 .

(2) سورة الإسراء 83 .

(3) الآيات من 59 ، 64 من سورة النمل .

نورد حجاج إبراهيم عليه السلام لقومه كما ورد في سورة الأنعام ، وكيف انتهى إلى إثبات موجهه بألفظ وجه وأحسن طريق متبرئاً من تلك المعبودات التي اتخذوها أرباباً من دون الله فقد كان قومه يعبدون الكواكب لما لها من التأثير السببي في الأرض فكانوا يعتقدون أن الشمس رب الناس ، وأن لقمع يدبر الملوك ويفيض عليهم روح الشجاعة والإقدام وينظر جندهم ويخذل عدوهم ، ويعتقدون أن (مرداخ) وهو المشتري شيخ الأرباب ورب العدل والأحكام وحافظ الأبواب التي يدخل منها الخصوم لفض خصوماتهم وأن (رنكال) وهو المريخ رب الصيد وسلطان الحرب ، وأن (عشتار) وهي الزهرة ربة الغبطة والسرور والسعادة ، وتمثل بصورة امرأة عارية ، وأن (نيو) وهو عطارد رب العلم والحكم ، وجاء إبراهيم بحجته البالغة فحصر العبادة في فاطر السموات والأرض وحده دون غيره .

﴿.. بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾  
 واستمع إلى ما يورده القرآن الكريم بصدده هذا النقاش الإبراهيمي العظيم .

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ<sup>(1)</sup> أَتُخَذُ آلِهَةٌ إِنِّي أَرَأَيْتَ إِذَا مَا كُنْتَ فِي ضَلَالٍ عَظِيمٍ (74) وَكَذَلِكَ نُبِيَّ إِبْرَاهِيمَ مَنَّكَوَاتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّكَوَاتِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ تَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلذَّيِّ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ

(1) إبراهيم - هو أبو الأنبياء الأكبر بعد نوح عليهما السلام ، وهو العاشر من أولاد (سام) كما في سفر التكوين ولد في بلدة (أور) من بلاد الكلدان ، وفي سفر التكوين (أن الله تعالى ظهر له في سن التاسعة والتسعين من عمره وكلمه وجدد عهده له بأن يكثر نسله وأبوه سماه الله آزر) وفي سفر التكوين اسمه (تارح) وقال البخاري في تاريخه إبراهيم بن آزر وهو في التوراة (تاريخ) وجزم الضحاك بن جرير أن اسمه (آزر) .

أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَلَكُمُ أَشْرَکُتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَآيُ  
الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ  
لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن  
نَشَاءُ إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (83) ﴿

وإلى الدرس القادم إن أذن الله قيوم السموات والأرض .

## الفصل الثالث

فى فصلين مضيا جرى القول موضحا ما رنت إليه الفطرة الإنسانية منذ أن برأها قيوم السموات والأرض تنشُد الهدوء الروحى ، وتطلب معرفة القوة الدافعة لهذا الكون فى سيره على اتساق يحار فى تعليلها عقل مبدع (بفتح الدال) . فطورا يقارب الحقيقة وحيناً يبعد عن مدارها ، تحدوه عاجلة يريد لها يضحى بكل القيم الفاضلة فى سبيلها فيصاب بالصمم والبكم والعمى فلا يهتدى ، ومن أقل النادر من أهمل أو حاول أن لا يكثرث بروابط المادة البحتة ، فانحل عقاله ، وتراءى له المورد على أضواء متباعدة لا يستطيع عنونها خافتة ولا تسميتها ساطعة ، ولا يدري أمن ملاحه الفكر العالمى (فى جملة) وتوفيقه أم من قباحة اتجاهاته ودلائل خذلاته النظر بعين الحقد والبغضاء إلى مصدر القيادة الواعية المثالية فى كل أطوارها الشديدة الحذب ، البالغة الرحمة بالبشرية ، بل بكل باغم وصامت ، المتمثلة فى رسالات السماء ، المنتهية فى فضلها ، الواصلة قمة الخير فى الحنيفية السمحة التى أوحيت إلى سيدى رسول الله (محمد) ﷺ .

وشب جيل ، وتعاقب نظراؤه ، على التعلق بأذيال بادی القوة المادية الغاشمة ، ومادروا ، أنهم لو سلكوا الطريق لوصلوا ، فما فى قاموس ذوى الهمم القعساء محال أبدا ، وأنه لمن أشد أنواع التسفل والتدنى أن يقلد المرء دائما ولا يحاول أن يبدع ، وهل يستوى مالك الشىء ببشريته ، ومنشئه العالم بكل تفاصيل أجزائه ومهامها ؟ كلا ... فالمبتاع لا يزال عبدا للثانى يفزع إليه كلما توقف ما ملك عن القيام بما يراد منه ، فيرتبط به ارتباط الظل بالأصل والضوء بمصدره ، والحركة بمولدها ....

ونلتقى اليوم بمن بحثوا عن خالق هذا الكون واهتدوا إلى معرفته بآثار قدرته البادية فى كل خطوة من خطوات دراستهم العلمية بعيدا عن المؤثرات العقائدية الخاصة وأيقنوا أن (فى كل شىء آية تدل على أنه الواحد) .

## العلماء المعاصرون والإيمان بالله تعالى :

يقصد - هنا بالعلماء ، طائفة من المتخصصين فى سائر فروع العلوم من الكيمياء إلى الفيزياء إلى الأحياء إلى الفلك إلى الرياضيات إلى الطب إلى غير ذلك<sup>(1)</sup> وقبل أن نشير إلى آرائهم ، نورد فذلكة يسيرة عن الدواعى لإلحاد الملحدين وتنكبهم الطريق السوى ، وخاصة فيما يتعلق بالأديان فى العصر الحديث .

منذ منتصف القرن الثامن عشر على وجه التقريب برز فى الوجود من يجاهر بإنكار وجود إله خالق للكون ، وتزعم هذا الاتجاه من دعوهم علماء وفلاسفة ولا نريد أن نحجر على العقول فلا تفكر ، ولا أن ندعو إلى إعدام زعماء الفكر المخالفة للأديان والداعية إلى نبذ كل دين ، ولكننا نرى أن هؤلاء نشأوا وعاشوا فى ظروف خاصة تأثروا بها حدث بهم إلى الثورة العنيفة ، وكان من أهم أسبابها الظلم الاجتماعى المنصب على بعض الطبقات الشعبية فى الأوطان التى وجدوا فيها ، وما رأوا من الحيف الإجحاف يحيق بفئة خاصة وتقوم به السلطة الزمنية متعاونة معها السلطة الدينية التى تجاهل رؤساؤها أبسط قواعد الدين المسيحى - دين تلك الشعوب - الداعى إلى الرحمة والتسامح والأخذ بناصر المحتاجين ، واتخذت السلطان الزمنية والدينية وضعا متحدا ضاغطة بثقلها على الكادحين الفقراء ، تمتص دماءهم ولا تسمح لهم حتى بفتات الموائد واستنام القياصرة والكهنة الترف والبذخ والإسراف ، ويشهد ما خلفته العصور الوسطى فى أوروبا من قصور ودور بصدق ما كان من الظلم كما كان<sup>(2)</sup> . لهذا انصب غضب الثورين على السلطة الزمنية والدينية معا ودعوا إلى فصلهما كاملا ، وذاعت القولة المأثورة (دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله) .

وكان لا بد ولا مناص ولا مهرب لميردى الإصلاح من فعل ما فعلوه فى سبيل إزالة عوائق المساواة بين الجميع فى الحقوق والواجبات ، فهوت تحت أقدامهم السلطات

(1) ص ٢٢ من كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) .

(2) كما تشهد أهرام مصر بمقدار جيروت الفراغة ، وفى العصر الحديث كم استغل فلاحو مصر فى السخرة وحفر قناة السويس والترع المنبثة فى الوادى الخصيب .. ونظراؤهم فى بلاد أخرى كثيرة ، كثيرون لا يحصون عدداً .

الزمنية فقد أقصيت عن المسرح وحل محلها نظام جديد ، وأما السلطة الدينية فقد  
لاذت بجدران المعابد وأغلقت عليها أبوابها .

وحين يعالج الموضوع هنا لا يهتم بالإشارة إلى نظام خاص قائم أو اندثر ، وإنما  
يعنى البحث بذكر الحقائق التي سيطرت وكان من نتائجها ما وصل إلينا نحن بخيره  
وشره ، لنصل إلى وجه الصواب المطلوب . وهنا نتساءل : هل الدين المسيحي من  
حيث هو دين سماوي دعا في أصوله وقواعده إلى ظلم وحيث وإجحاف ؟ والجواب :

كلا ثم كلا ، بل الأمر بالعكس ، إنه تبنى التسامح في أسمى صورته فمهما  
تفاوتت الأقدار فالكل عباد الله ، والأفضل منهم دائماً هو الساعي في خير الجميع ،  
والأكثر امتثالاً لأوامر الله ، هذا هو أصل الدين المسيحي بل كل الأديان السماوية  
التي اتفقت كلمتها جمعاء على التوحيد (لا إله إلا الله) فلا معبود بحق سواه ،  
ومعنى هذا التحرر التام من كل قيد يجر إلى الخضوع لغير الله سبحانه ، إذن فلماذا  
أتهم الدين وحوارب تلك الحرب الشعواء ، لأن الناس لا يفكرون في المسطور  
بالأوراق ، ولا إلى المحكي بالأسنة وإنما يعنون ، ويهتمون بالأسلوب المطبق واقعياً ،  
الملزم للعمل بين الناس .

وقد نسى الذين كانوا على رأس الكنيسة حينذاك أو تناسوا الجانب الإلهي  
الحقيقي ، وركنوا إلى السلطة الزمنية يتملقونها ليعملوا إلى بعض ما تملك من متاع  
الدنيا ، فصارت لدور العبادة أقطاعات ، ولرؤسائها مظاهر الأباطرة ، وكان هذا سبباً  
في ثورة عقلاء رجال الدين على الآخرين الذين حاربوا كل تقدم فكري ليقبوا على  
أوضاعهم الخاصة ، ومن هنا نشأت الثورة على الدين عامة وصدر حكم بعض  
المفكرين بإعدامه ، والعمل على إقصائه نهائياً عن الوجود الشعبي ، ولكن النظرة  
الواقعية إلى هذا الحكم توضح توتر أعصاب هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم قضاة ، وشدة  
غضبهم الذي أعماهم عن البحث في الأصول التي جاء بها الدين ، وهذا برهان  
النزعة الجنونية السطحية التي انتقلت بالشعب من ظلم مادية الإقطاع والكنيسة إلى  
مادية المذاهب الاقتصادية المتعنتة ، فلم تحقق للناس رفاهية ولا أمناً ، لأنها فقدت  
صمام الأمن الذي لا بد منه لضبط النفس الإنسانية ، وتربية الضمير الفاضل لديها ،

وكل ما حدث هو انتقال من سلطة حاولت كتم أنفاس الناس واستغلالهم إلى مشابه لها لا يقل عننا وجورا عنها ، فكلما النظامين لا يرحم مخالفة فى الرأى ولا يعطيه الفرصة للدفاع عن نفسه .

والاتزان الفكر الصحيح لا يلغى وجود الإنسان مهما كان وضعه الاجتماعى ، ولا يغفل الجانب الروحى لأنه لا يستقيم الضمير الإنسانى إلا إذا ارتبط بقوة خالقه يعتقد فيها القدرة على مراقبته ومحاسبته ولا يعزب عنها شىء من أحواله مهما حاول إخفاءها ، وحينئذ يخشاها ويراقبها ويعمل على إرضائها بعيدا عن الانحرافات ولا نشك فى أن الإلحاد وجد فى كل عصر ومصر ، وذو قرنه فى حقب التاريخ المتعاقبة ، غير أنه فى عصرنا أخذ أسماء علمية أو فلسفية ولكنه علم وفلسفة أخطأهما الصواب .

(وقد كان هناك إلحاد وملحدون دائما لم يخل منهم عصر ، ومعظم إلحادهم نتيجة للهوى أو الجهل أو إلى مزاج شخصى غير متزن انحرف بصاحبه عن الحكم السليم ، وبعض الملحدين يعتمد لأمراً أو لآخر محاربة الإيمان بوجود الله .. أما فى العصور الحديثة فإن الإلحاد يرجع بالإضافة إلى ما تقدم - إلى مذاهب فلسفية زائغة فى تفسير الكون يقبلها العاجزون عن الاستقلال فى التفكير أو الذين يبغون من وراء اتباعها تحقيق أغراض شخصية) (1) .

وسأشير هنا إلى ما برهن به علماء معاصرون اختلفت تخصصاتهم العلمية ، ولما كان مجال البحث لا يتسع لسرد كل آرائهم والتعليق عليها فسأكتطف بعض ما فى مقدمة كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) مما كتبه الدكتور المترجم (2) مبيئاً كيف وصل هؤلاء العلماء إلى أحكامهم بوجود الله : (لقد بين أولئك العلماء لنا كيف تدلهم قوانين الدنيا الحرارية على أنه لا بد أن يكون لهذا الكون من بداية ، فإذا كان للكون بداية ، فلا بد من مبدىء من صفاته العقل والإرادة واللانهائية ، نعم إن هذا الخالق لا بد أن يكون من طبيعة تخالف طبيعة المادة التى تتكون من ذرات تتألف بدورها من شحنات أو طاقت لا يمكن بحكم العلم أن تكون أبدية أو أزلية .

(1) الأستاذ الدكتور (أبو ريدة) الإيمان بالله فى عصر العلم « مجلة عالم الفكر ج 1 ص 175 » .

(2) د. الدمرداش عبد المجيد سرحان سرحان ص 2 - 4 .

وعلى ذلك فلا بد أن يكون هذا الخالق غير مادى وغير كثيف ، لا بد أن يكون لطيفا ، متناهيا فى اللطف ، خبيرا لا نهاية لخبيرته ، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ، وإذا كنا نريد أن نصل إليه فسيبنا إلى ذلك لا يكون بحواسنا التى لا تستطيع أن ترى إلا الماديات الكثيفة .

وإذا كنا نريد أن نلمس وجوده فإن ذلك لا يمكن أن يكون داخل المعامل أو فى أنابيب الاختبار ، أو باستخدام المناظر المكبرة أو المقرية ، وإنما باستخدام العنصر غير المادى كالعقل والبصيرة وعلى من يريد أن يدرك آيات ذاته العلية أن يرفع عينيه عن الرغام ويستخدم عقله فى غير تعنت أو تعصيب فى خلق السموات والأرض ، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

إن فروع العلم كافة تثبت أن هناك نظاما معجزا يسود هذا الكون أساسه القوانين والسنن الكونية الثابتة التى لا تتغير ولا تتبدل والتى يعمل العلماء جاهدين على كشفها والإحاطة بها ، وقد بلغت كشوفنا من الدقة قدرا يمكننا من التنبؤ بالكسوف والخسوف وغيرهما من الظواهر قبل وقوعها بمئات السنين .

فمن الذى سن هذه القوانين وأودعها كل ذرة من ذرات الوجود ، بل فى كل ما هو دون الذرة عند نشأتها الأولى ؟ ومن الذى خلق كل ذلك النظام والتوافق والانسجام ، من الذى صمم فأبدع وقدر فأحسن التقدير ، هل خلق كل ذلك من غير خالق ، أم هم الخالقون ؟ إن النظام والقانون وذلك الإبداع الذى نلمسه فى الكون حيثما اتجهت أبصارنا يدل على أنه التقدير وعلى أنه العلمى الخبير من وراء كل شىء .

ويرد العلماء على أولئك الذين يدعون أن الكون نشأ هكذا عن طريق المصادفة ، ويشيرون إلى استخدام الرياضات وقوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر . فإذا كان لدينا صندوق كبير ملىء بالآلات عديدة من الأحرف الأبجدية ، فإن احتمال وقوع حرف الألف بجوار الميم لتكون كلمة (أم) قد يكون كبيرا ، أما احتمال تنظيم هذه الحروف لكى تكون قصيدة مطولة من الشعر أو خطابا من ابن إلى أبيه فإنه يكون ضئيلا إن لم يكن مستحيلا .

ولقد حسب العلماء احتمال وقوع الذرات التى يتكون منها جزء واحد من

الأحماض الأمينية وهي المادة الأولية التي تدخل فى بناء البروتينات واللحوم ، فوجدوا ذلك يحتاج إلى بلايين عديدة من السنين وإلى مادة لا يتسع لها الكون المترامى الأطراف . هذا لتكوين جزء واحد على ضالته فما بالك بأجسام الكائنات الحية جميعا من نبات وحيوان ، وما بالك بما لا يحصى من المركبات المعقدة الأخرى ، وما بالك بنشأة الحياة ويملكوت السموات والأرض ، إنه يستحيل عقلا أن يكون ذلك قد تم عن طريق المصادفة العمياء أو العشوائية . لا بد لكل ذلك من خالق مبدع عليم خبير أحاط بكل شىء علما وقدر كل شىء ثم هدى .

ثم تجيء بعد ذلك الترجمة الكاملة لآراء العلماء المتخصصين شاهد صدق واقعى على وجود إله مبدع للكون . وكتاب آخر تحدث عن الإيمان ، وأوضح مؤلفه كيف يكون انتشار العلم وسيلة للوصول إلى الله وما أصدق القرآن حين ينادى ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفُ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(1)</sup> وحين يؤمن العلماء ومن ورائهم الناس جميعا يتخلصون من سلطان المادة البحتة القاتل الذى تحكمه شهوات وتنفذه سلطات وتؤيده نوازع مختلفة لا ضابط لها ولا ميزان ، ونورد هنا ما علق به أحد الذين قدموا الكتاب فى ترجمته العربية قال : (وجاء العلم وجاء العلماء بألف ألف دليل على وحدة الأرض ، وما عليها ووحدة السماء ، ومن هذه الوحدة<sup>(2)</sup> درج الناس والعلماء إلى وحدة رب هذه الأرض وهذه السماء ومع هذا بقيت فى العلماء بقية تقول بالخلق والتخلق طبعاً وتنكر وجود الله .

ومع هذه البقية العالم الإنجليزى جوليان هكسلى فكتب فى ذلك كتاباً أسماه (الإنسان يقوم وحده) وهو وفى ذلك يسير على درب سار عليه جده من قديم فجده توماس هكسلى (1825 - 1895) صاحب دارون وناصره فى القرن الماضى ، وظهر هذا الكتاب لهذا العالم فانبرى له عالم آخر . فكتب كتابه ﴿إن الإنسان لا يقوم وحده) أراد بذلك أن يقول : (إنه يقوم فى هذه الدنيا بإرادة الله)<sup>(3)</sup> .

(1) الآية 52 من سورة فصلت (حم) .

(2) وحدة المخلوقات غير وحدة الوجود التى نفاها علماء الإسلام وبرهنوا على بطلانها .

(3) ترجم هذا الكتاب تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) .

والكتاب يعدد في إيجاز جمال هذا الاتساق الذي يجمع بين الخلائق جميعا :  
بين الحى والحى ، وبين الحى والجامد ، وعبر حدود- الأرض واتجه إلى السماء ،  
يربط ما بينهما وبين الحياة على هذه الأرض وهو يدلل من صفات هذا الشيء وهذا  
الشيء على أن صانعهما لا بد واحد ، فهما كالمفتاح وقفله اتساقاً لا يمكن أن يكون  
ابتدعهما ودبرهما إلا قل مدبر واحد (1) .

وكل ما ورد من كلام العلماء فى هذين الكتابين وأمثالهما له أصل فى آيات  
القرآن الكريم ، فقد كان سر الوصول إلى تلك النتائج الإيمانية هو إطلاق العقل من  
عقاله وحمله حملا على البحث والدرس والتنقيب وأحيل طلاب الحقيقة على ما  
كتب هؤلاء العلماء ، ودراسة القرآن دراسة فاقهة واعية ليصلوا أنفسهم إلى الإيمان ،  
وحين يصلون أن يززع إيمانهم نعيق غربان الغرب وآفاته ، ولا خرافات الشرق  
وترهاته ، فالحياة بلا إيمان تصبح جحيما لا يطاق .

وما نشهده على مسرح الدنيا الآن فى قاراتها المختلفة من الحروب والفتن  
مصدره ، القلق والحيرة والبعد عن الإيمان الصحيح ، والإسلام يقرر فى صراحة  
ووضوح : أن إيمان المقلد لا يقبل بحال ما دام الإنسان قادرا على متابعة الأدلة  
الكونية الناطقة بوجود الله ووحدته لأن العقائد الموروثة تتهاوى تحت أول صدمة  
فكرية غريبة ، وأما العقائد المكتسبة بالبحث والدرس فلا يزعها شيء .

نسال الله الثبات على دينه الحق مقتدين بسيدنا محمد خير خلق الله ﷺ .

---

(1) ص 36 من الكتاب المذكور .

## الدعاة إلى الله

قال رسول الله ﷺ :

(لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) .

1 - بعث رسول الله ﷺ خاتماً للأنبياء ، وكان العاقب الذى لا نبى بعده ، وضمن الله تبارك وتعالى استمرار هداية القرآن إلى يوم القيامة ، وحمل الدعوة من بعد الرسول رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وساروا بها مرشدين ومعلمين إلى آفاق الأرض دون أن تصدهم عقبات أو تحول بينهم وبين هدفهم معوقات ، فاستقر أمرها عبر القرون المتطاولة ، ولم يخب ضوءها رغم ما لاقت من أعاصير هوج ، وحروب ظاهرة حيناً ولا بسة ثوب الصداقة أحياناً ، وقيض الله لها المدافع بالسنان تارة ، وبالقلم وقوة المنطق تارات ، وكان آخر العهد بالقتال السافر المنظم قبل الحروب الإسرائيلية ، الحروب الصليبية التى انتهت بما سجله التاريخ لضراغم الإسلام ضد ضراوة التنظيم الأوروبى لتلك الحروب .

ولما رأى العدو الذى لا ينام دون غايته أن السيوف قلت ، وأن الكنايب اندحرت ، وأن جموعه المقاتلة تفرقت وأمحت أو كادت ، سنك الصراع أسلوباً ليس بالجديد فى تاريخ الإنسانية ، ولكنه ظوره وقواه ، ذلك هو محاولة هدم البناء من أساسه وتقويض أركانه بأساليب الخداع والمكر ، وطرق اللين والمحاورة البريئة فى ظاهرها ، والمنطوية على حقد دفين وسم قاتل فى نتائجها .

وهيات الفرصة غفلة المسلمين ، وتصدع وحدتهم ، وتفرق كلمتهم ، فصار لكل منهم (ليلي) يغنى عليها ، وصيوداً يلقي إليها شباكه ، والعدو متربص فى حذر يسدد سهامه ويغرى البغضاء بين الإخوة والأصدقاء وفى غمرة تلك الليالى السود ، ولج بالمسلمين إلى ببداء مهلك ، وحاد بهم عن الجادة التى سلكها القادة الآباء ، ودعاة الحق من الأجداد ، ولكن رحمة الله ولطفه ما كانت لتفارق المسلمين لا إلى رجعة ، وإنما قيضت لهم العناية رجالا تسلحوا بالتوقى وبالتقوى يلين الحديد ، وتواصوا

بالحق والصبر وبهما يتوصل إلى لهدف مهما طال المير ، فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً .

2 - راجع تاريخ الدعوى الإسلامية واستنثبه خبرها ، واستمع إليه يقص عليك نضال علمائها ، وكفاح عقلائها تلقى فى كل مرحلة تاريخية عملاً أو عمالقة فى الفهم والعلم وقوة القلب وثبات الجنان لا يقلون فى ميدان النقاش والجدل ، والفهم والوعى والعلم والحكمة عن خصوصهم إن لم يزيدوا ، فمنذ ظهور الحسن البصرى فى القرن الأول الهجرى إلى يومنا هذا (سبعينيات القرن العشرين الميلادى) ما خلا عصر ولا مصر من زاد عن الحق ، حملوا عبء الدعوة إلى لله بكل طريقة وأسلوب ، فالمجالس التى عقدت فى المساجد فى صدر الإسلام ، ورجالها الذين صاغوا هداية الشريعة فى أساليب متطورة ، وتصدوا لكل مخالف يدافعونه بطريقته ويواجهون سلاحه بمثله ، قد غصت كتب التراث بأسنائهم ووصف علومهم ، والحديث عن مناظراتهم ، ومنازلاتهم ، فقد جالوا فى كل فن وتسلحوا بكل باتر وكونوا فرقة تفارقت سبلها ، واتحدت أهدافها .

فلئن سمعت عن سنى ومعتزلى ، وعن حامل فلسفة اليونان ومنطقهم ، وعن مفسر الكتاب وشارح السنة ، فاعلم أن الهدف واحد وهو الذب عن حياض الإسلام ، وإن اختلفت الأساليب وتنوعت الطرق ، وقد أدى الجميع رسالتهم على أكمل وجه وأحسنه ، ولا زالت خطاهم على الدرب نوراً وهداية لكل مدلج حائر ، وعودنا وقوة لكل ذى بصر وعزم ، ولئن لم يرتبط حديث بقديم ، لا يثبت ولا يتطور ، ولا يقوى ساعده ولا يشتد ، وما وجد شىء نشازاً وصدفة ، وإنما هى مراحل يسلم سابقها للاحقها ما علم ، فيضع لبنة فوق لبنات حتى يستوى البناء شامخاً ، وبناء أساليب العلوم التى تتخذ وسائل دفاع عن الحقائق لا يمكن أن يجيء اليوم الذى يقال فيه أنه انتهى إلى حد ، فلكل صباح إشراق إن تشابهت مع سابقتها مظهرها فهو تماثل لبادئ الرأى ، ولكنه مع الفائص على البلاسم الكون معلم جديد يرشد إلى خبىء يجب أن يكشف عنه النقاب ، ويوضح عن إبدائه التراب ، ويعرض للناس اختراعاً وفكراً ، وفناً وعلماً ، ومن سار على الدرب وصل .

3 - بعد أن فتح الله على المسلمين الدنيا ، وظهرت لهم ألوان جديدة من الحياة ، غيرت أساليب معيشتهم وكادوا أن يقعوا فى شركها ، وأن تحتويهم حبالها ، ولكن الحراس كانوا يقظة فدخلوا إلى مجالس الخلفاء وذكرهم بالله ، وسمع لهم أولوا الأمر فلم يوصدوا دونهم الأبواب ، وطالما بكى العالم واستبكى الخليفة وأعوانه ، وكان ذلك فى صدق قوله ، وسلامة قلبه ، ولجونه إلى ربه وعزوفه عن دنيا الناس ، وتراعى إلى سمع المسئول عن الرعية (اتق الله) وتقبلها بقبول حسن وشجع المبلغ وأيده ، فسارات الأمور كلها على منوال كريم وسلوك مستقيم ، وانتشرت جيوش الحق إلى كل صقع ويقعة ، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

ولما كانت أزمة القلوب بيد الله ، وكان من سنته فى خلقه أن تضعف الهمم مع الترف ، وتتلاشى العزائم مع الركون إلى الراحة ، وتتصارع الشهوات مع المثل الدافعة إلى الخير ، وكان منها أيضاً أن يعترى الهرم كل شىء ويلم بكل كائن ، وما الدول عن ذلك ببعيد ، هرمت الدولة وكادت أن تذهب أدراج الرياح ، ومع هذا ظل للإسلام دعائه وحملته رسالته فى أشد العصور ظلاماً ، تحملوا وطأة العذاب ، وفى سبيل عقيدتهم استعذبوه ، وكلما هلك منهم سيد داع إلى الله قام خلفه يحملون رسالته .

ولله رجال ما صدهم عن عقيدتهم صاد ، ولا استطاع الحديد والنار أن يضعف من قوتهم ، ولأن يخضد شوكتهم على مر الليالى وكر الأيام ، وحاولوا ونجحوا فى إنشاء جماعات مترابطة تؤمن بالله فتنشأ دور العلوم الإسلامية ، وتبنى الجماعات المؤمنة ، وقام فى كل قطر إسلامى من يحمل راية الإسلام ، ومن يجرد قلمه ويضع معارفه فى خدمة دين الله ، وإن اختلفت الأساليب وتنوعت المسالك .

4 - ولنترك العصور التى مضت كما مضت ، فقد كان لها رجالها وحملة الدعوة فيها الذين من آثارهم ما تركوه مسطوراً فى تراثهم ، وما نشاهده من أزهر وزيتونه ، ودار علوم فى القارة الهندية ، وكلية أصول الدين فى إيران ، وأفذاذ فى العلوم والمعرفة فى العراق والشام ، ودعاة للحق فى القارة السوداء ، ولنيمم وجوهنا شطر حاضرنا فماذا نرى ؟

يحاول بعض الدارسين الذين يوصفون بالسطحية فى تفكيرهم ، والتعمق فى تبعثهم لأذئاب يهودا أن يقللوا من قيمة جهود الدعاة فى عصرنا ، ويتهموهم بالجمود تارة ، والضعف تارة أخرى ، وبالقصور تارات ، ولا أدرى لماذا ؟ أينافسوهم فى ميدان ليس لهم ، بتافه من القول وضحالة فى الفكر ، قد يكون هذا ، وقد يكون لقصر باع وضيق عطن ، أو تحصيلها لما يعيبونه على غيرهم ظناً منهم أن كل الناس نعم ، وأن كل من عداهم طغام .

وأنى أقول لأولئك وأمثالهم أن الإسلام ليس ملكا لأحد ، وتبعته لا تختص بها طائفة دون أخرى ، ومع هذا فأرى كثيراً قد أدوا واجبهم ولا يزالون يؤدونه ، ولأضرب مثلاً بما يجرى فى تلك الدولة التى نعيش على أرضها ولنتدارس ما يجرى فيها ، ولنعط كل عامل حقه ولا نبخس الناس أشياءهم فقد فتحت ثروة البلد عيون الدنيا عليها ووفد كل طالب للثراء السريع إليها ، وحملت إليها العادات الغربية والتقاليد التى لا عهد لها بها .

ورأى المقيمون من وطنيين ووافدين صراع الأفكار والعقائد ، ومحاولة تقليص الإسلام ليخلو الجو للعابثين بالمقدسات وليسطوا على خيرات البلد فى هدوء من طريق مشروع أو غير مشروع ، وهذا موقف عصبى ولا شك يحتاج إلى سياسة حازمة وحكيمة ولكن بالطرق السلمية الهادئة ، وقيض الله لها من أبنائها من هيا لهم القيض زمام الأمور فى وعى وإدراك وعمق فهم وحسن تأت للأمور ، فقامت للعبادة دور سامقة شاهدة واستقدم لها خيرة العلماء من بلاد المسلمين ، وحفلت بالدروس يؤديها دعاة فاقهون للدين ، مديرون على الدعوة إله ، مخلصون لله ، درسوا القديم ومزجوه بالجديد ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، ولا يقف أمر دون الكمال إذا قام عليه وتولاه من يحسن التأتى له مع درية ودراية ، ونشأت فى وزارة الأوقاف إدارات لها أجهزتها القوية ، وظهر أثرها على إعداد محكم لوسائل الدعاية للإسلام والتصدى الحاجم لكل مارق من حملة مكروبات الإلحاد والزيف .

وصدرت مجلة (الوعى الإسلامى)<sup>(1)</sup> وتقدمت وشقت طريقها بكل ثبات وصارت

(1) كاتب هذه السطور هو أحد منشئها وقد تولى إدارة تحريرها إلى جانب عمله مستشاراً لوزارة الأوقاف إلى أن انتقل إلى التدريس بجامعة الكويت سنة 1390 هـ .

مجلة العالم الإسلامي الأولى كما تشهد بذلك تقارير وأنباء ، ووجد قراء العربية فى أيديهم كتيبات تحمل التبريق لسم الإلحاد وستكون فى المستقبل القريب ملاحق مع الوعى بلغات المسلمين فى كل مكان ، واتخذ نشر التراث طريقا واضحا وسار بخطى ثابتة وارتضاه كل من اطلع على ما صدر منه من علماء العالم الإسلامى ، ورأوا فيما تسلكه الوزارة منهجاً واضحاً يقاوم كل عوامل الهدم ويدفعها ويقضى على آثارها .

بقيت همسة نسرهما فى أذن أولئك اللذين لا يهتمهم إلا الحديث عن الخطباء خطباء المنابر ، ويحاولون النيل بمختلف الهمزات والغمزات من قدرتهم وكفاءتهم ، والواقع ان هذه الفئة فى الكويت وفى طبيعتهم علماء الأزهر الشريف المخلصون لدينهم تقوم بأفضل دعاية للإسلام الحنيف ، وجهاز الدعوة والمساجد فى هذا البلد يعنى به وبشرف عليه كبار رجال الوزارة الذين ثقفوا العلوم الأصيلة فى الإسلام لغة العرب ، ويبدلون كل جهد فى سبيل الوصول إلى أعلى المستويات ، وعلى هؤلاء التافرين الغامزين مهما حملوا من ألقاب وزاولوا من تعليم أو تجهيل - أن يوضحوا - أهدافهم حين يقولون أن من العلماء من يجامل على حساب دينه .

وحين يصبح أحدهم أن الوعاظ مقصرون ، وحين يريد أن يشير إلى أن بعض الداعين إلى الله مرتزقة - ولكن صرحاء - مع هؤلاء إن كانوا بعيدين عن الديار ووافدين إليها ، ماذا يريدون من صحباتهم إن كانوا يريدون الإصلاح . فالطريق أمامهم مفتوح ، فليدلوهم وليقدموا ما عندهم .

إن أهل البلد يعلمون لأنهم عقلاء ، وليست هذه مجاملة ، وإنما هى نتيجة خبرة طويلة ، يعلمون أن العلماء اللذين عندهم ، هم أمثل الناس وأحق الناس بالرعاية ، ولهذا أكرمهم بما لم يحلم به أولئك الحاسدون ، وإن هدأوا وحافظوا على الصلوات الطيبة فنحن معهم وإن لا فلنا لجولة سوف لا نغلب فيها حفاظاً على تقاليد بلد عشنا فيه زمانا طويلا وحفظنا وحفظناه ، ونحن نسأل الله أن يعيننا على رد جميله كما يرضيه سبحانه .

وأخيراً : أسمع فى كل إذاعة من كل قطر إسلامى دعاة مفوميين وعلماء فاقهين ومحدثين مبدعين ، ويشهد بذلك العالم كله ، ولجهدهم آثار واضحة فى مقاومة الانحراف والرعونة .

ثم ماذا - ثم ما هي ذى وزارة التربية فى الكويت تنشئ إدارة دينية وتفتيشاً للدين خاصاً وتزويده برجال لا يرقى الشك إلى إخلاصهم لربهم وعملهم ، وما أمر الجامعة عنا ببعيد ففيها تدرس ثقافة إسلامية وعقيدة إسلامية ولديها أساتذة فى الشريعة ، لا يألون جهداً فى التوجيه إلى الخير والهداية .

وفى الكويت جماعات لها وزنها الدينى ولها عملها المنتج وعلى قمته فى الحكم رجال يعرفون واجباتهم نحو الله ، وفى أعيانها أعيان الإسلام ولولا ذلك لجرف التيار كل شىء وأتى على كل شىء .

وفى مصر أنظر ماذا فعل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فكسب وزع من كتب وأرسل من بعوث كما أنشأ محطة القرآن ، وسجل القرآن وفى السعودية مثل ذلك ، وفى العراق والشام ، ولولا هذا الدفاع القوى المنتظم الآن لوجدت الإسلام ذكرى أيتها المتجنى المقنع بالعفة والحرص على الإسلام .

إن اللسان العربى هو أقدر الألسنة على تبليغ رسالة الإسلام ومن وراء هذا اللسان قلب مؤمن وإدراك واع وفهم صحيح ، وبذل وتضحية ، فعلى المتجنين على الدعاة أن يتقوا الله فى دينهم وكتابهم وأخيراً وليس آخراً أذكر هؤلاء بأن الهدم أسرع من البناء ، وأن كل إنسان قادر على الهدم ، وليس كل إنسان قادراً على البناء .

## من الكلم الطيب

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال : (يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف) .

حديث حسن صحيح (رواه مسلم وغيره)

1 - أردف رسول الله ﷺ سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما خلفه ، وتحدث إليه طويلاً موجهاً إلى الله ، ودافعاً إلى أساس السعادة ومصدرها ، وحكى ذلك ابن عباس فقال : أن رسول الله ﷺ ألقى إلى قولاً حكيماً ، ورسم لى خطة شاملة للسير في الحياة الدنيا ، وبدأ حديثه الشريف بقوله عليه الصلاة والسلام : (يا غلام أو يا غليم : احفظ الله يحفظك) .

ويدعى لدى ذوى البصائر أن الله مالك كل شيء وخالقه ومدبره ، لا يعزب عن علمه ، ولا يبعد عن قدرته كائن ، لأنه سبحانه المكون ، والبارئ والموجد ، والمبدئ والمعيد ، فمن أراد القوة والسيادة والقيادة الحقة المتجهة للخير ، النافعة للبشرية ، فلينشدها في رحاب الله ، ومن أحب علم ما لم يعلم ، وفقه ما لا يدرى ، وانفتح سبل وقوى المعرفة الكلية والجزئية ، فليتجه إلى الله وحده ، ومن طلب المال والجاه والبسطة من الرزق واتساع السلطان فلن يجد أسس ذلك كله إلا عند الله ، ومن رام ما يرام من فضائل الوجود .

ومزاياه المتمثلة في جمال اتساقه ، ويداعة تنسيقه ، وعمق دلالاته على موجدته الحق فلا مناص له من أن يطرق أبواب رحمة الله فكل ما ترى وما لا ترى مما يحس وما لا يحس من كائنات علوية وأرضية مكونة ومقدرة ومرسومة على ألواح الطبيعة من إبداع رب كل شيء .

واقتضت حكمة الله وقامت على ذلك البراهين الواقعية والعقلية على أن الأخذ في الأسباب للوصول إلى الأهداف شيء لا بد منه ، ولا مناص عنه ، ولا محيص من التمسك به ، فمن أراد اجتياز قناة صغيرة لا يتأهب له كما يعد عدته للسفر الطويل على مقتن الأوقيانوس مثلاً .

ومن رغب الوصول إلى هدف قريب يقاس بالأمتار ، ولا يهيب له القوى التي تلزم للمسافات البعيدة أميالا ، ومن أحب مشاهدة منظر إلى جواره على حائط أو بساط الطبيعة لا يحتاج إلى منظار يقرب ما نأى عنه وبعد فلكل شيء وسيلة مناسبة ، ولكل عمل جهد يوافقه ، والنفوس تتفاوت في السهم ، والعقول لا تتساوى في الإدراك ، والقوى لا تتقارب في الشدة والضعف ، تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته تبديلاً .

2 - ورسول الله ﷺ لا يقاس به في توجيهه وقيادته بشر ، وإن كان من طينة الأناس فهو المختار ، والمصطفى لمهمة لا نظير لها ولا مشابه ولا مماثل ، مهمة دون الوصول إلى غايتها تدق الأعناق ، وتتلاشى القوى ، تلك هي وضعه أسس كمال إنساني في كل صور ذلك الكمال ، مهمة هي تبليغ تعاليم رب القوى والقدر إلى من فضلوا على بعض من خلق ليقودوا كل من خلق ، وأوجدوا لغاية أرادها الله .

ومن أجلها برأهم ، مهمة تتمثل - إن صح القياس - في قوة أصول كل ما يفكر فيه بشر ، من خير يرقى بالإنسانية ويعلو بها إلى مدارج السماء وأسبابها ليتصلوا بالملا الأعلى ملائكة ، ويتجافوا عن الأرض فلا يلتصقوا بترابها شياطين ، يتعهد الطفل والصبي بحكمته والشاب والشارخ والكهل والشيخ برعايته ، وهدايته بأذلا ﷺ جهدا لا يقو عليه بشر من البشر إلا رسول مشمول برعاية الله وهدايته وتوجيهه ، وإرشاده وإعداده الطويل لتلك المهمة الشاقة ، ولكل هذا صبر مع صنوف الناس حتى وصل إلى ما أراد الله من معرفة بالدين وفقه للقواعد وإدراك للأحكام ، ما ترك شيئا إلا دل عليه ، وأخبر عنه ، ووضحه ، وأبرزه لذى عينين ، وفقه ذلك صحابة وتابعون وتابعوهم ، وما كان ذلك مهما كان ليمنع وقوع بعض الشرور التي تغتال الأرواح وتعدو على المال ، وتنتهك الأعراض لأن هذا من سنة الله أيضا ، وهو أن يتعاور الخير والشر على هذا الوجود ، والموفق السعيد من لاذ بحمى الله وقوته ، وعزف

عما يرديه فى مهاوى الشر والهلاک ، وتمسک بحبل الله ، وألقى رحاله فى رحابه ، ولا يجىء ذلك عفواً دون إعمال جهد وإرهاق نفس ، وتقويم معوج فلا بد من عمل ولا مناص من إرهاق فى سبيل الهدف .

ولا يمكن أن يصلک أو تصل إلى ما تبغى دون جهد جهيد ، وعمل دائب وتجاوفاً عن الراحة ، وإطراح لملذات الأنفس الفانية ، فمن تواكل تآكل ، ومن ضعف عن السير هلك فى صحراء الوجود ، وتاه فى بيئاته ، ومن لم يعمل جهده البدنى والفكرى والعصبى ويلقى بدلوه فى الدلاء يموت ظمأً على حافة بئر ملئ بالماء ، وهكذا لا بد من الأخذ بالأسباب يا أبناء الدنيا .

3 - ومضى رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وانقلب الناس على أعقابهم وخاصة فى عصرنا وما سبقه من عصور تتصل بأسواره وتلاصق جدرانها ، وحقت كلمة الله : ﴿لَسُوا اللَّهُ فَأَسَاءَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ وتوالت المحن وولجت إلى الدور الخاصة والعامة فلا تجد بيتاً مسلماً على شرعة إسلامه ، ولا مجتمعاً حمل الإسم إلا وقد تخلى عن الأسس ، ولا رجلاً أو امرأة إلى ما ندر (والنادر لا حكم له) إلا شاكياً من لحمة دم ، ووشيجة رحم ، وطغى الفساد وزاد وعم وتراكم .

وجاء دور جنى القطوف ، ولسوء حظنا عاصرنا بعض ألوانه ، اختلاف فى الأفكار ، وتطاحن بالأراء ، ونفاق فى عمل ، وانتهاك لكل حرمة ، ثم تعد على الأرواح ، واستهانة بمقدرات الآخرين ، ونيان كامل لكل علاج ورفض شمل لرأى نطس الأطباء ، ولوى الجميع اعناقهم بعيداً عن النور ، وأحبوا السير فى الظلام ، وسائر الظلام مرتبك حيران قد يصيب نفسه حين تزل به قدمه فى مغارة ، وحين تحمله سقاها إلى متاهة ، فهو لا يفكر إلا فى شحم ولحم حمل ، وإلا فى غرائز وهوايات بها اتسم ، فلا يعرف بعيداً عن هيكله مستحقاً لرحمة أو معونة ، فليمت الجميع ليحيا ويفنى الكل ليعيش الفرد ، وساد استعمال إنتاج معامل السلاح ومصانعه .

وذر ذلك الثراء على تجار الحديد والنار ، وركب زعيمهم طائرته ليحلق فوق الرمم التى ضاقت بها القبور ، وليسعد ناظره بلون الدماء يخضب الأرض ، وتأبى

الأرض إخفاءها ، وليشم رائحة الجثث المحترقة ، والحقول المباداة ، ولم ينعو  
أمام أطفال لا حول لهم ولا طول ، ولم يحرك عاطف الرحمة فيه بطون حوامل  
تبر ، وأعراض تنتهك ، وصار قلبه حجرا من الحجر ، أو حديدا صلدا من نوع لا  
يلين بالنار ولا يخضع للطرق ، وسار الكل إلى الهاوية ، وما هم أولا سائرون ولات  
حين مناص .

4 - وجملة واحدة من توجيه رسول الله ﷺ (احفظ الله يحفظك) تلوى عنان  
الشر وتقضى على الظلام ، وتعلو راية الحق ، ولكن كيف ؟ هذا لا يكون إلا بالتربية  
من الأساس ، والتنبيه لمآسى الانحراف ، والضرب بشدة على أيدي قادة الحروب  
الذين يعيشون للعمل ضد الإنسانية ، وما وسيلته إلا تنشئة جيل وتربية أطفال وتبديل  
أنواع الألبان التي يتكون منها العظم حين يبدأ في الاشتداد ، والأعصاب حين  
تحاول احتلال مكانها في لميدان ، ووضع مرائى جديدة أمام العين الناشئة ،  
وملاحقة ذلك باخلاص ونور ، وبإخلاص الأنبياء ونور الله وهدايتة ، ليتكون جيل  
على نفس المبادئ النابعة من (احفظ الله) لتحقيق النتيجة الحتمية (يحفظك) وأنى  
ذلك وكيف يتدارك ؟

إنه ممكن وليس محالا ، فما في الدنيا محال ما دامت للرجال عزائم ، وللنساء  
قلوب ، ولدى الجميع تراحم ، وأمامهم قيادة ، والكل ممكن تحقيقه حين نؤمن بأننا  
جديرون بحياة كريمة وحقيقون بسلام إسلامى ، ومحتاجون لراحة أبدان وعقول ،  
فالمدى طويل والبون شاسع ، والمتاهة مخيفة والغد غيب ومفتاحه مع اليوم ، فمن لا  
يوم له لا غد يدرك ولا مستقبل يبنى .

5 - وأقول وأكرر وأعيد ولن آتى بجديد فكم من قائل للخير ومنبه عليه ، وداع  
إلى سلوكه ، ولكن ما هي النتيجة ؟ تكمن النتيجة في تحمل الآلام التي تتسلق إلى  
قمة انداعى ، وتتمكن منه ، فنحقق قول سيد البشر (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) ،  
فقد خبايا قوم ضوء الهداة ، وتضاءل نفوذهم ، وظهر عليهم ضعفاء الفكر ، المنقادون  
لتوجيه الدرهم والدينار ، والسائرون مع المعدات (جمع معدة) والفتحات والأنابيب ،  
وعرف العادى على الأخلاق كيف يصل ، فاختر ذات الابتسامة الفاتكة ، والقند

الأيهف ، واستسلم مقابلوه للنزهات ، ولاذوا بحمى إبليس اخترعوه ، بل كان ميتاً فأحيوه ، فالنجاهة النجاهة ، وإن شئت فاللطيمة اللطيمة ، والصحو الصحو .

وها هو الخط المرسوم والصور الهادية ، والكلمة الهادقة (احفظ الله يحفظك) ، وكفى ذلك توجيهاً لمن أراد هداية .

وأخيراً - هل نستطيع أن نجد من نقرأ عنه بديلاً عن أن نقرأ له ، ومن نلوذ بظله من حر أنفاسه ، ومن تدمع العين معه حين يلين القلب ، ومن يضع نفسه موضع خصمه دون لجاجة ، ومن يتصور الواقع أمام عرشه جالساً عليه ، ومن يدرك سائل العطاء مالك المال ، ومن يتأكد من وجوده لخير غيره لا للقضاء عليه ، ومن لا ينسى أن المقام قصير مهما طال فما دام الفناء ملاحقاً فلا خلود ، ومن يتأمل الأمثال فى الطبيعة يعمل يقيناً أن الوردة الناضرة ستذبل وتلقى على الأرض وتداس ، بعد عز البقاء فى روض وجمال وتسيق بأرق أنامل ، ولثم ثغور تعز أن تضاهى ، وإن هذا البناء الجميل سيصبح اثرًا بعد عين ، وأن أنهاراً غاض ماؤها ، وأن قفراً صار عامراً ، وأن أمماً بادت ومضى بها الزمان لا إلى عودة ، لعل وعسى ، وما ذلك على الله بعزيز ولكن واحسرتاه ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ الآية 105 من سورة يوسف .

أخى فى الله : ليس هذا وعظاً تمر به عينك دون لقاء مع قلبك وإنما هى تفتة مصدور ، تبين حقائق غير خافية ، وتكشف ما انكشف من أوادم فى ثياب سباع ، وأنس ينطوون على وحوش ، وهل يا ترى أعاد الزمان نفسه فيستطيع الحديث أن يردد مقالة القديم :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذا عوى وصوت إنسان فكذت أطيير

والعلة - نسيان : (احفظ الله يحفظك) وما تلاها من وصية رسول الله ﷺ ، فهل

من هذا كره ؟

## الحج والجهاد

روى الإمام البخار في صحيحه قال :

« حدثنا عبد الرحمن بن المبارك : حدثنا خالد : أخبرنا حبيب عن عائشة رضی الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ، نرى الجهاد أفضل العمل ، قال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور »<sup>(1)</sup> .

1 - الباحث عن الحق المتأمل في أصول الإسلام وقواعده يجزم عن اقتناع عقلی إن كان مصنفاً ، إنها بصورتها الصافية المتلقاة عن رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، تحقق بما لا يقبل الجدل نظام الحياء المثالية ، وأسس المدنية الفاضلة التي تعطي الطمأنينة الكاملة من كل وجوها ، والتي لا تترك ثغرة يلج منها مكدر أو مسيء قل أو جل ، وفي ظلها يشعر الإنسان بقيمته ، وينمي شخصيته ويدرك مهمته التي ندب لها من رب العالمين ، كما يتأكد دارسها المتزن المتروى المتعقل من صلاحيتها التامة لكل زمان مهما تقلب وتبدل ، ولكل مكان لو اختلفت وتنوع ، وأجزم مع استطاعة تقديم البرهان .

إن النظم الاجتماعية البشرية المختلفة والطرائق الاقتصادية المتنوعة والمذاهب المتعددة المتشعبة التي تخالف الإسلام وتجافيه ، قد ظهرت على المسرح وأولاها النظارة عناية واهتماما في وقت غاب فيه الإسلام ، وكان منزويا في مسطورات عفى عليها الزمان ، أو مكونة في صدور خربة ، ثم ترددت في الوجود الواقعي أصداء مختلطة لا تتيين وجهتها ولا تدرك مراميها ومقاصدها ، فشالت نعماتها ، وتقلصت حتى عن ديارها ، في الوقت الذي داهم فيه الغريب المريب حصونها واقتحم معاقلها ، وسدنتها نيام في هياكل يقظى وعمى في سميت مبصرين ، فاجأتهم الفتن ففغروا

---

(1) عبد الرحمن بن المبارك هو العيشي (بالتحتانية المثناة والشين المعجمة) بصرى وليس أخا لعبد الله بن المبارك المروزي الفقيه المشهور وشيخه خالد ، هو خالد بن عبد الله الواسطي : وقد ورد في رواية الحموي ضبط كلمة (لكن) بكسر الكاف وزيادة ألف قبلها بلفظ الاستدراك وسماه (أى الحج) جهاداً لما فيه من مجاهدة النفس .. الخ ذكر هذا ابن حجر العسقلاني في فتح الباري .

أفواههم من هول القارعة وتداعت قواهم من المفاجأة الفاجعة ، فألقى العدو الديار بلاقع من حمايتها ، أشباه الرجال ولا رجال على وفق تعبير سيدنا على كرم الله وجهه يوماً ما ، واستطاب المدهمون المرعى فنمت أفكارهم وسمنت وانتشرت مبادئهم وعمت وصاياهم ، وصار باطلهم حقاً وما هو بحق فى حقيقته وأضحى الحق الصراح باطلا وما هو بباطل فى واقعه .

2 - ولما كنا نعيش فى عصر تخصص ، وعالمنا الإسلامى كما يبدو عامر بكثير من الذين درسوا الإسلام مبرزين فى فروعه ولكل دور حق عليه أن يؤديه كاملاً غير منقوص وهو مسئول عنه أمام الله والناس ، دفعاً للعلمانية الزاحفة مع التصنيع ، والمدرك يبسر أن الذين اتخذوا العلوم العقلية والفلسفية طريقهم الذى سلكوه ما فرطوا فى جنب الإسلام .

فقد شرعوا أقلامهم يقدمون حقائقه واضحة ، ويصرعون بها الخصوم الألداء ولئن كان الأثر ضئيلاً فليس مرجع ذلك إلى ضعف فيهم ولا لعب فى أسلحتهم وإنما مصدره تهافت الدولة وتمزق الأولوية ، وتفرق الكلمة ، ومع كل العوائق هام هم أولاً يؤدون دورهم فى ثبات وعزم وإصرار لا يصددهم وعيد ولا يدرهم تهديد ، فهم ماضون فى طريقهم يقرعون الحجة بمثلها ، وكلما بدأ للشر ناجذ حطموه بقوارع البرهان .. وبارع القول .. فلندع هؤلاء ولنعرج على طائفة أخرى من علماء الملة فللمسلمين معهم حساب يطول ، وللإسلام عليهم عتب ولوم شديدين ، ولتوضيح ما إليه قصدنا نقول :

المال عدل النفس والنفوس به شحيحة ، وهى حريصة حرصها على الحياة ، حاول الإنسان تسميره وتفنن فى تنميته بكل الوسائل المشروعة ، تقابلها أضعافه غير المشروعة وسئل المتخصصون فى الفقه الإسلامى بالمعنى الاصطلاحى أعنى المعاملات عن رأى الدين الصالح لكل تقدم حضارى كما هى الدعوى المبرهنة ، فصمتوا طويلاً وترك القادرون على الجواب الضعفاء ينثرون الفتاوى هنا وهناك ، وقامت مجامع دينية ثم نامت والتقى علماء المعاملات ثم تفرقوا واختلفوا ولم يسموا ولم ينتهوا إلى رأى يقال فيه إنه الرأى الذى يرد الحق إلى نصابه ، والسيف الباتر إلى قرابه ، فقامت مؤسسات وشيدت بنوك اقتضتها مصالح العصر ولكن على

قواعد بعيدة عن الخط الإسلامي ومالت إلى نظم ندر الرحب مهما كانت مصادره ،  
أهدف ليه وأريد أن أوضحه هو أن يعطى علماء المعاملات الإسلامية الرأى صريحا  
فى حل أو حرمة وقبل أن يطلعوا على الناس بإجماعهم القاضى بتحليل أو تحريم  
يجب أن يوضحوا أولا الطرق السليمة الموصلة إلى بديل لا يعطل المال ولا يحرمه  
يرسمون سبيل الإسلام الواضح المفيد للناس فى حزم وقوة بإجمال كامل تام مؤيد  
بالبراهين العقلية التى تقتنع ولا تشكك وتصحح ولا تلتوى وما وراء ذلك من التنفيذ  
أو عدمه متروك لأولى الأمر وأصحاب الشأن فى التصرف .

وبهذا يخرج علماء الملة من المسؤولية أمام الله والناس ، وليشترك فى القرار  
النهائى كل علماء المسلمين من جميع أقطاره حتى لا يندد شاذ بما سيكون من  
إجماع ، وحتى لا توجد أهواء تذهب بالرأى السديد ، وتحول حوله الشبهات التى  
ربما تعفى آثاره وتطمس معالمه ، وتنطفى أضواءه ، فيظل المسلمون فى ظلام الشك  
ومقعد الفاقد الثقة بكل ما يقال ...

3 - ولعل الناظر فى الموضوع قد شعر بابتعاد القول عن عنوانه ، فما الرابط بين  
الحج والجهاد وبين العلوم والفلسفات والمعاملات ، والواقع أن الارتباط واضح جلى ،  
فالجهد هو المرابطة على ثغور المسلمين ، ويختار لهذا الرباط الأشداء فى دينهم  
الأقوياء فى الحفاظ على عقائدهم المؤمنون بالله الذين يطلبون إحدى الحسينين ، وفى  
ذلك من جهاد النفس ما فيه ، ولقد تعددت الثغور وتنوعت فلم تعد محددة بمكان من  
الأرضى وكفى ، وإنما تلك الحصون من الداخل الآن فى وضوح ، وقبل الآن فى  
تلصص ولهذا يجب أن يتنوع الحماة الكماة فحملة السلاح المادى لهم مكانهم المعلوم .

ورجال الأقلام أصحاب العلم بالدين المخلصون الأكفاء لهم وضعهم الأقوى  
والأشد ، فمن غلب على ثقافة أمة ، وملك عقلية أبنائها وحورها حسب ما يريدك  
قلاعها المادية فى يسر حيث يجد الطريق ممهداً والأبواب مشرعة ، لأنه ملك الفكر  
أولا ، والأمة لتى ينبرى علماءها ورعاة ثقافتها ليصدوا عدوان علوم وثقافات غازية  
هى التى تنتصر فى المعركة الحاسمة والحج ركن من أركان الإسلام لم يشرع لمجرد  
سفر ومشقة وتعربة جسد وتحمل متاعب الطريق ووعثائها ، وإنما شرع على القادرين ،

ولقادرين فقط لتيلاقي المسلمون من أطراف الأرض في اجتماع عام كل عام ، يضم زعماءهم في كل اتجاه حياتي (بتشديد الياء) زعماء في العلوم الكونية والنظرية والسياسية والاقتصادية في الثقافة ، في السياسة ، في الفن ، في الحروب ، في كل نواحي الحياة ، يتدارسون أمورهم ويبحثون في جد وإخلاص لوجه الحق كل في اختصاصه ، واللقاءات توثق الروابط ، وتقوى العرى ، وتحقق الاتحاد ووحدة الاتجاه ، وتبعث في الأمة الإسلامية القوة التي تجعلها خير أمة في التقدم الحضارى المنشود ...

حاول الإنسان العلماني أن يوجد مثل هذا التلاقي ولكن هيهات فقد أنشأت الدول المتذبذبة عصبة الأمم ، ومن بعدها البديل هيئة الأمم المتحدة ، إسما ، المتفرقة واقعاً وحقيقة ، فلم تؤت ثماراً مفيدة بل بدت في الواقع إحدى وسائل تغلب القوى على الضعيف وفقدت قيمتها واستهانت بها شعوب وضرب بقراراتها المتتالية عرض الحائط فلو أدرك المسلمون حقيقة الحج ومقاصده لجنوا ثماراً طيبة كل عام ، أفليس من الممكن أن يجعل المسلمون من حجهم هيئة إسلامية تقرر مصائرهم ؟ أليس من المستطاع أن يكون رجال جامعات العالم الإسلامى (يونسكو) إسلامياً يدرس كل أنواع العلوم والثقافات والفنون ويخرج بما ينميها ، ويعيد أمجاد المسلمين الذى بنوا حضارة وشادوا صروحاً علمية شامخة شهد بفضلها الأعداء قبل الأصدقاء .

4 - ولحكمة سامية لا يقبل الله إلا الحج البعيد عن الرفث والفسوق والجدال ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ لِّمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَغْلُمَهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِي يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (1).

وما ذلك إلا لأن لقاء المسلمين في الحج مؤتمر عام يجب أن يبتعدوا فيه عن ما يسىء العلاقات بينهم فلا يصح منطلقاً لحاج أن يأتي شيئاً مما نهت عنه الآية الكريمة لأنه مقبل على الله راج رضاه محقق لدعوة إبراهيم عليه السلام ، وذلك كله لجمع كلمة المسلمين وإزالة الفوارق من بينهم وحيث يتساوى هناك في اللباس والهيئة تقوى والضعيف والحاكم والمحكوم والغنى والفقير ، يقول رسول الله ﷺ : « من

(1) سيرة البقرة الآية 197 .

حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» فهل حقق المسلمون ما أراد الله من حجهم؟ الجواب تمليه أحوال المسلمين وهو أنهم بعدوا عن روح العبادات جميعاً، فلا ألفة حققوا ولا ترابط أوجدوا، بل عادوا كما ذهبوا، وسيظل هذا حالهم حتى يثوبوا إلى رشدهم وينفذوا وصايا قرآنهم، ولا يتبعوا السبيل التي تفرقت بهم عن سبيل الرشد.

5 - والحديث الشريف ليس خاصاً بالنساء، وإن كان من الممكن توجيهه هذا الاتجاه ولكن عمومته أفضل وأجدى على الأمة، فالحج المبرور هو الذى تتحقق من الغيات التى شرع من أجلها ومن أبرزها جمع كلمة المسلمين ودراسة أوضاعهم فى العالم دراسة دقيقة مشمولة بروحية كريمة تبعد بها عن شوائب الأنانية التى تززع المؤتمرات الدولية الأخرى البعيدة عن الإيمان بالمثل العليا ففى مثل هذه المؤتمرات، كل يود الخير لدولته ولو هلك العالم.

وكل يرى الفضل لأمته التى يمثلها مهما كانت النتائج بالنسبة للأمم الأخرى، وهذا ما يلمس فى اجتماعات لمنظمات الدولية التى تسيطر عليها القوى التى تستطيع بقانون وضعته هى شجب كل ما لا يرضيها ورد كل من لا يدور فى فلكها بكلمة واحدة (اعتراض) أو حق الفيتو. أما حجاج بيت الله فهدفهم واحد لا يتعدد وهو تداعى كل الأعضاء لألم أحدهم، وما مس أحدهم من ضرر مسهم جميعاً، وما جنى من غنم فهم شركاء فيه وتوحدتهم الناشئ عن الإيمان يشد أزرهم فى الميادين والمجتمعات الدولية ويكتلهم أمام الأعداء التقليديين ويضفى على قرارات يتخذونها طابعاً روحياً كريماً يلاشى الأنانية المقيتة، ويذيب الشخصية المنفردة، ومن أهم ما يعنيه وجود المسلمين كأمة هو زيادتهم عن حماهم وحراسة نفوسهم وجهادهم فى سبيل نشر الروح الإسلامى فى العالم ليسيتر ويمحو اختلافاته وشقاقه بعد أن يزيلها من بين معتنقيه أنفسهم، فالانطلاق إلى الجهاد العاخم بعد الحج المبرور يعد ثمرة له غاية ترحى منه، وليست هذه مثاليات لا تتحقق واقعياً وإنما الذى يبدىها مثاليات غير قابلة للتحقق هو الخور وضعف العزيمة، وواقع المسلمين هو الذى يسىء إلى أصوله إساءة بالغة ما بعدها إساءة كما أن دعاة الإسلام ليسوا خياليين أو يرددون أحلاماً يعز وجودها

وإنما هم واقعيون يعرضون في كتاباتهم وخطبهم وأحاديثهم خطة العمل الصريحة الصادرة من المشرع الأعلى للنهوض بالمجتمعات الإنسانية وإزالة ركाम الفساد المفسد لأجوائها وتنقيتها مما شابها ، من تضليل وافد عدا على مقدراتها ، واشترك في آثمه للأسف الشديد بعض المتسمين بالإسلام الناطقين بشهادتيه وما كانت ولن تكون الدعوة إلى الإسلام خيالية أبداً وإنما هي الدواء الذي يطب لكل داء .

فهي استعملوا ما حوت صيدلياته ولا تدعوها مغلقة على ما فيها ، فلم تنزل شريعة الإسلام لتبقى مسطرة على صحائف مهملة أو لتوضع في قبو ، أو في صرح مشيد ليطاف حولها ويطلق لها البخور ويترك بها ، وإنما وردت للتطبيق والتنفيذ ، وعلى عارضها أن يؤمنوا بجدواها ، وعلى أبنائها أن لا يتأبوا على الالتزام بها في دولتهم وأحكامهم حتى تستقر في الأرض آخذة وضعها الحقيقي المراد منها ، فهل من مستجيب لنداء الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ فالحق أبلج والباطل لجلج والطريق لا حب والصوى مشرعة ..

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ..

## قمة الإنسانية

عن عبد الله بن مسعود رضی الله عنه قال :

« كانى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبياً من الأنبياء ضربه قومه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .  
(رواه الإمام مسلم)

1 - فى ظواهر الوجود ، وما يبدو منه محساً ، وما يدرك واقعاً ، مفارقات تشير العجب ولا تخضع لميزان ثابت ولا تدخل تحت تصنيف علمى لا يقبل النقص ، تكون لشدة جلائها ووضوحها من المعميات وإن حاول أناس بحثها وتعميق القول فيها فهم على أدنى درجات الإدراك لم يتفقوا على استنتاج ماهيتها ولا مصدرها ولا مدى فعاليتها لو أخذت كما بدت ، فكثير ممن سما إدراكهم ، وتوطدت بمدبر الكون صلاتهم ، بدوا فى مسوح العازفين عن مهاوى العامة ومنازل الدون ، وللعامّة والدون تفسير خاص فى عرفهم لم يستقوه من مظهر مادى بل قد يكون هذا المظهر فى شرعتهم دون الدون يمرون بالحياة مرور النسائى المنعشة يلتقون بالأحياء التقاء النمير الصافى الزلال بعابر الصحراء الفاقد حبالته واشطان بثره ، يبذلون دائماً ولا يبسطون أيديهم طالبين أبداً مهما عز عليهم الكن أو ضاق بهم المأوى ، وقد كانوا ضياء دياجير النفس الإنسانية المظلمة ورواد دروبها المتشعبة ، وحلالى عقدها المستعصية عاشوا لغيرهم رغم عدوان الغير عليهم ، وتجربدهم كل سلاح لحريهم وإعداده ما استطاع لإزاحتهم من طريقه ، زاعماً أن ما يفعل هو الأجدى نفعاً على الإنسانية . ولو أدرك أو حاول ولم يصمه ما أصمه للوى عنان مطيته نحوهم ، وكبح جماح أدهمه للاقتراب منهم ولما تركهم يرددون مقالة اتسمت بها طرائقهم ، وتناقلتها الأعصر عنهم : « رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

2 - من دراسة واقع عاشه من دلفوا إلى بواطن الأمور ، ورأوا بعين الحقيقة ماهية الأشياء كما يجب أن تكون وكما يصح أن تؤخذ ، وأيقنا أن لا خلود لمخلوق ، ولا بقاء لعالم ، وبدت لبصائرهم التى لم يصبها العمى أن وراء الأكمة ما وراءها ، فلكل

كائن نهاية ، وله من إيجاده غاية . هؤلاء آمنوا بحقهم فى الذى أعد بعد هذه المرحلة الزائلة فأعدوا أنفسهم للسير على نهج غير ذوى عوج وإن ظهر لبادى الرأى أنه خروج على طبيعة البشر ، فكان فى فعلهم خلودهم ، وفى سلوكهم بقاؤهم ، واستعصى على الزمان الذى لا يرحم أن يعفى آثارهم ، بل طأطأ الرأس إجلالا لهم ومضى يسجل فى أضراره أخبارهم نماذج إنسانية رائعة وحقائق إلهية ظهرت فى أقوالهم ونفوذها فى فعالهم ، فهذا رجل يضر بما له ويؤذى دنياه ، ويعطى ما لم يطلب منه ظاهراً خضوعاً لإيمانه وعرفانه بما يدخل له غده . قال عبد الله رضى الله عنه : (بايعت النبى ﷺ على النصح لكل مسلم) .

وقد روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى مكرمة من أخلاق هذا الصحابى وحرصه على الوفاء بما عاهد عليه رسول الله ﷺ ولو نال ذلك من ماله ، والمال عدل النفس روى الطبرانى أن جريباً هذا كان على جانب من الثراء وقد أمر مولاه يوماً أن يؤم السوق ليشتري له فرساً ، فاشترى له فرساً بثلاثمائة درهم فاشتراه بها ، فقيل له فى ذلك ، فقال : (إنى بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم) .

3 - ابتعد الموجه الإسلامى عن المسرح الحقيقى الذى كان يجب أن يلعب عليه دوره ، واخفى وراء (الكواليس) يقوم بدور لم يندب له وليس هو الوضع لطبيعى له ولأضرابه ، ولنعد مستعرضين بعض وقائع الزمان الذى مر من قبل حيث نرى القدوة هو من بيده السلطة ، ومن له الأمر والنهى ، وأن الإسلام ليس قبوعاً فى صومعة ، ولا حديثاً عابراً يتلاشى مع الريح ولا كتاباً ينمق ثم يوضع على الرف لا تحس به إلا أرضه الأربعة محاولة نيل غذائها من أوراقه وشرابها من مداده ، تعالى معى إلى القمة قمة الإسلام رواه الأول : هذا أبو بكر رضى الله عنه كان يعمل قبل خلافته تاجراً ، فلما أفضت إليه الخلافة أخذ يغدو ويروح إلى السوق ليحصل على طعامه وطعام أسرته ولولا حمل المسلمين له على التفرغ لأمورهم ما ترك التجارة أبداً ، وكان يوزع ما يصل إلى يده من حصيلة بيت المال بين المسلمين جميعاً لا يفرق فى ذلك بين أحد منهم وقد قيل له يوماً : لتقدم أهل السبق على قدر منازلهم ، فكان جوابه رضى الله عنه إنما أسلموا لله ، فوجب أجرهم عليه يوفيههم ذلك فى الآخرة وإنما الدار الدنيا بلاغ .

وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقوم بخدمة عجوز أختى الدهر عليها فافقدها المال والولد وسلبها نور العين فأصبحت مسخاً لا تقدر على شىء حتى رفع اللقمة إلى فيها ، وكثيراً ما جاء إليها فوجد غيره قد سبقه إليها قائماً بكل حاجياتها فترى يوماً مستخفياً ليعلم من هو ؟ فإذا هو أبو بكر رضى الله عنه ، فصاح : أنت هو ؟ لعمرى ما سبقناك إلى خير إلا وسبقتنا إليه وأبو بكر يومئذ خليفة رسول الله ﷺ .

وهذا على بن أبى طالب كرم الله وجهه يذهب إلى تاجر ليشتري منه ثوباً فيستصحب معه غلامه وبعد أن يشتري ثوبين متمثلين يقول لغلامه : اختر أيهما شئت فياخذ الغلام أحدهما ويلبس سيدنا على الآخر منهما ..

وهكذا كان الموجه هو من يسمع له ويطاع قوله فلما مضى الزمان الذى استضاء بنور النبوة ، وأظلت راية الرسالة المباشرة من رسول الله ﷺ ، قام حملة الشريعة بالدخول فى المجتمعات وفى قممها مجالس الخلفاء يولونهم النصح ويتحملون فى سبيل ذلك كل أنواع الابتلاء ضرباً واضطهاداً وقتلاً أحياناً .

دخل يوماً مالك بن أنس وابن طاوس على أبى جعفر المنصور وبين يديه أنطاع قد بسطت وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق فأوما إليهما بالجلوس فجلسا فأطرق زمناً طويلاً ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال حدثنى عن أبيك قال : سمعت أبى يقول : قال رسول الله ﷺ : (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله فى ملكه فأدخل عليه الجور فى حكمه) فأمسك أبو جعفر ساعة يقول مالك ، فاسود ما بيننا وبينه وأمسكت ثيابى مخافة ألا ينالها شىء من دم ابن طاوس ثم قال أبو جعفر : يا ابن طاوس ناولنى هذه الدواة ، فأمسك عنه ، فقال ما يمنعك أن تناولنيها قال ، أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها ، فلما سمع ذلك قال : قوما عنى . فقال ابن طاوس : ذلك ما كنا نبغى ، قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاوس فضله منذ ذلك اليوم .

ودار الفلك وهو دائم فى سيره لا يتوقف وقسا الخليفة وخاف الموجه الإسلامى أن يغشى مجلسه ناصحاً أو موجهاً ، فغاب عن ذلك المجلس الناصح الأمين وولج إليه المناق الأثيم ، ونشأ مجلس آخر لو أحسن استغلاله فى تلك الأعصر دون مهابة ولا

وجل لأدى الرسالة وأغنى ، ولكن ماددت به الأرض وساخت قوائمه فيها وأصبح ظللا خفيفة وعادة لا عقيدة ، فالتوى الأمر وضاعت الفائدة المرجوة وانحصرت قوة الإسلام عن البيت واختفت من الشارع ، وومضت فى بعض دور التثقيف ، وأخيراً عصفت بها الريح الهوج ، فأرزت إلى الزوايا كما تآرز الحية إلى جحرها منتظرة من يتكامل الضرب والموت فى سبيلها وهو يقول (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) .

4 - يعود معذب القلب فيتساءل : أحقاً استدار الزمان وأشرف على نهاية أم أن الطريق لا زال طويلاً إلى تلك النهاية ، وهل تغيرت الأحوال ، واستنوق الجمل ، وخلأ الجو يشير إلى أن عودة الخير غير ممكنة والجواب الصراح : كلا ثم كلا فلو أنك عدت إلى قرون قبل ميلاد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام لوجدت بيدبا الفيلسوف يقول فى كتابه العظيم : (كليلة ودمنة) على لسان برزويه (إننا قد نرى الزمان مديراً بكل مكان حتى كأن أمور الصدق قد نزعت من الناس فأصبح ما كان عزيزاً فقداه مفقوداً ، وموجوداً ما كان ضائراً وجوده وكأن الخير أصبح ذابلاً والشر ناضراً ، وكأن الفهم قد زالت سبله ، وكان الحق قد ولى كبيراً وأقبل الباطل من بعده وكان اتباع الهوى وإضاعة الحكم أصبح بالحكام موكل ، وأصبح المظلوم بالحيف مقرأً والظالم بنفسه مستطيلاً ، وكان الحرص أصبح فاغراً فاه من كل جهة ، يتلقف ما قرب منه وما بعد وكان الرضا أصبح مجهولاً ، وكان الأختيار يريدون بطن الأرض نزولاً وكان الأشرار يقصدون السماء صعوداً ، فأصبحت المروءة مقدوفاً بها من أعلى شرف إلى أسفل درك ، وأصبحت الدناءة ممكنة (بتشديد الكاف المكسورة) .

وأصبح السلطان منتقلاً من أهل الفضل إلى أهل النقص ، وكان أم دفر مسرورة جذلة تقول : (قد غيبت الخيرات وأظهرت السيئات) فهذا حديث عاقل ينقد أمة عاش فيها منذ آلاف السنين ومن بعده تطورت الأمور وتبدلت من شر إلى خير ومن خير إلى شر وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً والضمان لبقاء الخير وانتشار المعروف هو ضمان الحرية الواسعة فى أسمى صورها لكل كلمة حق ولكل قائل بها ، ومعاونة مروجيها ، مع الأخذ برفق أولئك المتمردىن على الحقائق

الجاهلين بنتائج ما إليه يسعون وما فيه يعمهون ، وتبصيرهم بالحقيقة النافعة المفيدة ،  
والأخذ بيدهم إلى دار السلام فى رفق وهوادة .

وإن لله رجالا وإن لم يعرفوا عن دينه يكافحون وهم فى كل مكان بالحق قائمون  
وعلى شرعة رسوله سائرون وإن بلدًا تنمو فيه الحرية لابد وأن ينمو فيه الخير وينجاب  
عنه الظلم ، ولما كان الضغط يولد الانفجار ، واعتماد المواد المتعاكسة فى بطن  
الأرض ينتج الزلازل والبراكين وربما ثارت الطبيعة على البشر فابتلعتهم الأرض أو  
أغرقتهم بمائها ، أو أخذتهم ربح صرصر عاتية ، أقوال تضرب للعبرة ليتذكر من  
يتذكر ، وليدم على دعوة الحق القائمون بها وليقولوا فى هدوء لمخالفيهم وقاتليهم :  
(رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) .

ويكررونها مهما دميت أقدامهم أو شذخت هاماتهم أو سالت دماؤهم كل مسال ،  
وهؤلاء هم الضياء لكل ظلمة والفرج عند الكربة ، والعون لدى النوازل ، وبارقة  
الأمل التى تقتل اليأس ، والله معهم ولن يترهم أعمالهم ، وتلك شرعة الأنبياء  
والمرسلين ، ومن على دربهم سار ويهداهم اهتدى .

## منهج الحياة فى الإسلام

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي<sup>(1)</sup> فقال : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)<sup>(2)</sup> .

1 - دار إقامتنا فيها محدودة بزمن معين ، وكل لحظة تمر تقربنا خطوة نحو النهاية مجتازين طريقاً وعرة المسالك ، تحيط بها الأهوال من كل صوب ، ولا بد لعابرها من أن يأخذ حذره ، ويعد لكل بادرة ما يناسبها ، حتى لا تفجأه الحوادث فيهن أمامها ، ولا يستطيع الإفلات من مآزقها ، وقد حرص الإسلام كل الحرص على أن يبين فى جلاء ووضوح معالم العيش فى هذه الدار العاجلة ، وجرت سنته فى تعاليمه أن يفهم الإسلام أن سلامته فى سلامة غيره ، وأن أمنه وراحته فى أمن الجماعة وراحته ، وأن الطمأنينة النفسية التى هى مصدر السعادة الحقة لا تتحقق له إلا بسعيه لتمكين الغير منها ، فهو لا يعيش فرداً .

ولا يمكن أن يصل إلى أهدافه بفرديته وتطور الوجود الذى نلمسه كل يوم وهو خلاصة مجهود بشرى عبر قرون ، وعصارة عقول من وادى عبقر تضافرت وتكاتفت فكان هذا نتاجها ، وكل متأخر يرقى السلم الذى وضع أسسه المتقدم مضيئاً درجة جديدة ، ومن ونى وتقاس لفظته الأيام ، ونأت به عن مركز الصدارة ، ومضى لم يحس به أحد ، بعد أن يقطع أيامه عبثاً على غيره ، وكلا على مولاه ، يشار إليه - إن أشير - بازدراء ، فينزوى فى ظلام يلفه ، وديجور يعفى آثاره ، والمسلم الذى فقه وعرف ما هو الإسلام ، وأدرك ، لماذا أرسل خاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأحب مختاراً معقلاً أن ينضوى تحت اللواء ويسير مع الركب الإلهى لا

(1) المنكب ، بكسر الكاف مجمع العضد والكف .

(2) قال ابن حجر العسقلانى : قال الطيبى : ليست (أو) للشك بل للتخيير والإباحة ، والأحسن أن تكون بمعنى بل ، فشه السالك بالغريب الذى ليس له مسكن يؤويه ، ثم ترقى واضرب عنه إلى عابر السبيل ، لأن الغريب قد يسكن فى بلد الغربة بخلاف عابر السبيل القاصد لبلد شاسع وبينهما أودية مردية ومفاوز مهلكة وقطاع طريق ، فإن من شأنه أن لا يقيم لحظة ولا يهدأ لمحة .

يرضى بالذنية ، ولا يقبل محقرات الأمور ، ولا يستكين أمام عداته ، ولا يضعف عزمه مهما أحيط به ، فلا تخضد شوكته ولا تلين قناته ، ولا تنكس رأيته ، ما دام به عرق ينبض بالحياة ونفس يتردد معلنا أنه موجود ، فما الموت الزؤام إلا لمسة رقيقة من يد القدر تصله بالبقاء الدائم .

وترقى به إلى الخلود السرمدي ، وهو في الوقت نفسه حذر يعرف موضع قدمه ومنطلق سيره ، يقرب الأمور على جميع وجوها ، ويلبس لكل حالة لبوسها ، ويلج إلى كل ميدان بسلاحه ، فلا تسيل منه قطرة دم إلا حيث يجب أن تسيل ، ولا يترك لعدوه فرصة لينال منه ، نومه لماما ، ويقظته دفع لعجلة الحياة نحو الأفضل والأكمل ، إن طعم فلكي يعيش ويحيا ، وإن صام فلتنفيذ أمر علوي ، مكانه الصدارة في كل مسلك والقيادة في قوافل الخير ، خير الإنسانية للإنسان الذي يتابع نفس الطريق ، والإبادة للعنيد العاتي المتصدي لعداوته ، غير هباب مهما أدلهم الأمر ، وتتابع الخطوب ثقة منه بقدرة مبدعه على نصره ، وسيراً على سنن اللذين قالوا للجبار العنيد الخائب القصد : ﴿فَاقْضِ مَا آتَىٰ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾<sup>(1)</sup> .

2 - وهنا تتردد أصداً أصوات تتلاحق آتية من بعيد أو قريب صائحة وكيف الخلوص من علائق الحياة ، وهي حلوة خضرة ؟ تتجاذب هذا الإنسان الذي خلق ضعيفاً من كل جانب ، وتلوح له بشهواتها ومتعها من كل طاق وياب وتتهيب به إن هلم فتعميه وتصمه عن الحقيقة المائلة ، ويخيم بخار أنفاسهم المتصاعد على عينيه فيحجب الشمس عنهما ، ويرده إلى ليل وأحلام ورؤى ، يغرق في بحارها ليالي وأياما ، متوهماً أنه أصاب المأرب ، ووقع على الخبير وأدرك كل مطلب ، وتلك لعمر الحق شراك الهوى ، ومدرج السقوط ، وحبائل السوء ، فكيف بربك يصل إلى وسيلة النجاة وأين طريق الخلاص ؟ ولن يطول التساؤل كثيراً ، فالجواب قد أعد منذ قرون ، والخطة رسمت بعناية ، وما بقى إلا عقل يتدبر لينجو ويعمل يسعد ، بعد أن يدرك دقة التعبير وبلاغة القول ولطائف الحكمة في عبير الكلم الطيب : (كن في الدنيا كأنك غريب) .. حقاً غريب ناء عن الديار فالإقامة التي لا نهاية لها ليست هنا ، والخلود

(1) سورة طه آية 72 .

المستمر ما هذا مكانه ، فأنت دنياك (غريب) حل بلداً لهدف يقصده ، وعمل يريده ،  
وواجب يقوم به سحابة نهار ثم ينطلق مع الإمساء إلى مقره ومرده .

والغريب لا سند له إلا شجاعته وخلقه ، وحكمته وحسن تأتبه للأمور والحرص  
على جيد القول ، وكريم المعاملة وإسداء النصح والمعروف لكل من يلاقى ، والبعد  
ما استطاع عن مواطن الشكوك ، والفتن ، ولا يدخل أنفه في أمور البلد الذي حل به  
ضيئاً وأقام به ليرتحل عنه ، فسيرته محمودة ، وخيره مرجو ، وشره مأمون ، وبهذا تدوم  
له العافية ، ويلقى إكراماً ، ويقوم على الرحب والسعة ، فلا يضيق به الناس ولا  
يتذمرون من وجوده بينهم ، ولا يحاولون به شراً ، وما ذاك إلا لثقتهم هو بأن بقاءه معهم  
لن يطول فيحمله هذا على طهارة اليد واللسان ، وإن أراد الخير لنفسه زاد في  
المعروف ، والعامل لا يعبر دون أن يترك أثراً كريماً ، فيجب أن يتفحص ويدرس ،  
ويراقب ويتفقد ويكتسب الأصدقاء والخلان .

ويأخذ ما استطاع من جنى الخير وثمار الفضائل حتى إذا بارح البلد الذي حل  
به غريباً خرج منه وجعبته ملأى بالتجارب النافعة وتزود منها بالتقوى التي تحفظ عليه  
ذمائه وتعينه على الوصول إلى مستقره في أمن وعافية وسعادة وإيناس فكل ما يدخر  
محفوظ له ، وكل ما يقدم من خير سيجده عند الشدة وتجيء نهايته على أحسن حال ،  
وتحمد إقامته ورحيله .

3 - وحال أخرى تلف في طياتها معان ومعان ، وتذكر بأمر واقعة ووقعت ،  
وتدق بشدة أبواب المسلمين في كل مكان ، وتهيب بهم لم تعوا بعد أن طرقت أسماعكم  
منذ قرون وقرون ، إنى لم آت عبثاً ، ولم أسجل دون غاية ، وإنما لأمر خطير أشار  
إليه راعى الإنسانية وهاديتها أو جرت على لسانه الشريف كلمة طيبة فهل من مدكر .

(أو عابر السبيل) ألقوا عقولكم لتدركوا ما يرمى إليه سيدى رسول الله ﷺ ،  
وسائلوا أنفسكم : ماذا يجب أن يفعل عابر السبيل وأية عدة بها يعتد ، وأى سلاح  
يحمل ، وبأى زاد يتزود ، إن عبور السبيل ليس بالأمر الهين ولا سيما إذا كان  
سجهولاً لم يطرقة السالك من قبل ، لا بد إذن من تحسس كل خطوة فى هذا الطريق ،  
وفرض أسوأ الفروض التي قد تصادف السارى فيه ، فوجود قطاع الطرق محتمل ،

وعوادي الضاريات متوقعة ، والتواء السبيل وتعدد دروبه ومعمياته من طبيعته ،  
فالسالك الواعي يحمل زاده ويريش سهامه ، ويشحذ سيفه ، ويملاً كنانته ، ثم يمضى  
لطيته معتمداً على قيوم السموات والأرض بعد أن يتهيأ لملاقاة جميع الأخطار ،  
وبهذا يسير بخطى ثابتة وقلب حديد ، وإيمان أكيد بالوصول إلى غايته دون تعثر أو  
إبطاء ، فلو عرض له عدو ، أو التقى به فاتك ألقى ، أو مضى ولم يلق ماء ولا طعاماً ،  
لا يضيره كل أولئك فلديه وسائل الدفاع عن نفسه ، وما يرد به غائلة الجوع والظما ،  
وما يدحر به كل معترض ، وما يقوى به كل من أراد به سوءاً .

وهذا ما أراده الحديث الشريف حتى يقتلع حب البقاء في هذه الآجلة من قلوب  
قوم آمنوا بالله ورسوله ومع ذلك تمر أيامهم فيها في أسمى ما يتصور إنسان من القيادة  
والريادة ، فلا يعيشون أمعات ولا جبناء ، ولا يتكلمون على غير بارئهم ولا يتواكلون ،  
يعرفون مكانهم في الوجود فيتسنمونه وحماهم فيذودون عنه ، وحياضهم فيحمونها ،  
ويحيون مستعدين للنهاية الكريمة المرجوة في إيمان بنعمي دائم وخير مقيم ، ودائماً  
تشير الأحاديث إلى تقلب الأمور وعدم ثباتها ، وتحث على اقتناص الفرص وعدم  
تركها تفلت ، فهي إن أفلتت فلن تعود ، ويضرب رسول الله ﷺ الأمثال بالمحسبات  
لترقى منها إلى معان أسمى وأفضل ولا نحصرها في دائرة لفظها الذي صيغت به ، كل  
لييب بالإشارة يدرك ما ترمى إليه ، وما تهدف إلى نيله ، واستمع معنى إلى قوله عليه  
أفضل الصلاة والسلام مما جاء في حديث ابن عباس رضي اله عنهما ، مرفوعاً أخرجه  
الحاكم أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه (اغتنم خمساً قبل خمس . شبابك قبل هرمك  
وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك) .

4 - بعد أن أدركت ما استطعت مما مر بك من حديث سيدي رسول الله صلى  
الله عليه وسلم تعال معي نتأمل يوم المسلمين أتباع معلم الإنسانية وهادى الثقليين ،  
كيف تجدهم؟ هل فكروا منذ قرون في يومهم الذي يعيشونه الآن ؟

وهل تنبهوا إلى وجود عدو تقليدي معتد أئيم صاحب الإسلام منذ بدأ فجره  
ولاح نوره في الأفق محاولاً طمس معالمه وإقصاء رواه عنه ، وهل أدركوا أنه يعمل  
جاهداً على محوهم وأن قائدهم الأول لم يسترح من شر هذا العدو أبداً ، إن غفلة

الآباء والأجداد هي التي يجنى الجيل المعاصر ثمارها المرة القاتلة ، فليس ما  
يجرى على المسرح الآن وليد يومه أو أمسه القريب وإنما هو شيء خطط له منذ قرون  
متباعدة ضارية في أغوار الماضي ، ولا أدري وإن كانت الأمور جلية - كيف لم  
يحرص الآباء والأجداد على وحدتهم ، وجديتهم ، وتعاضدهم ، ويعملوا ليوم أسود  
يثب فيه العدو على الأبناء والأحفاد ، لقد استناموا إلى ما انغمسوا فيه من متع فانية  
زالت عنهم وتركوا البغاث بأرضهم يستنسر ولعل هذه الصدمات المتوالية تفتيق  
المعاصرين إلى الأخطار اللاحقة بهم ، فيحاولوا النظر في آثار قائدهم وهاديتهم  
سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخلصوا ولو على المدى البعيد من آثار  
عدوان عدوهم ، وليكن المسلمون في دنياهم غرباء وعابري سبيل لا يهتمون إلا بما  
يمكن لهم من رقاب الفجرة الكفرة رجس هذا الزمان وكل زمان .

يا قومنا أجيئوا داعي الله ، وتوحدوا ، ابدأوا العمل الجاد ودعوا الأحلام  
والرؤى فلن تدوم احزموا أمركم جماعة لئلا تؤكلوا فرادى ، واعلموا أنه ما أفاد قول  
لا يتوج بعمل ، ولا تنفع دعوة ليس وراءها سلاح وصوارم ، وأمة أمرها جميع ، وأردد  
: لا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

## قيم المجتمع الفاضل

حدث البخارى قال : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري  
أخبرني سالم بن عبد الله أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال :  
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إنما الناس كالإبل  
المائة<sup>(1)</sup> لا تكاد تجد فيها راحلة) .

(رواه الإمام مسلم<sup>(2)</sup> والإمام أحمد<sup>(3)</sup>)

1 - عرفته منذ أزمان باحثاً منقياً غائصاً على الدر فى كل لج ، متابعاً للمثل  
الكريمة فى أى منعطف وفتح يتحرى اللفظ وينتقى المعنى ، واصلاً ليله بنهاره ،  
وصباحه بإمائه ، دارساً فى عزم وجد يجرى وراء صيوده فى مظان ووجودها فيحظى  
بالكثير من تراث الآباء قائلاً : (كل الصيد فى جوف الفرا) موقناً بأن هذا التراث هو  
الذى خلدوا به وخلد بهم ، ولن يعيه إلا من سار على دريهم وسلك طريقهم ، متجافياً  
عن راحتهم مجانفا لمطالب البدن إلا بقدر ، وألتقيت به - ذات مساء - فى رحلة  
خارج البلاد ساعياً<sup>(4)</sup> وراء الدر النادر فى محيط متلاطم الأمواج من العالم الرحب  
الفسيح ، حيث ثوى على يد ثقليته من مكائمه فى غفلة من عقل أصحابه وورثته ، ولم

(1) قال الخطابي : العرب تقول للمائة من الإبل - إبل ، يقولون لفلان إبل ، أى مائة بعير ، ولفلان إبلان ،  
أى مائتان . فقوله مائة تفسير للإبل ، وقال ابن الأثير : الراحلة من الإبل البعير القوي على الأحمال  
والأسفار والذكر والأنثى فيه سواء ، وهى التى يختارها الرجل لمركبه ورحله على النجاسة تمام  
الخلق (بسكون اللام) وحسن المنظر ، فإن كانت فى جماعة من الإبل عرفت ، وقال القرطبي : الذى  
يناسب التمثيل أن الرجل الجواد الذى يحمل أفعال الناس والحملات عنهم ويكشف كربهم عزيز  
الوجود ، كالراحلة فى الإبل الكثيرة ، وقال ابن بطال : معنى الحديث أن الناس كثير والمرضى (يضم  
الميم وفتحها) منهم قليل .

(2) فى رواية الإمام مسلم عن طريق معمر عن الزهري (تجدون كابل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة) .

(3) وفى رواية الإمام أحمد عن سالم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما الناس  
كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة) رواه الترمذى وابن ماجه بلفظ مقارب .

(4) فى باريس فى رحلة علمية بحثت دامت سبع سنوات بين الدفاتر والأضابير من تراثنا الخالد القابع  
هناك بعضه فوق الأرض ، وثمينه فى أقبية محروسة بعناية .

تقعده به سن تقدمت ، ولا سنون بدا أثرها فى شعر أبيض ، وعظم قد وهن ، وتجاذبنا أطراف الحديث ، والحديث ذو شجن ، بدأتها مداعباً وكنت أعلم من أمره أنه حليف فلسفة وصنو حكمة ، ومد من صداقة الأقدمين من بناء الإنسانية الفاقهة .

قلت سيدى .. هل وصل إلى علمك أن (ديوجين) عثر على ضالته قبل أن يلقى عصا سيره ويرقد بين الصفائح والجنادل ؟ أم أن البحث أعياه وعجل به إلى مثواه أسفا حزينا كاسف البال مقطوع الرجاء خائب الأمل ؟ فأجاب صاحبى هون عليك ، ولا تلق بالآ لمن ذهب ، ومصباحه أحاديث فى الغابرين بعد فلسفة تبدو للبعض عرجاء ولغير مدركها بلهاء ، وعرج مسرعا على الوادى الخصيب ، حيث الجنى الطيب والتمر الشهى فهناك مصدر الخير الخالص ، ومشرق النور الساطع ، ومورد العلوم الهادفة ، وينابيع الحكمة الصافية ، والتي علت فى مصدرها حتى ما تطاول ، وسمقت فلا تدرك قننها ودنت قطوفها وتدلت ، فكانت قاب قوسين أو أدنى من راغبيه وقصاها ، وذهبت مثلا فريدا فى بابها ، باب التوجيه الإنسانى الحق إلى الأهداف السامية التى ترضب إليها آباط الإبل ، وتشد إلى رحابها الرحال ، وتطهم الجياد ، حيث الهدى سيدى رسول الله ﷺ ، واستمع إليه بقلب واع ، وألق السمع وأنت شهيد تجمع أطراف الفضائل وتصل إلى قوام الحياة الحرة العزيزة المشيدة على أسس ثابتة من بناء مجتمع متماسك ، من كل جوانبه عياف النقص ، ساع فى سبيل الكمال ، وإن ندر فى غيره الرجال ، فقد حوى هو وسيلة للسيادة والريادة المسعدة فى العاجلة والآجلة .

2 - يحذر سيدى رسول الله ﷺ من الاندفاع وراء المظهر قبل ابتلاء المخبر ، فالنظرة العابرة تريك فى سوق الإبل أنواعاً وجمالاً ذات جمال ، ولدى الفحص تخرج من الإبل بواحدة تصلح راحلة إن وفقت ، وقد لا تجدها إن تسرعت .

ولذا رسم للمجتمع القاضل خطوطه وأوضح معالمه وحض على انتهاجها فى حزم وعزم وثبات ودؤوب ، فقال عليه الصلاة والسلام : (من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته وظهرت عدالته ، ووجبت محبته) .

فمن صفات العائش فى حمى الإسلام حبه لغيره من البشر ، والمسارة إلى معونة من استعان به ، وكف أذاه عن قومه والإحسان إلى من أساء إليه فوصل من قطعه ،

وأعطى من حرمه ، وصفح عن ظلمه ، ولم يقف موقف الخصومة أبداً من عشرائه وإخوانه ، وجعل أساس تعاطفه مع الآخرين الحب في الله والبغض فيه ، فقد روى البخارى عن أنس قول رسول الله ﷺ : (اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى غير أهله ، فإن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله) وروى الديلمى : (إن الله يحب إغاثة اللهفان) .

وروى ابن عساكر عن أبي هريرة (أن الله يحب المداومة على الإخاء القديم فداوموا عليه) وروى مسلم عن قتادة والبخارى عن أنس : (من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين مغفرة ، واحدة فيها صلاح أمره كله ، واثنان وسبعون له درجات يوم القيامة) .

ويقول الله تبارك وتعالى ، ومن أصدق من الله قيلاً : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْعُدْوَانِ﴾<sup>(1)</sup> ، ومن جميل ما يروى ما جاء عن البيهقي أنه قال : (شتم رجل ابن عباس رضى الله عنهما فأجابه أتسبني وفى ثلاث خصال ؟ إنى لأسمع بالحاكم يعدل فى رعيته فأحبه ولعلى لا أقاضى إليه أبداً ، وإنى لأسمع بالغيث يصيب بلداً فأفرح وما لى به فيه سائمة ولا راعية ، وإنى لأتى على آية من كتاب الله فأود أن المسلمين كلهم يعلمون منها مثل ما أعلم) .

ولعل أبا العلاء فطن إلى معنى ما قصد إليه ابن عباس فأنشد شعراً :

ولو أنى حبيبت الخلد فرداً      لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت على ولا بأرضى      سحائب ليس تنتظم البلادا

3 - يعنى الإسلام بالمجتمع كثيراً ، كى يقوى ويشتد وتنمو روابطه الكريمة ، ويكثر فيه الرجال الصالحون والنساء الصالحات ، فإذا به يثمر رواحل عديدة فيزيد خيره وتتضائل شروره ، وتتلاشى فيه الأناية والأثرة وحتى يصل إلى هذا الهدف ، يولى الأسرة اهتماماً عظيماً فينظر إلى عمدها المتمثلة فى الرجل والمرأة معاً ، فصار للمنزل المقام الأول ، لأنه أساس لنظام المجتمع كله .

(1) الآية الثانية من سورة المائدة .

فالمقر الأول للذرية والأولاد بنين وبنات ، هو المكان الذى استنشقوا لأول وجودهم فى هذه الحياة هواءه ، فإذا زكت بهم التربة الأولى طابت ثمارهم وحلا جناهم ، ولما كان الرجل هو الذى يبحث عن شريكة حياته ، وجهه الإسلام إلى القرينة القويمة الخلق ، العارفة بربها ، المؤمنة بأسرتها البعيدة عن مظان الشبه ومصادر الزلل .

فقد روى عن ابن عدى عن أنس مرفوعاً قول رسول الله ﷺ : (تزوجوا فى الحجر الصالح فإن العرق دساس) وحث على مداومة الإحسان إلى الزوجة والأولاد وتعهدهم بما يديم استقامتهم ، ويمضى بهم فى مدارج الكمال ، روى البخارى قول سيدى رسول الله ﷺ : (ارجموا إلى أهليكم فكونوا فيهم ، وعلموهم وبروهم) وروى ابن عساكر عن على كرم الله وجهه ، أن رسول الله ﷺ قال : (خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى) ويستفاد عن تتبع الأحاديث الشريفة فى هذا المجال أن البيت العامر بالذرية خيراً وأجدى على الإنسانية من بيت خلا منها ، ومما جاء فى هذا الباب من رواه ابن حبان قال : قال رسول الله ﷺ : (بيت لا صبيان فيه ولا بركة فيه) .

وروى الترمذى : (الولد من ربحان الجنة) وواضح أن صقال الرجال والنساء لا يكون إلا الأسرة القويخمة السلوك التى يسهر فيها الوالدان على الاهتمام بأولادها إعطائها صورة السلوك الصالح من سلوكها عملياً ، فالنموذج العلمى له تأثيره السحرى فى الناشئة خصوصاً والصغار يقلدون الكبار فى كل ما تقع عليه أعينهم منهم ، ففى الحديث الذى رواه البخارى : (أكرموا أولادكم وأحسنوا آدابهم فإن أولادكم هدية إليكم) .

ومعلوم أن التفريط فى الهدية كفران لحق من أهداها ، وباعت على غضبه وسخطه ، وجعل رسول الله ﷺ للمرأة الراعية لأولادها المنزلة الكريمة يوم القيامة فضلاً عن الحياة السعيدة فى الدنيا ، فقال : (أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهى معى فى الجنة) .

وحث عليه السلاة والسلام على العدل بين الأولاد فى كل شيء ، ففى الحديث الذى رواه الطبرانى يقول ﷺ : (ساووا بين أولادكم فى العطية ، فلو كنت مفضلاً أحداً لفضلت النساء) معارضاً بذلك موقف بعض الجاهلين من البنات وكرههم لهن ، وفى مسند أحمد وصحيح والطبرانى قوله عليه السلام : (لا تكرهوا البنات فإنهن

المؤمنات الغاليات) وكره رسول الله ﷺ فعل من لا يعطف على أولاده ، ففى مسند أحمد أن الأقرع بن حابس رأى رسول الله ﷺ يقبل الحسن فقال له : إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ، فقال رسول الله ﷺ : (من لا يرحم لا يُرحم) .

4 - وينتقل الإسلام بتوجيهاته الكريمة من الأسرة إلى المجتمع العام حاثا على ترابطه محذرا من الفرقة والانقسام فيقول ﷺ : (الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب) رواه عبد الله بن أحمد وفى الطبرانى من فرق (بتشديد الراء) فليس منا ، وروى الترمذى : (يد الله على الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) وفى البخارى (لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا) وعن أبى ذر الغفارى فيما رواه أحمد (اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة ، فعليكم الجماعة ، فإن الله لن يجمع أمتى إلا على هدى) .

ومما يزرع المحبة ويمكن لها من الجماعة هو التراحم والتواد ، وبذل المعروف لكل من عرفت ومن لم تعرف والإحسان فى المقال والأعمال ، وأحق ما يورد فى هذا الموضوع للاقتداء والتأسى ما كان عليه سيدى رسول الله ﷺ من خلق كريم استحق ثناء الله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ووصفه ربه فقال : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(1)</sup> وحض عليه السلام على الرحمة حضا عاما فقال : (الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) رواه البخارى .

ورى أن الإمام الشعبى ألقى السلام على وثنى قائلا : (السلام عليكم ورحمة الله) فقيل له : أتدعوا له بالرحمة والرحمة استغفار ؟ فأجاب أليس فى رحمة الله يعيش ؟ وهذا ضرب من الإحسان إلى الناس جميعاً وبه تسود المحبة بينهم .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

والقول فى هذا يطول وقد عمرت به مجتمعات اتخذته سنناً وطريقة فسادت وتطورت إلى الأفضل دائماً وغفلت عنه أخرى فهوت وتمزقت أيدى سبا ، وصارت أثرا بعد عين ، وجرت مثلا سيئاً فى الغابرين .

(1) الآية 128 من سورة التوبة.

5 - والخلاصة أننا لا نجد مصدراً ولا مورداً لكل صور الإنسانية الفاضلة استوعب جميع مقوماتها الخيرة كهدى رسول الله ﷺ .

وفي الحديث موضوع البحث يحذر من الاندفاع وراء المظاهر الخلابه ويحث على حسن الاختيار والتروى والأناة فى اصطفاء العشاء ، ووزنهم بالموازن الصادقة التى رسمها رب العالمين وأوحاها إلى المصطفين الأخيار ، فالظواهر قد تخدع ، وكثيراً ما أوقعت فى مشكلات كان لها الأثر السيئ فى حياة المجتمعات ، والتجارب هى مفاتيح القلوب ، وطول الاختبار قد يبين عن خبىء لا يدرك لأول وهلة والناس كالإبل المائة والراحلة بينهما قليل ، ولا استقامة لأمرهم إلا بالساعى الحثيث إلى اقتفاء آثار المبشرين والمنذرين من صفوة خلق الله ، أولئك هم رسله وأنبيأؤه وعلى قمتهم وفى مقدمتهم خاتمهم سيدى رسول الله سيدنا محمد ﷺ ، فاللهم وفقنا لانتهاج طريقه واتباع سبيله ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

## السبع الموبقات

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اجتنبوا السبع الموبقات) قالوا يا رسول الله وما هن ؟ قال : (الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات) .

(متفق عليه)

منذ عدة قرون لاح ضوء الدعوة الإسلامية ، وأخذ يرسل خيوطه النيرة توقظ سكان (بكة) ليأخذوا أهبتهم لعمل جاء يتعدى حاجات البطن ، وإرضاء ما يقاربهها من شهوات ، وما يقوى غرائز حيوانية أصيلة ، تنمو فتهلك حين تشور ، ولا ترضى العقل حتى حين تهدأ ، تحكم أشباحاً تغدو وتروح سحابة صيف ثم تمضى دون أثر يدل عليها ، أو يشير إلى وجودها ، وشاء الله أن يجتمع المتفرقون ، وأن يلتقوا فى ظل عقيدة تقيهم حمارة الشقاق وصبارة النفار وتملاً ما بين جوانحهم تراحمًا ، وتعاطفًا فيما بينهم وشدة وعزة على أعدائهم ، وما أعداؤهم إلى جاهل بما تشتمل عليه حقائق الدعوة من سلم وأمن ورفعة وحرية وقوة وسيادة ، ومعرفة إلهية إنسانية حافلة بالعلم والدراية ، ومن عادى تلك الفضائل فهو عدو نفسه التى بين جنبيه ويريدها أن تقيم على ضعة وضعف ، وجهل وبهيمية شنعاء .

جاهر المصطفى بما أمر أن يبلغه لعشيرته الأقربين ثم الأبعدين ثم الناس كافة ، وزال الكابوس عن الديار التى بوركت وفتحت عيونها على مثل إنسانية تسنمت غارب المسئوليات الجسام فى حرب وسلم ، وجال البدوى فى الجزيرة وصال وفى يمينه هدى الله متمثلاً فى قرآنه ، ونور إيمانه يسعى بين يديه ، وتعددت الشعلات وأرز (1) إلى ساحتها حداة الإبل ، ومن تسامع إلى حدائهم وكانت دولة ولها الأصول والأسس التى تضمن سيادتها وتحفظ بقاءها ، وتعددت تلك المبادئ والقواعد ، لتشمل كل

(1) أرز : تجمع وثبت والمراد تجمع بعضهم إلى بعض .

جانب من جوانب الحياة تقوم المعوج المستقيم وتنشر الحب والخير ، وتولى المصطفى التعليم بنفسه ، والشرح والإيضاح والتطبيق لا ينازعه في ذلك منازع ، فهو مبلغ ، وهو قدوة في العمل ، ولأتباعه أسوة حسنة فيه لأنهم يرجون الله واليوم الآخر .

وكان صلى الله عليه وسلم يقتلع جذور المفسدات قبل ان تنمو ، يدل على بذورها لتباد قبل أن تنبت ، فيظل لجو الجماعة صفاؤه ونقاوته من أغيار نشاز ، وبعده أن أنفاس حقد محرقة ، ولما كان لا ينطق عن هوى ، وإنما يصدر ويورد عن وحى يوحى ، كان العليم بالسر وأخفى ، والبارئ للجسد والروح يوحى إليه عليه الصلاة والسلام الخطط التي لا تحتاج إذا طبقت واقعياً إلى برهان ، على نجاحها وكفاءتها وكفايتها لإنشاء مجتمع متكافل وواع متماسك من كل طرف .

ونظرة في الحديث الشريف موضوع البحث ، ترى المتأمل الواعى مدى ضرر المهلكات التي أشار إليها لو بقيت ، ومقدار النضوج العقلى والفكرى الذى يقوم برهانا عليه حال مجتمع خلا منها ، وتكشف النقاب عن ضرورها وبالتالي توضح الأثر الطيب المترتب على اختفائها ، وما نحن أولا نعرض لها الواحدة تلو الأخرى .

1- الشرك بالله : وهو رأس الموبقات وأول المهلكات ، فهو الظلم العظيم الذى نهى عنه لقمان ابنه فيما حكاه القرآن الكريم حيث قال : ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(1)</sup> ، وهو كفر لا يغتفر فالمشرك لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(2)</sup> والتوحيد هو أول ما طالب به الله عباده على لسان جميع أنبيائه ورسله يقول ﷺ : (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله) .

وقد حطم رسول الله ﷺ الأصنام يوم فتح مكة وكان هذا آخر العهد بها فى جزيرة العرب ، ومن خلا قلبه من الشرك فقد استحق رضوان الله ، والدخول فى رحمته ، ولو عصى بعد ذلك فلك معصية توبة ، ومآل الموحدين جميعا الجنة كما نص عليه قول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى وهو متفق عليه .

(1) الآية 13 من سورة لقمان .

(2) الآية 116 من سورة النساء .

عن أبي ذر قال أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم ، ثم أتيته وقد استيقظ فقال : ( ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة ) قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ، فقال : وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبي ذر ) وكان أبو ذر إذا حدث بهذا قال : وإن رغم أنف أبي ذر .

2- السحر : وهو لغة : كل ما لطف مأخذه وخفى سببه ، وسحره أى خده وجاء فى كلام العرب عين ساحرة عيون سواحر وفى الحديث الشريف (إن من البيان لسحراً) وهو إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة وعلم خفى ، يعرفه بعض الناس ويجهله الكثيرون ، ومن هنا يسمون العمل به سحراً لخفاء سببه .

وقد ورد ذكر السحر فى القرآن الكريم كثيراً وخاصة فى قصص موسى وفرعون ، ووصفه القرآن بأنه خداع وتخيل للأعين حتى ترى ما ليس بكائن كائنا قال تعالى : ﴿يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَهَّا تَسْمَعِي﴾<sup>(1)</sup> وقال جل شأنه : ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْتَرَهُبُهُمْ﴾<sup>(2)</sup> وفى آية من سورة البقرة نص صريح على أن السحر كان يعلم ويلقن ، قال تعالى : ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيَّ الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾<sup>(3)</sup> .

ومهما يكن من أمر السحر فهو حرام لأنه تدجيل وتخيل وقد يكون تأثيره من باب الإيحاء والتأثير فى الحواس والأفكار بأقوال وأفعال تبليبل العقل ولا تتركز على حقيقة ثابتة ، وفى القيام به ضياع للوقت وإفساد للعلاقات بين الناس ، والإسلام عد السحر كفراً فقال تعالى فى آية من سورة البقرة : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾<sup>(4)</sup> .

روى أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال : فإذا أتاهما الآتى يريد تعلم السحر نهياه أشد النهى وقال له : إنما نحن فتنة فلا

(1) الآية 66 من سورة طه .

(2) الآية 116 من سورة الأعراف .

(3) الآية 102 من سورة البقرة .

(4) الآية 102 من سورة البقرة .

تكفر وذلك لأنهما علما أن السحر من الكفر ، وقال ابن جريح ، لا يجترئ على السحر إلا كافر .

وروى الحافظ أبو بكر البزاز قال : (من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول كفر بما أنزل على محمد ﷺ) وإسناده صحيح ، والنهي عن السحر دعوة إلى الجسد والعمل النافع والاشتغال بما يفيد وترك كل ما يضر المجتمع وما يؤدي العباد ، وما يسبب الشقاق والفرقة ويورث نار العداوة بينهم من الوسوسة والشعوذة والخنس .

﴿قُلْ أَغْوَدُ بِرَبِّ النَّاسِ<sup>(1)</sup> مَلِكِ النَّاسِ<sup>(2)</sup> إِلَهِ النَّاسِ<sup>(3)</sup> مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ<sup>(4)</sup> الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ<sup>(5)</sup> مِنَ الْغَيْبِ وَالنَّاسِ<sup>(6)</sup>﴾ فقد أمرنا الله أن نلجأ إليه كي ينجينا من شرور شياطين الإنس والجن الموسوسين المختفين الذين يلقون إلينا بشرورهم وإيحاءاتهم المشككة المفسدة ، وما السحر إلا نوع من الوسوسة المهلكة ، فليتجه المسلمون إلى ما يجدى وينهض بهم ، وليبتعدوا عن الترهات والخيالات الضارة ، وتلقم العلاقات والصلات بينهم على أسس خيرة واضحة بعيدة عن الالتواء والخرافة .

3 - وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق : معلوم من أصول الشريعة السمحاء أن دم المسلم لا تحل إراقته إلا بواحد من ثلاثة أمور : كفر بعد إيمان ، وزنى بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق ، والآية الكريمة من سورة النساء رقم (93) توعدهم القاتل المتعمد بغضب الله ولعنته ، والعذاب الطويل فى نار جهنم . قال تعالى : ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ .

وأخرج أحمد والنسائي عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل ذنب عسى الله أن يغفر إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً) .

وأخرج البيهقي عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من أغان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة آيس من رحمة الله) .

وروى عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال : (لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ولو أن أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله

تعالى النار) ولهذا كله كان الإقدام على قتل النفس التي حرم الله بغير حق جرماً شنيعاً وعملاً مغضباً لله ولرسوله وجزاء فاعله الخلود في نار ، ومجتمع لا يأمن فيه الإنسان على نفسه لا يستقر أمره ولا تقوم له قائمة ولا يمكن أن يكون مجتمعاً فاضلاً بحال ، فأول أركان المجتمعات الفاضلة أمن الناس على أرواحهم وأموالهم ووجود الحرية الكاملة في القول والعمل في حدود الشريعة وتعاليمها .

4 - وأكل الربا ، والربا مما أجمعت الأديان السماوية على تحريمه ، ودواعي تحريمه كثيرة فهو عائق عن الاشتغال بما ينفع الناس ، فرب المال إذا تمكن بالربا من إنماء ماله تسهل لديه أسباب العيش فيألف الكسل والبطالة ، وتزيد شراسته في الاستيلاء على أموال الناس بغير حق فلا يرحم فقيراً ولا يشفق على بائس ، والربا يؤدي إلى انتشار العداوة والمشاحنات والخصومات بين الناس وينمى المشاكل الاجتماعية ، والطريق الشرعي المستقيم للتعامل بين الناس هو ما يؤدي إلى استفادة كل منهم ، من الآخر في نظير عوض ، لكن الربا أخذ مال بلا عوض وهو نوع من الظلم الذي حرمه الله إذ هو استيلاء على المال بغير طريق مشروع ، ورسول الله ﷺ يقول : (حرمة مال الإنسان كحرمة دمه) وزد على ذلك أن عاقبته الخراب والدمار .

روى أحمد وابن ماجه عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : (إن الربا وإن كثر فعاقبته قل) (بضم القاف وتشديد اللام) وقال تعالى : ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرَّبَا وَيُرِيهِ الصُّدَقَاتِ﴾<sup>(1)</sup> وقال عز شأنه : ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيُرْتَبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يُرْتَبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ﴾<sup>(2)</sup> وقد تناول القرآن الكريم حديث الربا في أربعة مواضع ، جاء في المرحلة الرابعة منها التحريم الحاسم لكل ما يزيد على رأس المال الدائن .

وقال ابن عباس رضی الله عنهما أن الطور الرابع من النص القرآن على تحريم الربا كان ختاماً لكل تشريع قرآني وتحقق ذلك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

(1) الآية 276 من سورة البقرة .

(2) الآية 39 من سورة الروم .

أَقْرُوا اللَّهَ وَذَرُّوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الآيات 278 ، 279 ، 280 ، 281 من سورة البقرة<sup>(1)</sup> فأولى بالمسلمين أن يبحثوا عن مصادر تنمية أموالهم تحت ظلال تعاليم الشريعة الشريفة ، ليكون اقتصادهم متميزاً بطابعه الخاص الذى لا التواء فيه ، ولا بغى ، ولا استغلال بغير حق ، وهم واجدون للطريقة المثلى لو أرادوا ، ولكن انسياقهم وراء التقليد دون وعى ، وتقصير المليئين منهم فى تطبيق الأحكام الشرعية هو سبب كل انحراف عن الجادة المستقيمة وهو الذى أوقعهم فى براثن المرايين منهم ومن أمم أخرى تستغل أموالهم فيما ينفعها وهم يرضون بالقليل ويقفون متفرجين يتشاءون كسلا ويعوون ضعفاً .

5 - وأكل مال اليتيم : قد أوضحت الآياتان الثانية والسادسة من سورة النساء الموقف السليم من أموال اليتامى قال تعالى : ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَأَتْلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ .

وروى أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلا سأل النبي ﷺ قال : ليس لى مال وأنى ولى يتيم : فقال : (كل من مال يتيمك غير مسرف ولا متأمل مالا ومن غير أن تقى مالك بماله) والواجب شرعاً أن يعرى الوصى مال اليتيم ولا يبيح لنفسه شيئاً منه عند الضرورة القصوى ، فالإجماع على أن مال اليتيم ليس مالا للوصى فليس له أن يأكل منه شيئاً إلا بحق شرعى وضحته الآية الكريمة ، وفى ذلك إبقاء على صلوات المودة بين الناس ، وكما تدين تدان قال تعالى : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (2) .

6 - والتولى يوم الزحف : قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

أفضل ما قرأت فى هذا الموضوع ما جاء فى محاضرة ألقاها المرحوم الدكتور محمد عبد الله

دراز فى مؤتمر القانون الإسلامى فى شهر يوليو سنة 1951 رحمه الله رحمة واسعة .

(2) سورة النساء الآية 9 .

زَحْفًا فَلَا تُؤَلُّوهُمْ الْأَدْبَارَ<sup>(15)</sup> وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَى فِتْنَةٍ  
فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ<sup>(16)</sup> ﴿ (1) .

وقال الإمام الشافعي رضى الله عنه فى شرح هذا النص القرآن الكريم إذا غزا المسلمين حرم عليهم أن يولوا الأدبار إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة والمؤمن أولى بالصبر فى القتال ، فالصبر من أكبر عوامل النصر والمفروض أن المؤمن أقل حرصاً على متاع الدنيا وأعظم رجاء فى ثواب الآخرة يقول العزيز الحكيم : ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾<sup>(2)</sup> وحرم الله التولى يوم الزحف لأن فيه إضعافاً لصفوف المجاهدين ، وتثبيطاً لعزائم المقاتلين ، وبالتالي صد عن سبيل الله ، وتقوية للعدو وتشجيع على الغلبة والسيطرة على بلاد المسلمين وكفى بذلك إثماً مبيئاً .

7 - وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات : نهى القرآن الكريم عن رمى المحصنات بالزنى وشدد فى عقوبته فى الدنيا والآخرة ، فجعل عقوبته فى الدنيا الجلد (بفتح الجيم المنقوطة من تحت وسكون اللام) (وألا تقبل ممن أقدم على ذلك شهادة أبداً ، وجعله ساقط الاعتبار فى نظر المجتمع لا تسمعه كلمة ، وأما عقوبته فى الآخرة فى العذاب الأليم قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾<sup>(3)</sup> .

فسماه القرآن الكريم فاسقاً أى خارجاً عن طاعة ربه فقد ارتكب كبيرة باتهامه للمحصنات المؤمنات الغافلات كذباً وبهتاً ، وحذر الشارع من ذلك منعاً لانتشار الفوضى بين المسلمين ، وقتلاً للنفوس الخبيثة التى تحب إثارة السوء كما تتغذى لفسادها بالقييل والقال ، غير ناظرة إلى رابطة دم أو لحمة أو دين ، ويطلب إلى المسلم أن يكون عفا غفارا متسامحاً بعيداً عما يريب ، متجافياً عن ظلم الناس بقول أو بفعل وشدد سبحانه النكير على الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى المسلمين ، فقال سبحانه :

(1) سورة الأنفال آية 15 - 16 .

(2) سورة النساء الآية 104 .

(3) سورة النور آية 4 .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ  
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(1)</sup> .

وفى الصحيح من حديث رسول الله ﷺ قوله (المسلم من سلم المسلمون من لسانه  
ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) .

والواجب على المسلم ذى المروءة والخلق أن يتأذى بنفسه عما يؤذى الناس فى  
أعراضهم وأنفسهم وأموالهم ، ولمثل فاعل هذا أجر عظيم ، ومثوبة ومغفرة من الله ،  
قال رسول الله ﷺ : (لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن إلا ستره الله يوم القيامة ،  
ومن أقال عثرة مسلم أقال الله عثرته يوم القيامة) .

### الخلاصة :

إن المتتبع للمعاني الكريمة الواردة فى حديث رسول الله ﷺ يجدها تهدف دائماً  
إلى إقامة مجتمع مثالى تتحقق فيه كل الفضائل وتستل من النفوس السخائم ، وتجتمع  
فيه كلمة المسلمين على الخير لأنفسهم فيقوون ويشتد ساعدتهم ويصبحون يدا واحدة  
على من ناوأهم وآذاهم ، وأن الأمل فى فضل الله ورحمته لا ينقطع ، فلعل الله أن  
يهدى الضال ويرشد الحائر ويعين المسلمين على أنفسهم ليتخلصوا مما هم فيه من  
عبودية لها ، حتى يمضوا قدما للنضال الشريف فى ميدان الحياة ويدركا مكانهم  
الأسمى الذى يريده الله لهم فيقودوا الدنيا إلى الرشاد لكن بعد أن يطبقوا أحكام  
الله فيما بينهم وأن يكونوا فى سلوكهم حقائق إسلامية تتحرك على الأرض وما توفيقى  
إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

(1) سورة النور الآية 19 .

## شباب من الأنصار

(كان شباب من الأنصار ، سبعين رجلا ، يقال لهم القراء ، قال : كانوا يسكنون فى المسجد فإذا أمسوا انتحوا ناحية من المدينة فيتدارسون ويصلون ، يحب أهلهم أنهم فى المسجد ، ويحب أهل المسجد أنهم فى أهلهم ، حتى إذا كانوا فى وجه الصبح استعذبوا من الماء واحتطبوا من الحطب فجاءوا به فاسندوه إلى حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثهم النبي صلى الله عليه وسلم جميعا فأصيبوا يوم بئر معونة ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم على قتلتهم خمسة عشر يوما فى صلاة الغداة) .

(مسند الإمام أحمد)

1 - الشباب الفتاء والحداثة ، وهذا شوب لهذا ، أى يزيد فى حسنه وروائه ، وفى الحديث عن مطرف أن النبي ﷺ انتثر ببرة سوداء فجعل سوادها يشب بياضه ، وبياضه يشب سوادها ، أى يحسنه ويوقده ، والرجل مشوب إذا كان أبيض الوجه أسود الشعر ، وأصله من شب النار إذا أوقدها فتلاأ ضياء ونورا<sup>(1)</sup> .

ورد فى فقه اللغة : ما دام الرجل بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ، والأمرد الشاب الذى طر شاربه ولما تبدو لحيته ، والمحمم الشاب إذا أسود شعر وجهه وأخذ بعضه ببعض ، والمشارى ، إذا بلغ الأربعين<sup>(2)</sup> .

ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد تلك الأسطورة التى يتوارثها الأحباش ويتداولونها فيما بينهم ، تحكى تلك الأسطورة : إنه فى يوما ، التقى ضبع وابن آوى فى غابة موحشة ، ملتفة الأشجار ، ضيقة المسارب متعرجة المسالك ، قيص الضبع على ابن آوى بيد باطشة ، وقال له : إما أن تحضر لى ماء ، وإما أن تهيب لى مكانا

(1) لسان العرب ج 4 ص 482 طبعة صادر بيروت سنة 1955 م .

(2) فقه اللغة للشعالبي ص 142 طبع بالمطبع التجارية بالقاهرة سنة 1959 م .

أستريح فيه .. فأجاب ابن أوى وهو يرتعد فزعاً : لو كنت رجلاً لما جرأت على معاهلتى بهذا الشكل السيئ ، فسأله الضبع : ماذا تعنى ؟ من هو الرجل ؟ فرد محيياً إذا أردت معرفته فتعال معى أدلك عليه .. وبيتما هما سائران مرا على شيخ قد أحتت السنون ظهره ، وألجأته إلى عصا عجرا ، فسأل الضبع أهذا هو الرجل ؟ فقال ابن أوى : لا هذا كان رجلاً ، وانطلقا فى سيرهما حتى إذا لقا صبياً سأل الضبع : هذا هو الرجل الذى تعنى ، وأجاب ابن أوى : لا هذا سيصير رجلاً .

وتابعا سيرهما باحثين عن رجل ، فواجهما شابا قويا مفتول العضل ، ثابت الخطى ، قد أمسك بإحدى يديه غدارة تفوح منها رائحة البارود ، وبالأخرى صيدا يتنزى دما ، شده الضبع وتوقف كأنما قد أمسكت بقدميه قيود من حديد ، ثم صاح : لئن صدق حدسى فهذا هو الرجل الذى تعنى ، وما راعه إلا قذيفة تنطلق من يد الشاب لتخترق أذنه ، وقال ابن آى : نعم هذا هو الرجل حقاً .. فإن كنت شجاعا فاقبض عليه ، طأطأ الضبع رأسه ، وغطت سحابة من الدم القانى عنقه فلم يحجر جواباً وأطلق ساقيه للريح .

فالشاب إذاً ، هو الفتى المكتمل الرجولة ، والشابة هى الفتاة التامة الأنوثة فى عقل متزن وفكر رائد ، وسلوك قيم ، وخلق آسر ، وقوة قوية ، وإدراك دقيق لمداخل الأمور ومخارجها ، ومعرفة تستشف الواقع من مصادرها مواردتها مع غوص على دقائق الوجود ، ودخائله واستنكاه خصائص كل ما يحيط به فى المجتمع المخلص بالدولة التى يدرج على أرضها ، وفى المجتمع العالمى الذى يلف المعمورة ، فقد وسع العلم دائرة التعارف وقرب المسافات مع إدراك ثاقب يصل إلى اللباب النافع الطيب الثمر ، ليستفيد منه ، والمر الجنى ليطرح ويترك .

2 - والشباب هم الأمل المرجو فى حياة الشعوب للنهوض بها والسير قدما مع ركب الحضارات الزاحف ، وهم البسمة المشرقة ترسم على ثغر الدولة الموقفة لاحسان تنشئة شبابهما وتوجيههم التوجيه الصالح القيم ، إذ هم عدة جهادها فى الشدة والبأس وحصنها المنيع ضد التيارات التى تحاول جرف فضائلها ، وتسعى جاهدة للقضاء على مقوماتها ، وسيفها البتار القاطع لكل نقيصة ومثلمة ، هم أساتها

إذا أئختتها الجراح وعدت عليها الأيام .

فالشيخ الذى طعن فى السن ، قد طوح به الزمان بعيداً عن الحياة المعاصرة  
وامتزج فكره بالحوادث التى لازمت مراحل نموه ، وجال فى منعطفاتها وصال ،  
فخالطت جواؤها شغاف قلبه ، وتفاعل حبها أو بغضها مع دمه فلم تعد بدائه الأحداث ،  
مستطيمة لى عنانه ، أو كبح جماحه عن مسلكه وكلما دعى إلى جديد عافته نفسه ،  
واجتوته جبلته ولسان حاله يقول : لن نتحول عما وجدنا عليه آباءنا ، ولن نترك ما  
ورثنا ولو كان ميراثه الموت الزوواء فى صورة حياة باهتة حقيرة ، فمنطلق أولئك  
الموتى الأحياء : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾<sup>(1)</sup> .

وقد يتلمس لهم العذر بادئ ذى بدء ، إذ كيف يتجافون عما أصبحهم ومساهم  
دهراً طويلاً ، وما وقعت عليه أبصارهم وطرق أسماعهم ، وتردد هواؤه فى صدورهم فى  
الصبح المسفر والليل البهيم .

والشيخ لا يترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

ومع هذا فلا نبخس الناس أشياءهم ، فمن الشيوخ من شد ونبا ، قد صقلته  
التجارب وعركته الحياة فظل فتى الروح وإن وهن عظمه واشتعل رأسه شيئاً ، ومن  
أولئك القادرة المصلحين الذين يتجهون إلى الشباب يوجهونهم إلى الطريق المستقيم ،  
ويتخطون بهم عثرات فى فلوات مروا هم بها ، ويزودونهم بخلاصة تجاربهم وزيد  
حكمتهم ويبتعدون بهم عن مواطن الزلل ، لتستقيم حياتهم ، ويصبحون أكفاء قادرين  
على تحمل تبعاتهم كاملة ، ولا يحاولون التنصل من واجباتهم نحو بارئهم ، وأوطانهم .

وإن من أدبته فى الصبا كالعود يسقى الماء فى غرسه

حتى تراه مورقاً أخضراً بعد الذى أبصرت من يبسه

3 - والشباب تجرى به الحياة كما يجرى نبع الماء فى مسالكة من الأرض ليكون  
نهرًا أو غديراً أو سيلاً عارماً ، يصادف فى سيره الحسك والسعدان فى المنبسطة ،  
ويتعارك مع الصخور والجنادل فى الوعر ، يميل يمينا وشمالا ويرتفع وينحدر ، ولكن

(1) سورة الزخرف الآية 22 .

لا يتوقف بل يتجمع ويتكاثر ، وكأنه باحث عن فريسة يخر نبق لينباع ويتحفز ليقفز إلى الجهة المقابلة أو قائد يجمع خميسه ويحشد قواه ليلقى بثقله فى المعركة حتى يجتاز العقبات ، ويتابع جريانه إلى غايته ، ويضعف تارة ويقوى أخرى حق إذا وصل إلى مستقره هدأ أو تلاشى ، فى القاموس المحيط ، الخضم الفسيح .

والشباب كذلك ولا يبعد الناشئة عن هذا المدار يشدو خيرا ما فى كونه الملتف به ، وسلمه الذى يتعدد فى درجاته وتباين تلك الدرجات فى كنهها وأهدافها وأطوار حياتها فطبع فى نفسه ، المتناقضات حيناً والمتوافقات حيناً ، فهو راضع لبان أسرته وقتاً مقررأ ، ثم يعدو هذا المكان إلى مكان أرحب ، هناك فى مدرسته فى مصنعها فى تجارة فى مزرعة ، حيث يلتقى بعشراء لم يسبق له بهم عهد ، مزيجاً من عناصر متباينة وبيئات مختلفة لم تجمعهم من قبل وشيجة رحم أو منشأ .

فإذا صعد فى الزمان وتعاوره الليل والنهار دبت فيه حياة جديدة ، وتفاعل فى كيانه ما لا خبرة له به وهو لا يزال غض الاهداب ، فى ركن الصبا وخدر الغرارة ويرتطم بعوائق مضادة لا يمكن إجابة سؤالها حذرا من واقع المجتمع وتقاليده فينشأ الكبت ، وهو غير محمود العاقبة .

وفى هذه المرحلة التى ربما تكون حاسمة ، جالت عقول المعنيين بالشباب كل مجال متمسكة وسيلة النجارة ، فى محاولات قد تكون عقيمة ، وقد تكون مجدية ، إلا أنها فى مجموعها آنية (بتشديد الياء المثناة) تكون مسكنات وقتية لا يلبث أثرها أن يزول .

ومن خلال تلك المحاولات نلمح من ثقب أبوابها ما يشير إلى غريزة خاصة يحاول إرجاع كل شىء إليها ، وما وضع لها من دواء مضاد خوفاً من نتائجها ، فقالوا : أعلوا بالرياضة وأشغلوها لتسكتوا عواها بالفنون ، وسوءاً نجحوا أو أخفقوا فى علاجهم هذا ، ففى المشاهد وقائع يدركها من تتبعها دارسا أو باحثا أو مستطلعا ، ولنترك هذا الطور وعلاجه إسلاميا إلى مجال مقولة أخرى ربما تحين قريبا ، ففى الإسلام ما يحسم الداء مقتلعا جذوره بالبلم الشافى ، ويرد الشراب الناقع لكل غلة ، اللهم أهد قومى فإنهم لا يعلمون .

4 - تعالوا نتصفح أضياب المصلحين وكتاباتهم ، ونعش قليلا فى رحاب الأنبياء

والمرسلين نغشى مجالهم ، ونخسرط فى سلك حواريبهم ، فماذا نرى نجد الذين تجاوبوا معهم وحملوا دعوتهم ، هم الشباب والشباب وحده واستمع إلى محكم القرآن الكريم حين يقول : ﴿إِلَهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى ... ﴾ .

قال غير واحد من المفسرين : (إنهم شباب آمنوا بربهم ، وقد جرت العادة أن الفتيان أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا فى الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابًا ، وبقي الشيوخ على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل) .

ومن القرآن أيضًا : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ﴾ ﴿سَمِعْنَا فَنَّى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ وإبراهيم هنا هو الرسول نفسه . وخاتمة الرسائل حملها الشباب ولم يدخل فيها أكثر الشيوخ إلا مكربين ، وقرأ تاريخ المهاجرين الهجرة الكبرى تجد آخرهم عمر بن الخطاب الذى لم تتجاوز سنه يوم أسلم العقد الثالث ، والذين سبقوه كانوا فى مثل سنه أو أقل أو أكثر قليلاً .

وهكذا تلقى الذين شادوا دين الله وأرسوا أصول الخير هم الشباب ، فقد اجتمع يومها للإسلام قوتان نال بهما من الظفر والنجاح ما لم تنله دعوة من قبل : أصالة الأسس وقوتها وإيمان الشباب عمق إدراكهم لها ، تضافرت هاتان القوتان وسارتا كتفا إلى كتف حتى عم الإسلام شبه الجزيرة العربية فى حياة سيدى رسول الله ﷺ .

بعد هذا : نعود إلى ما ورد فى مسند الإمام أحمد رضى الله عنه الذى يرسم صورة صادقة لا شائبة تعتريها تشوه من جمال مبناها وتنقص من أهداف معناها تلك هى صورة الشباب الواعى الذكى العبقرى الذى لا يفرى فربة أحد ، إلا من نبت مثله فى رعاية النبوة وتحت سمع صاحب الرسالة ويصره ، أنظر إلى تحركاتهم وسكناتهم فى مغداهم ومراحهم ، يترددون بين ثلاثة أماكن :

مسجد فيه قوة الروح ، وضرب فى مناكب المدينة بحثًا عما يقيم الأود ويمسك الذماء ، ثم نهاية أمرهم فداء للعقيدة التى هى وطن المسلم ولا وطن له غيرها ، وهؤلاء هم الذين اتخذوا عنوانا مميزا (القراء) شباب عدتهم سبعون ، يتدارسون القرآن غداء أرواحهم ومنهج حياتهم وهدى سلوكهم لا يريدون دعاية ولا شهرة ، ولا

يحبون أن يطلع على أحوالهم أحد . ولا يشعر بهم مستخف بالليل ولا سارب بالنهار ، أهمهم أمر دينهم وليس وراء ما أهمهم ما يعينهم يحاولون من خلاله إرضاء بارتئهم ، لا يقول يذهب إدراج الرياح وإنما بعمل يثبت ويبقى أثره ما بقى لذكاء شروق ولصنوها أفول : أين قواؤهم ؟ لا أين ينتقلون بين علم يثمر ، ويضربون المثل للسعى والكسب ليسوا عالة على غيرهم وما منهم أحد . كل على أحد أيد تنبض بالحركة النافعة في حدود مقومات زمانهم ، وقلوب يرهاها إيمانهم بعمقيتها ، ثم فناء في سبيل ما عند الله مما أعده لأمثالهم : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ .

لم يتمتموا بكلمات مبهمات رثاء الناس ولم يتظاهروا بالاتباع ثم تخونهم الوقائع ، ولم يتبجحوا بالتوافه المظهرية وبعادوا عن اللباب ، كعهدنا بالناس في زمان مات فيه القلب واستيقظت الشهوات المسعورة ، ولا أقصد شهوة الفواحش فقط ، فكل رغبات النفوس التي تشيرها الأنانية القاتلة شهوات مذمومة عند الله وعند من اصطفاهم من رسل وأنبياء وعقلاء .

يمثل هؤلاء الشباب المثل يقتدى للنجاح وللفداء المأمول وللغد المرتقب ، فسلكهم هو سلوك الشاب الذي آمن ووقر الإيمان في قلبه وتجاوب مع الدعوة وألقى إليها السمع وهو شهيد ، وليس بدعا في الفطر السليمة أن يحزن عليهم سيدي رسول الله ﷺ ، ولا أن يردد ذكراهم كل صباح ، ولا أن يطلب الويل والثبور لمن عدا عليهم ، وإن كان مقرهم رضوان الله ورحمته فهم مثل كريمة طيبة ، وتلك الأمثال يضربها الله للناس لعلهم يعقلون ..

5 - ولا يغرب عن بال واع فاقه لسيرة الدعوة في مبتدأ أمرها أن أتباع الإسلام الأولين كما أسلفنا كانوا شباباً أشداء على عدوهم رحماء بينهم ، رجال حرب وجلاد مات جلهم تحت ظلال السيوف في حومة الوغى في ميدان الجهاد المقدس ، ونسوق طرفاً من أسمائهم الكريمة لو تتبععت أصحابها في مواطنهم لرأيت العجب العجاب الذي يعطى البرهان القاطع على مدى ما تستطيع بلوغه قوة الشباب لو أحسن توجيهها ، هؤلاء العمالقة منهم على سبيل المثال ، على وابن العوام ، وابن مظعون ، وطلحة ، وسعد ، وأبو بكر ، وعمر ، وابن الأرقم ، وصهيب ، وبلال .. إلى غيرهم من

در تفاخر بها الدنيا دنيا الإيمان والعزة ، ولا يقال هنا : لم أنهار البناء وتصدع حتى وصل إلى ما هو موسوم به الآن .

فالجواب : طى الواقع يحكيه صادق الحال ، وكل شيء يحتاج إلى صيانة ورعاية ، وعندما يتولى الأمر هازل مستضعف فقل على دنيا ذلك الأمر العفاء .

وإذا ذكرنا أسماء رجال برزت أبان إشراق نور الدعوة الإسلامية فلا يصح بحال أن ننسى أسماء نساء شابات أدين واجبهن في الصبر والجهاد وقمن بما سجله لهن التاريخ معجباً في سبيل الدعوة ولهن الحظ الموفور من البلاء الحسن في كثير من معارك المسلمين ومنهن السابقات أمثال : أم أيمن ، وأسماء بنت أبي بكر ، وفاطمة بنت الخطاب ، وعائشة ، وغيرهن ممن وقفن جنباً إلى جنب مع الشباب يقمن بما يستطعن من خدمة الجرحى في الميدان وسقيا المجاهدين ، بل وحمل السلاح كما حدث في إحدى المعارك التي أحيط فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم .

6 - وفي نهاية المطاف . نفتح عيوننا على عصرنا الذي فيه نعيش فنبصر ثورات سياسية وعلمية وثقافية تضطرم في كل مكان فتلك تلك العروش وأختها تحطم تقاليد . وثالثة تغير مفاهيم وعلوم ونظريات إلى آخر ما يخبئه الغد من مفاجآت تلك الثورات في كافة صورها ، من قام بها ؟ من قدم نفسه فدى لها ؟ من كان وقودها وضرامها ؟ إنهم الشباب ولا أحد غير الشباب .

وأؤكد هنا كالأشأن دائماً أن حركات الشباب لا تبعث على الخوف ولا القلق فمن الطبيعي جداً ، ومن البدائة التي لا تقبل الجدل ، أن يشور الشباب وأن يتمرد أحياناً ، فهو لا يشور ولا يتمرد إلا لأنه يلمس اعوجاجاً في أوضاع قائمة ، والأفضل دائماً هو أن تعالج العيوب ويقوم المعوج ، ويقضى على داعي الفساد والهدم والبلد الذي يريزق قادة عقلاء يلتقون بالشباب ويتحسون من طالبهم وبناقشونهم وبأخذون ويعطون معهم ولا يوصدون دونهم بأباً ، مثل هذا البلد يستقر أمره وبهناً عيشه وتسير أحواله على هدى الشيوخ العقلاء ذوى الخبرة الطويلة في الحياة فقيهم المدره والعبرى . وتعتمد على سواعد الشباب وعقولهم المتفتحة .

ولهذا أرى أن يتلاقى الشباب وخاصة شباب الجامعة والمصانع والمسؤولين في

ندوات مفتوحة وقلوب سليمة يفرغ فيها الشباب كل ما عنده من تساؤلات ويبدى كل ما عندى من رأى ، وهنا تظهر عبقرية القادة من الشيوخ فى التوجيه الصالح ، والأخذ بيد المفلح من الشباب وإثارة الطريق أمام المدلج الحائر ، ولو فعلنا لاتقينا شر ثورات مهلكة يجدوها غالباً وأنانية وعناد يأتى على كل شىء من أمجاد السابقين .

وختاماً : لا أرى توجيهها أفضل ، ولا إرشاداً أسمى وأجل من توجيه وإرشاد الإسلام فمقوماته ترتفع إلى القسم ، ولا تنحدر أبداً إلى السفح ، ومن درس وقارن اقتنع بتعاليم الإسلام وهدايته ، وإنه المنقذ الوحيد من الحيرة والاضطراب اللذين يسودان عالمنا : ﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

## زهرة الدنيا

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض . قيل :  
وما بركات الأرض ؟ قال : زهرة الدنيا .

فقال رجل : هل يأتي الخير بالشر ؟ فصمت النبي صلى الله عليه  
وسلم حتى ظننت أنه ينزل عليه ، ثم جعل يمسح عن جبينه (1) فقال : أين  
السائل ؟ قال : أنا ، قال أبو سعيد (2) لقد حمدناه حين طلع لذلك (3) .

قال : لا يأتي الخير إلا بالخير ، إن هذا المال خضرة حلوة ، وأن  
كل ما أنبت الربيع يقتل حبطاً أو يلم إلا آكلة الخضرة ، أكلت حتى إذا  
امتدت خاصرتها استقبلت الشمس اجترت وثلثت وبالت ، ثم عادت  
فأكلت ، وإن هذا المال حلوة ، من أخذه بحقه ووضع في حقه فنعيم  
المعونة هو ، وإن أخذه ، بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع .

(رواه البخاري وغيره)

1 - يحرص رسول الله ﷺ أشد الحرص على التمكين لقومه في الأرض ليكونوا  
مناراتها - المضيئة ومشاعلها - على طريق الخير والسلام ، ولهذا كان حديباً على  
أتباعه ، مهتماً بأمرهم الحاضر والمستقبل ، لأنه ﷺ يعلم أن الفلك لا يتوقف ، وأن  
الأحوال لا بد وأن تتغير ، ويدركه الناشئ عن نور النبوة يتطلع إلى المستقبل فيرى  
من خلال دنيا مقبلة على هؤلاء العرب الذين ارتضوا الإسلام ديناً ووقفوا جهودهم  
على الذود عن حياضه ، ويعملون دائبين على نشره ، وتوسيع رقعته ، فهم قد ذاقوا لذة  
الإيمان بالله وبرسوله ، التي أنتجت منهم بطولات في مختلف ميادين الوجود الإنساني

(1) يمسح عن جبينه : أي العرق كما ورد في رواية أخرى.

(2) أبو سعيد : هو راوي الحديث .

(3) حمدوا السائل : فقد لاموه حين رأوا سكوت النبي صلى الله عليه وسلم وظنوا أنه قد أغضبه ، ثم  
حمدوه حين وجدوا أن مسأله كانت سبباً في الشرح الذي استمعوا إليه من رسول الله صلى الله عليه  
وسلم فوعوا ما يريد من الحديث عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

ولهذا لا يرتضون لأنفسهم الاستئثار بالفضل ، ولا يرضون به على غيرهم .

ومن أجل ذلك فهم سيطرقون أبواب الدنيا يطلبون مفاتيح الأرض ليسطوا عليها سلطان الهداية والنور ، وسيستيع ذلك الثراء المادى الذى سيبدل الأحوال ويشيع أجواء لا عهد لهم بها ، ويتطلب حكمة وحسن تأت للأمور ، وهم فى وضعهم على عهد سيدى رسول الله أخوة لم يفرقهم مال ولم يميز بعضهم عن بعض جاه ، فالمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ، وكل ما يصل إليهم من الفتوح ينالونه كما يشاء الله ورسوله فلا اعتراض ، ولا تنافس فأكبر همهم الدار الآخرة ومفتاحها طاعة الله ورسوله ، ودرجاتها تدرك برضا الله ورسوله ، وسيدى رسول الله ﷺ كان مدركا أن التنافس فى الدنيا مملكة وأن مدار التنافس المسىء سيبدأ من انفتاح خيرات الأرض على مجتمع المسلمين .

فى الحديث الشريف يقول عليه الصلاة والسلام : ( ... وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكنى أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها (أى الدنيا) ويؤيد هذا قوله ﷺ فى حديث آخر : (فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهمتهم) .

وفى رواية (فتهلككم كما أهلكتهم) وذلك أن المال مرغوب فيه وترتاح إليه النفس وتمعن فى طلبه وتتفانى فى الحصول عليه وتسلك كل الطرق للوصول إليه وأحياناً تمنع منه فتقع العداوة ، والعداوة مقتضية للقتال أحياناً والقتال يفضى إلى الهلاك لا محالة .

2 - ولما كانت تعاليم الإسلام مهداة إلى البشرية جمعاء لا تتقيد بعصر او بمصر ، كان سيدى رسول الله ﷺ يلقى إلى أصحابه من الحكمة ما يعنى به أحوال المستقبل وما سيصير فيه ، ولم يزهأ أبداً فى جمع المال من حله ، فاليد العليا خير من اليد السفلى ، والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، والمعطى أفضل من الآخذ ، والمال حلوة خضرة ، وهو زهرة الدنيا وبه زينتها ، وهو سلاح ذو حدين إن حسن استعماله نما برة وربا خيره وعمر الديار . وأشاع فيها العلم

والمعرفة ؟ وأعلى مكانة الأمة ، فيها بها أعداؤها ، ويقررها أندادها قبالمال والعلم بينى الملك السعيد ، وما سعدت أمة أبداً بجهل وإقلال .

أما إذا أسىء استعمال المال وعدل به عن موضعه الحق فحينئذ يصبح وبالا على صاحبه ، وينعكس وباله على الأمة فيودى بها ، والعجيب فى أمر كثير من الأمم التى مضت مع الزمان وصارت تاريخاً من التاريخ ان الترف قد أضعفها وأودى بها الثراء حين أفقدها توازنها ولم ترزق رجالاً يحسنون توجيه المال ويدركون قوته وخطورته ، فنمت فيها الميعة ولخور ، عشش فى دورها الهوان والتفاهة فاستنام الناس إلى ما فى أيديهم ، ولما زاد عن حده بحثوا له مصرف أيقظته تخمة البطن وقلت الإجهاد ، وقوته الراحة وعزرتة الشهوات فترنحت الرؤوس ، ولانست الجذوع ، وماتت الأطراف ، وصارت الدولة أثراً بعد عين والحديث الشريف يرشد إلى الطريقة التى يجب أن يلكها جامع المال لينتفع به وقد اشتمل على وجوه من التشبهات البديعة :

أولها : تشبيه المال ونموه بالنبات وظهوره .

ثانيتها : تشبيه المنهك فى الاكتساب والأسباب بالبهايم المنهمكة فى الأعشاب .

ثالثها : تشبه الاستكثار منه والادخار بالشره فى الأكل والامتلاء منه .

رابعها : تشبيه الخارج من المال مع عظمتة فى النفوس حتى أدى إلى المبالغة فى البخل به بما تطرحه البهيمة من السلاح .

خامسها : تشبيه المتعاس عن جمعه وضمه بالشاة إذا استراحت وحطت جانبيها مستقبلة عين الشمس .

سادسها : تشبيه موت الجامع للمال المانع من صرفه فى وجوه بموت البهيمة الغافلة عن دفع ما يضرها .

سابعها : تشبيه المال بالصاحب الذى لا يؤمن أن يتقلب عدوا فإن المال من شأنه أن يحرز ويشدد الحرص عليه وذلك قد يقتضى منعه من مستحقه فيكون سيئاً فى عقاب مقتنيه .

ثامنها : تشبيه أخذه بغير حق مع ضنه على مستحقه بالذى يأكل ولا يشبع وفى المال يقول الإمام الغزالى (أعلم أن لمال مثل حية فيها سم وترياق ففوائده ترياقه ، وغوائله سمومه ، فمن عرف غوائله وفوائده أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره) .

3 - وعرج على شرح هذا الحديث الشريف العلامة ابن منظور صاحب (لسان العرب) ووسط القول فيه بسطاً يقرب فهمه للدارس المتفحص فأجبت أن أنقل قوله دون زيادة عليه لتعم الفائدة كل مطلع عليه دون عناء الرجوع إلى بطون الموسوعات وما يستلزه ذلك من دأب وجهد : قال ابن منظور :

« وفيه مثلان : ضرب أحدهما للمفرط فى جمع الدنيا مع ما جمع من حقه والمثل الآخر ضربه للمقتصد فى جمع المال وبذله فى حقه ، فأما قوله ﷺ : (وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً) (كما ورد فى روايته) فهو مثل الحرص والمفرط فى لجمع والمنع وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التى تحبها الماشية فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك ، وكذلك الذى يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشح على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها ، يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب . وأما مثل المقتصد المحمود فقوله ﷺ : (إلا آكلة الخضرة ، فإنها أكلت حتى إذا امتلأت خواصرها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رتعت وذلك أن الخضر ليس من أحرار البقول التى تستكثر منها الماشية فتهلكه أكلاً وأكثر ما رأيت العرب يجعلون الخضر ما كان أخضر لم يصفى والماشية ترتع منه شيئاً فشيئاً ولا تستكثر منه فلا تحوط بطونها ، فالخضر من كلاء الصيف فى القيظ وليس من أحرار بقول الربيع ، فضرب رسول الله ﷺ آكلة الخضرة مثلاً لمن يقتصد فى أخذ الدنيا وجمعها ولا يسرف فى الحرص عليها وإنه ينجو من وبالها كما نجت آكلة الخضر ، ألا تراه قال : فإنها إذا أصابت من الخضر استقبلت عين المس فثلطت وبالت ؟ وإذا ثلطت فقد ذهبت حبطها ، والحبط أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج منها ما فيها) (1) .

(1) لسان العرب ج 1 ص 553 .

## الخلاصة :

إن المال عصب الحياة ، ووسيلة كل خير فيها ، بل هو خير مقوماتها كما سماه القرآن الكريم في قوله تعالى : « إن ترك خيراً »<sup>(1)</sup> الآية إذ به يتوصل إلى كل مبتنى ، وينال كل مطلب إذا ملكته رجال تقدره قدره وتعرف كيف تقلبه وتدرك مصادره وموارده ولهذا دأبت القيادات الواعية على تلمس مواطنه وكثيراً ما شار قتال من أجله ، به بسطت دول سلطانها وأرست قواعد حضارتها ، وتقدمت غيرها ، ونالت مبتغاهما .

والإسلام متمثلاً في رسول الله ﷺ ما أهمل قط شأنه ولا حط من قيمته ، والقرآن الكريم جعله في مواضع من آياته نعمة ومنة من الله على عباده ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً﴾<sup>(2)</sup> .

وحت على حفظ حق الوراثة في مال مورثهم مبعدا له عن السرف ولو في إنفاقه في حلال « لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكفون الناس » ..

وفي المقابل ذم رسول الله ﷺ الفقر ، فمما أخرجه أبو مسلم الليثي في سننه ، والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أنس رضى الله عنه قوله عليه الصلاة والسلام : (كاد الفقر أن يكون كفراً) وقد عقد المتقدمين فصولاً طويلة في بيان فضل المال وجليل آثاره وخطير سلطانه ، ولهذا فسدى رسول الله ﷺ يدعو إلى وضعه في مواضعه ، وإدراك جبهات استغلاله لخيري الدنيا والآخرة حتى يكون نافعا في العاجلة والآجلة .

وأوضحت السنة الشريفة في أحاديث كثيرة كيف يجمع وكيف ينفق ، وفي السنة أسرار خير الدنيا والآخرة ، وما لو ترسمه المسلمون في حياتهم العملية الواقعية لكانوا في القمة ، ولبلغوا ما يتشوقون إليه مما حصلت عليه أمم أخرى ، ولعل قوارع الأيام توقظهم وتفتح قلوبهم على مضامين القرآن والسنة وما اشتملا عليه من خير ، والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين .

(1) الآية 180 من سورة البقرة ونصها الشريف ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ .

(2) الآية 12 من سورة نوح .

## قيم المجتمع الفاضل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة) .

(رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد)

1 - مضى القول فى هذا الحديث الشريف من كلم سيدنا رسول الله ﷺ منذ شهور فى دروس سلفت ثم ألقى إلى كتاب كريم من زميل عزيز فاقه يعالج بعض جوانب ما يشير إليه من معان قد تعلقو على إدراك عابر غير متعمق يرضى بما يطفو على السطح ، ولا يحاول معاناة الغوص على درر القاع ، ورضيت حينذاك بما أفاض الله من معرفة على عبد ضعيف يتلمس الحقيقة ويسعى جاهداً للتعرف عليها فالظواهر خداعة براءة خاصة إذا أحيطت بأبواق دعالية عززتها وسائل أعلام تهز أعطاف الناس ، وألسنة تبنى بالأفواه غير ما استكن فى القلوب ، وهذا هو الذى جعل هذا الحديث الشريف يطرق قلبى وسمعى من جديد .

فأعود إلى ما قيل فيه لأجده سرد أحاديث أخرى تبين عن العناصر التى يريد الإسلام استقرارها فى المجتمع متمشية مع ما اختاره له أخ فاضل من عنوان وتلك طريقة لعمر الحق تبرز ما فى السنة الشريفة من أضواء تقشع ظلام النفس الإنسانية ، وتجري أنهارها لتجرف الماء الراكد الآسن ، وتنقى عن الوجود الإنسانى ما يشينه وتثبت قواعد الهداية الإلهية التى من أجلها بعث المرسلون ولكن خلت تلك السطور عن المثل التى تعيش على البسيطة شارحة موضحة لمقاصد الكلم الطيب ومراميه ، وشاء الله أن نعيش أحداث أيام هى تكرار لأخوات لها تمضى فى سواد الليل حالك لم يطلع له بدر ولم يضىء فيه نجم ، والتقيت بصاحبى الذى حدث عنه شارحاً الحديث نفسه فيما مضى من مقال ومعه جعبة عامرة بأشخاص لهم فعلية فى عالم اليوم وخاصة فى مسلمى العصر .

وعلى الأخص العرب العائشين اللحظات الحاضرة وهم تارة قادة فى سياسة وأخرى فى رياسة وثالثة فى معبد ورابعة فى دور علم تشع الحضارة وتحفظ التراث ، وتأخذ من كل شىء أحسنه كما يقولون لتقدمه عذابا ساثغا جميلا سقيا لأعاد هشة يرجى لها أن تشتد سواعدها لتصدر كل ميادين لمستقبل من الزمان وما أكثر شعبها ، وراح صاحبي يسود وأنا أسمع مصغيا مسجلا ما يشير إليه من شخوص رمز لها بحروف من أعلام تدل عليها ، إن كان لا يعرف مرمى هذا الرمز : الأبجدى إلا مملى الحديث سارد القول .

2 - قال صاحبي : عرف الزمان من يحمل الحرف السادس من ترتيب الأبجدية الذى لو أضيف إليه شقيق أو شقيقان لدل المتكامل منها على ما يسر الناظر ويعجب القريب ، ويغرى البعيد .

ولكن الذى ميزته تلك الأحرف وأدخلته فى أول معارف القواعد الأجرومية لا يساوى فقيراً ولا قطميراً إذا قسته بمقاييس الإنسانية ذات الشخصية الإسلامية الحققة أو العربية الأصلية أو العالمية المرموقة فى ضروب الخير ودرويه ، فهو دون فى التفكير وفى السلوك أنانى مقيت وشهوانى بغيض ومتغطرس فاجر ومعتد باغ يضرب على غير هدى ، برز فى غفلة من عقلاء قومنه واستعلى عليهم على حين غرة منهم ، فتقدم وتأخروا ، ساد واستعبدوا جذب فربقا يبريق النضار وقواهم بما حملوا من حديد ونار .

وحين حاول المثاليون رفع رؤوسهم لقوله حق ودلالة على مسلك صدق ناشتهم الحراب وقهقهه صاحبهم فى فجور وتواروا هم فى استخزاء ومن ثبت مادت من تحته الأرض فاغرة فاها ليستقر فيها إلى الأبد . قلت لصاحبي : أفى غاب يعيش صاحبي هذا أم فى فلاة ؟ فأجاب أو لست تعيش وتفكر ، تلك قمم فى العرف هكذا صيرها الحظ إن كان الختل والخداع حظاً أو هو صورة تتكرر هذه الأيام بعد أن ظن لناس أن التقدم الحضارى قضى عليها لا إلى عودة ، ولكن ها هى ذى كل لحظة تعود لتظهر على المسرح فى أثواب جديدة دع ذا واتبعنى إلى تلك المنارة السامقة على قلعة عظيمة تبدو من كتب مشعة مزدانة بما حوت من نبت طيب وخامات كريمة تصهر فى بوتقتها لتخرج مكتملة القوام جيدة الثمر شهية الجنى ، وتأمل معى القيمين والرعاة

وصاحبهم صحوة نهار وسواد ليل ، ثم حدثني عن انطباعاتك التي ترسخ في ذاكرتك بعد مفارقة مجلسهم حيث تلقى لهم قولاً جيداً وأناة يغبطون عليها ، وقد سودوا صحائف وحبروها كاشفة عن خبيثات الكون ، وآراؤهم لها وزنها في معيار التهذيب والترقى .

ولكن ما هذه الشرارات الحارقة الصادرة من بعيد التي قد أبادت الأوراق وحطمت الأقلام ، وأودت بكل جهد نافع مفيد ، وما مصدر تلك القنابل الفتاكة بالموجه نفسه الذي جعل نفسه ، فأفرغ محتواها في عقول رواده ، وأصبح فؤاده فارغاً لم ينعم بوجوده كما أريد له أن يكون وإنما جرفه التيار وصار أثراً بعد عين فلا سعادة أدرك ، ولا خيراً أبقى .

3 - عاج صاحبي في حديثه على قائم يحكى قصص الرسائل وحكم الديانات ويضرب الأمثال للتضحيات ويحاول توضيح مدارج الخير ومسالك البر ليصل بالجمع المصغى إلى ملكوت المساوغة حيث لا نفار ولا شقاق في مستقر لا شجار بين أهله ولا خلاف ، ويتقدم منه خبير يخبىء نفسه يطلب لعة دواء وينشد المثل في العمل لا في القول فيلقى صاحبه غفلاً من كل فضيلة منطوية على نفس شرسة لا تقيم وزناً لما يصدر عنها حديث ، وإنما هي صناعة للعيش كصناعة حداد يصوغ الرمح والسيف ويعمل الدروع والمجن .

والكل عنده سواء فوسيلة القتل كوسيلة الدفاع معدنهما واحد وصانعهما واحد ، والجنى رفق أمسك ذمأؤه لحظات ثم تلاشى كما تلاشى من قلبه تاركا وراءه الآثار العكسية لما بدأ من قوله ومنا سمع الجمع من آهات ، ولو تأملت اللقاء الأول لأفيت له وقفة أسد ومنظر راهب متعبد ونظرات رائد فطن ، وما هو بواحد من هؤلاء ولا يقاربه ، والقصة حكاية ماسة ودوران في حلقة مفرغة ما يدرى الجمع مبدأها ولا يعلم منتهاها ، ألفاظ تطن في الآذان ، وصرخات تدوى وصيحات ليس لها صدى ، ماله من منذر الجيش إلا الرواية والحكاية .

وأما اللباب والعمل والقدرة فما أبعد كل هذا عن موقعه ، وما أقصاه عن مرتقاه ، وما ذاك إلا أنه استغل هدأة الليل لا فيما استغله صاحب المزملة والمدثر وإنما في احتيال على فان ويحث وراء سراب ، وأين الروح المحركة لهذه الرمم العفنة لقد اختفت وخلفت وراءها الخواء .

4 - مضى صاحبي ومضيت معه فقمنا على جمع آخر فقد احتشد يرسم ويخطط  
ينقد ويؤيد يديره أشيب عرف الحياة ومعاركها ، اصطاد بالختل والنفاق ذلك المقعد  
العالى المظل على الجمع وجلس فى محاذاته ويعيدا عن موقعه شىء تجسد من لحم  
ودم دعوه سائسا ومرشدا ، ويعلم عالم السر وأخفى إنه صائد ماهر للأصفر الرنان له  
جبهة تقف إلى جوار صاحب نظرية التطور الحيوانى شاهدة على صدقها أو ملقيه  
كثيراً من الشك على حجج معارضها ليس من نبت الوادى .

وإنما هو والجم من بعيد مهدت له الأساطير ، بعيد فى سلوكه عن دراسته ومنهجه  
الذى أبرزه أول ما برز ، فحلا فى موضوعه ، اتخذ من الهوى هوايته ومن الأسطورة  
واية وغشى مجلسه جليس الأسد فعات فى عقول الجمع إفساداً إلا قليلاً ممن حمى  
الله وعصم والكل عالم بالحقائق ولكنهم شياطين خرس فى تعبير دينى مشهور ، وأسهم  
الكل فى بناء معكوس وتركوا ظلالات قاتمة لمستقبل غير واضح المعالم ورضوان  
الغنيمة بالإياب ممسكين بحفنات من الأصفر الرنان والوالهون جوعى يتضاغون يركل  
أحدهم الآخر ليفسح له مجالاً يقر به من تنسم الأخبار .

وبعد طول انتظار ينفذ الجمع دون الوصول إلى غاية وتحمل صاحبي قدماه إلى  
نوع آخر من الجماعات وإذا حماس وثورة وتطلع إلى غد أسعد ويتشائم صاحبي  
حين يرى قدراً قابعا فى الزاوية اليسرى من المكان تفتت شفتاه بين الحين والآخر عن  
ابتسامة صفراء تحكى صدى نفس مريضة بالقيادة ونما هى واصلة إليها ، يحاول  
السيطرة على القوم ولكنهم يهيجون عليه هياج ديكة فاجأهم ثعلب ماكر ، وهنا توقف  
صاحبي عن الإملاء وصاح أفى يقظة أنا فى منام وحقائق ما أرى أم خيالات .

وهل نحن فى شرك أم فى سوق ما هذا التضارب والتناقض ، قل : يا سيدى هون  
عليك تلك شتنة القوم قبل الرسائل قد أخفاها ضوءها ، ثم عادت حين خبا الضوء  
فى صورة أنكى وأشد ، ويضرب صاحبي بثقل يديه على كاهلى ، كأنما صحا من منام  
ويتنفس الصعداء وتعتبره نوبة سعال كأنه مصدر وما هو بمصدر ، وتغرورق عيناه  
والدمع مفرج أحياناً .

ولكن ليس دائماً ويتأمل الجانب الآخر فى الوادى البعيد فىرى شبابا وشيئا .  
شارخين وكهولا قد أجمعوا أمرهم على فتراسنا والاستيلاء على ما منحتنا السماء من  
رزق ورسوموا لذلك طرقا بعيدة عن التهريج والتزييف التضليل فتجمعوا وافترقنا  
وتآخوا وتقاتلنا اشتغلوا باللباب المفيد .

وعولنا على التافه المهلك ، فهل إذا درست قارئى العزيز وتأملت تجد راحلة بين  
المائة التى أشار إليها سيدنا محمد رسول الله ﷺ وما أظنه يعنى العدد ، وإنما يقصد  
ندرة النافع الذى يطرح السفاسف التى تبعد عن ساحة الدين الحق عاش له سيدنا  
رسول الله وإخوان له من قبل فأرسى عليه الصلاة والسلام القواعد الشامخة ، ثم  
خلف من بعده وصحابته خلف أهمتهم العاجلة فى صورتها المقيمة : ﴿يُخَادِعُونَ اللّٰهَ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ .

فصاروا إلى ما هم عليه اليوم وقبل إلقاء القلم وجره بعيدا عن القرطاس أسجل  
تفسيرا لهذا الحديث الشريف أورده بعض علماء السلف رضى الله عنهم قالوا : (إن  
النبي صلى الله عليه وسلم يحذر أصحابه مما حذرهم الله تعالى من ذمم عواقب  
الانغماس فى الدنيا وينهاهم عن الولوج فيها ويזהدهم فيما زهدهم الله فيه منها فرغب  
أكثر من جاء بعده فيها وتشاحوا عليها وتنافسوا فى اقتنائها حتى كان الزهد فى  
النادر القليل منهم ، ولهذا قال ﷺ : (إنما الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة  
ولم يرد تساويهم فى الشر ، ولكنه أراد أن الكامل فى الخير والزهد مع رغبته فى  
الآخرة قليل كما أن الراحلة النجيبة نادرة فى الإبل الكثير) .

وأقول لو فهمنا الحياة الدنيا على حقيقتها التى أوضحها ديننا لتغير الموقف  
ولأعطينا كل شىء حقه ولصرنا القادة والسادة فى كل ميدان ولكن لفاقه قليل نادر  
والله وحده هو الهادى إلى سواء السبيل .

## المسارعون في الخيرات

عن عائشة رضی الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : ( لا ، يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم ) أولئك الذين يسارعون في الخيرات .

(رواه ابن ماجة والترمذی)

1 - نظرة في الآية الكريمة وخاصة في الفعل (يؤتون) بالإضافة إلى سؤال أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها وجواب سيدنا رسول الله ﷺ ، تعطى أن في هذا الفعل قراءتين ، فقد قرأت أم المؤمنين (يأتون) وتابعتها في ذلك ابن عباس وقتادة والأعمش والنخعي ، والمعنى على هذه القراءة (يفعلون) فهو من الإيمان ، يأتون ما أتوا أي يفعلون ما فعلوا ، وعليه صح ورود السؤال : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ !

وفي رواية زيادة : ويزنون ، أي يفعلون هذه الأفعال المنهى عنها شرع والقراءة الثانية للجمهور يؤتون ، أي يعطون ، وفي جواب سيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ما يشير إلى هذا فقد قال : لا يابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ... الخ .. ومع هذا يخافون ألا يقبل منهم ما قدما ، ولهذا قيل : المؤمن يجمع إحساناً وشفقة ، والمنافق يجمع إساءة وأمناً ، وقال أبو عبد الله الرازي (ترتيب هذه الصفات <sup>(1)</sup> في نهاية الحسن ، لأن الأولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز والثانية على تحصيل الإيمان بالله ، والثالثة على ترك الرياء في الطاعة والرابعة على أن المستجمع لهذه الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع خوف من التقصير وهو نهاية مقامات الصديقين) .

(1) الواردة في الآيات المنظمة إلى الآية الكريمة التي معناها في هذا الحديث ، وقد سبقها ولحقها آيات أخر تبدأ من قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ » ، إلى قوله سبحانه : « أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » (من 57 - 61 من سورة المؤمنون) .

بعد هذه نجد الجواب الشريف راسما الصورة الصادقة للمؤمن الكامل الإيمان ، فالمؤمن الحق هو المعتقد اعتقاداً جازماً بوجود الله وصدق رسله غير مرتاب ولا شك فهو يرى أن أداء ما فرضه الله عليه واجب لا يمكن مخالفته وأن الجهاد بالنفس والمال الذي يعقبه الموت والفناء أو النصر وكرهيم البقاء من أسمى غايات الإيمان .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾<sup>(1)</sup> ومن ظن أن الإيمان هو إظهاراً لقول دون التصديق بالقلب ودون أن يبرز أثر ذلك الإيمان في تصرفات المؤمن علملاً واقعياً ، فهو إما منافق يدافع عن المنافقين مؤيداً لهم وإما جاهل لا يدري ما يقول ، قد أخرجه عن دائرة الحق .

والإيمان يقرب العبد من ربه ويحمله على الخوف الشديد من لقاءه ، وقد حث القرآن الكريم على الخوف من الله فقال سبحانه : ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(2)</sup> أى لا تخافوا أولياء الشيطان ولا تحفلوا بهم ، بل خافوني فى مخالفة أمرى لأنكم أوليائى وأنا ناصركم . وقال سبحانه : ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾<sup>(3)</sup> وروى الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، إلا أن سلعة الله غالية ، إلا أن سلعة الله الجنة) .

والمؤمن متوكل على الله معتمد عليه واثق به موقن أنه ناصره وهو حسبه وورد فى القرآن الكريم ما يشير إلى التوكل شرط فى الإيمان فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(4)</sup> كما أشار القرآن الكريم إلى حديث لرسول الله مع أقوامهم يؤيد هذا ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا يَأْذَنَ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾<sup>(5)</sup> وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾<sup>(6)</sup> .

(1) الآية 15 من سورة الحجرات .

(2) الآية 175 من سورة آل عمران ونصها : ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

(3) الآية 57 من سورة الإسراء .

(4) الآية 23 من سورة المائدة .

(5) الآيات 11 ، 12 من سورة إبراهيم .

وحكى القرآن عن سيدنا هود عليه وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة وأزكى السلام قوله ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾<sup>(1)</sup> وما أكثر الآيات الكريمة التي ورد فيها ذكر التوكل على الله .

وروى ابن ماجه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن بقلب ابن آدم أودية ولكل واد شعبة فمن اتبع قلبه الشعب كلها لم يبال الله بأى واد هلك ومن توكل على الله كفاه الله الشعب ، وفي مسنده الإمام أحمد وسنن ابن ماجه والدرامى عن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إنى لأعلم آية فى كتاب الله عز وجل لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا<sup>(2)</sup> وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا<sup>(3)</sup>﴾<sup>(2)</sup> .

ومن دلائل الثقة بالله ، وقوة الإيمان به أن يرهب المؤمن عقاب الله ويخشع لجلاله ويسارع فى عمل الطاعات مع الأمل فى ثواب الله تعالى ، وقد مدح الله سبحانه عباده الذين أخلصوا العمل وخشعت قلوبهم لسلطانه .

قال تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾<sup>(3)</sup> .

وقال عز اسمه : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ<sup>(45)</sup> الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ<sup>(46)</sup>﴾<sup>(4)</sup> .

ويلاحظ فى الآيات والأحاديث أنها تدعو دائماً للعمل الجاد مع الرجا للشواب والخشية من العقاب ، فثواب الله وجناته لا تنال بالكلام دون التطبيق العملى الواقعى ، فلو وقف إنسان تحت شجرة مثمرة ألف عام وهو ماد يديه إلى الثمر يطلب جناها دون أن يعمل ما يساقط عليه ثمارها فلن يحصل على طائل منها مها دعا ومهما جأر

(1) من سورة هود .

(2) الآيتان 2 ، 3 من سورة الطلاق .

(3) الآية 90 من سورة الأنبياء .

(4) الآيتان 45 ، 46 من سورة البقرة .

بصوته ومهما نادى ، ولهذا كان من دلائل القرب من الله إدمان العمل بأوامره واجتناب واهيه فمن أشفق من عذاب ربه عمل ما يبعده عنه ومن خاف أن يحشر إلى الله وليس له من دونه ولي ولا شفيع فعليه بالعمل والامتنال .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾<sup>(1)</sup> وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ<sup>(2)</sup> ﴿<sup>(1)</sup> وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَانََ الْغَيْبِ ﴾<sup>(2)</sup> وقوله : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾<sup>(3)</sup> .

وقد كان سيدنا رسول الله ﷺ ذائب العمل والاستغفار وقد ورد أنه سئل في هذا ، وقيل له لقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فأجاب عليه الصلاة والسلام : (أفلا أكون عبداً شكوراً) ، وورد أنه كان يستغفر في اليوم مائة مرة والعدد هنا لا مفهوم له فربما كان يزيد إلى مئات ، ومجمل القول أن الذي يقول ولا يعمل هو مخادع كذاب لا يخشى الله ولا اليوم الآخر .

3 - فالذين يتحدث عنهم الرسول الكريم يعملون ويخافون أن لا يقبل منهم عمل ، ووصفهم بأنهم يسارعون في الخيرات وهنا ثنوب إلى واقع المسلمين وتساءل : هل طبقوا ما يعملون من دينهم على ما يعملون في واقع حياتهم ؟ والجواب الذي يمليه ما هم عليه : كلا وألف كلا ، حتى حملوا أسماء الأضداد فهذا مسلم ظاهرا وهو أبعد ما يكون عن الإسلام حقيقة ، وذلك سميع لله وهو يهجر أبسط قواعد دين الله ، وكأني بالمسلمين يتحدثون ربهم والعياذ بالله من شر الوسواس الخناس ، وذلك حين يقاتل بعضهم بعضا ، ويقطع بعضهم أواصر القربى ، فقل لى من أعان التتار على المسلمين ومن مزق دولتهم في القرون الأولى من تاريخ الإسلام ؟

(1) الآيتين 51 ، 52 من سورة الأنعام .

(2) الآية 11 من سورة يس .

(3) الآية 23 من سورة الزمر .

ومن أعطى الأندلس بعد إسلامها الذى دام ثمانية قرون لقمّة سائغة لأعداء الله ؟  
 ومن حالف الكفر واستنصر به ، وولى ظهره لبني عمومته وأوليائه المسلمين ، ألسنا  
 نجنى ثمار إهمال طويل لدين الله ؟ واقع المسلمين اليوم إلا حكاية كل يوم مر بهم  
 عبر السنين المتلاحقة التى ولت ، وهم جثاة على أعتاب الشيطان الذى أذلهم حين  
 عاذوا به ، ويوم لاذوا بسلطانه فزادهم رهقاً ، وكيف يطلب احترام الغير من لا يقدر  
 نفسه ولا يزنها بميزان إسلامه وكرامته ؟ بميزان قرآنه وسنة نبيه :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

عاش المسلمون دهرا يستذل قويهم ضعيفهم فخرست الألسن عن الحق ، ولاذ  
 مؤمنهم بجحر ضب خرب ، وأصم أذنيه وأعمى عينيه ، يرى ما يستحق الإنكار ولا  
 يستطيع أن يفتح فاه بكلمة صدق فضاعت فيهم حرية الرأى ، وانطلقت ألسنة السوء  
 تغتال كل كريمة ، وتقبح كل حسن ، وتجمل ما أساء وما يهلك ، واحتال العقلاء  
 للوصول إلى طريق النجاة ولكن هيهات ، وأخيرا تواكلوا ولم يتوكلوا ، وتركوا اللب  
 واهتموا بالقشور ، جرت الأمثال تنذر أحيانا فى أسلوب ساخر تلميحا فى التصريح  
 الموت والدمار وقال قائلهم : (علام تتناطحوا والجزار بالباب) وادى مناديتهم (كلنا  
 فى الهم شرق) وما قصر .

ونعود فنتذكر أن اليأس مهلك ، وأن الأمل يحيى موات القلوب ونسارع إلى  
 كتاب الله وإلى جهاد السابقين فنجد الدواء والقدورة ولقد كان لنا فى رسول الله  
 الأسوة الحسنة ، وعسى أن يطلع الغد بما هو خير لأوطان الإسلام وسبيل الرشده  
 صلاحا فيسلكوه ، ومهما طال الليل فلا بد من فجر ، ومتى اشتد الظلام طلب الضياء  
 فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا . ولكن لا بد من اقتران القول بالعمل والاستعانة  
 برب كل شىء فالله يقول بعد هذا ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَإِنصَبْ<sup>(7)</sup> وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ<sup>(8)</sup>﴾ .

## القرآن الكريم

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن عقبه بن عامر رضى الله عنه قال :  
خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن فى الصفة فقال  
(أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق فيأتى منه بناقتين  
كوماوين<sup>(1)</sup> فى غير إثم ولا قطع رحم) ؟

فقلنا : يا رسول الله كلنا يحب ذلك ، قال : أفلا يغدو أحدكم إلى  
المسجد فيعلم<sup>(2)</sup> أو يقرأ آيتين من كتاب الله ، خير له من ناقة أو ناقتين ،  
وثلاث خير له من ثلاث ، وأربع خير له من أربع ، ومن أعدادهن من الإبل<sup>(3)</sup> .  
(رواه مسلم)

1 - كتاب الله المعنى بهذا الحديث الشريف هو القرآن الكريم ، قال أبو  
إسحاق النحوى : يسمى كتاب الله الذى أنزل على نبيه ﷺ ، كتابًا وقرآنًا وفرقانًا ،  
ومعنى القرآن : الجمع ، وسمى قرآنًا لأنه يجمع السور فيضمها وروى عن الشافعى  
رضى الله عنه أنه قرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين ، وكان يقول : القرآن اسم  
وليس بمهموز ، ولم يؤخذ من قرأت ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل ،  
ويهمز قرأت ولا يهمز القرآن كما تقول : قرأت القرآن<sup>(4)</sup> قال تعالى : ﴿لَا يَأْتِيهِ  
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَرْجُلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾<sup>(5)</sup> .

والقرآن هو كتاب الإسلام الأول ، بل هو كتاب الدنيا كلها ، فارق بين الحق  
والباطل ، ما فرط الله فيه من شىء ، أعياء الفصحاء ، وأخذ الطريق على البلغاء ،  
وأعجز الخلق أجمعين أن يجاروه أو يشاكلوه أو يقاربوه حوى كل ما يحتاج إلهي

(1) كوماوين : تشية كوما ، وهى الناقة المشرفة السنام عاليته .

(2) فيعلم : ضبط بتشديد اللام من التعليم ، ويتخفيفها من العلم .

(3) خلاصة معنى الحديث الدعوة إلى العمل لنشر الكتاب وحفظه وتطبيق أحكامه وإشاعته بين العالمين ،

ونهى عن أن يتخذ مهجورا فيأسى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(4) عن لسان العرب مادة قرأ .

(5) الآية 41 من سورة فصلت .

البشر من عقيدة وعمل ونظام ، يدرك ذلك من آياته في يسر وسهولة ، أمر الله سبحانه بتدبره ، وكلف رسوله ﷺ بتوضيحه وتفسيره وتبيينه ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾<sup>(1)</sup> نزل به الروح الأمين على سيد المرسلين لينذر الناس ويهديهم سواء الصراط ، وقد أعظم الله شأنه ، وأعلى مقامه ، وأبان قوة تأثير ما أنطوى عليه من المواعظ والزواجر وعرض بقسوة قلب الإنسان وقلة خشوعه .

لما ورد في الذكر الحكيم مما يزلزل الرواسي لو عقلت ، وبفتت الصم الصلاد لو وعت ، فقال جل شأنه : ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ﴾<sup>(2)</sup> ، فأين قوة القلوب من قوة الجبال ، ولكن الله رزق عباده من القدرة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلا منه ورحمة .

وقد ورد في السنة الشريفة أن القرآن هو الملبجأ حين تضطرم الفتن وتحتدم وتدلهم الخطوب وتزداد ، فما أخرجه الترمذى<sup>(3)</sup> عن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله . وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزبغ فيه الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ولا يملأه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) .

وروى البخارى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وروى مسلم عن أبى موسى رضى الله عنه قال : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب مثل المؤمن الذى لا يقرأ

(1) الآية 44 من سورة النحل .

(2) الآية 21 من سورة الحشر .

(3) ورد هذا الحديث فى صحيح الترمذى ج 2 ص 149 طبع بولاق بمصر مع اختلاف يسير فى بعض كلماته .

القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر) .

وفى رواية : (مثل الفاجر) بدل (المنافق) وروى البخارى مثل نضه ، وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن وتتنعع<sup>(1)</sup> فيه وهو عليه شاق له أجران) أجر التلاوة وأجر المشقة ، قال القرطبي المفسر المتوفى سنة 671 هـ رحمه الله ورضى عنه : (ودرجات الماهر فوق ذلك كله ، لأنه قد كان القرآن متعتاً عليه ثم ترقى عن ذلك إلى أن شبه بالملائكة والله أعلم) .

وأخرج ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنة : اقرأ واصعد فيقرأ ويصعد بكل آية درجة حتى يقرأ آخر شيء معه) .

وقالت أم الدرداء : دخلت على عائشة رضى الله عنها ، فقلت لها : ما فضل من قرأ القرآن على من لم يقرأه ممن دخل الجنة ؟ فقالت عائشة رضى الله عنها : إن عدد آى القرآن على عدد درج الجنة . فليس أحد دخل الجنة أفضل ممن قرأ القرآن .

والمقصود بقراءة القرآن ليست مجرد التلاوة وتكرار الألفاظ الشريفة وإنما لابد أن يتبع ذلك العمل والإخلاص وابتغاء وجه الله تعالى بتعلم القرآن وتعليمه ، وإلا كان وباله على صاحبه أشد من غيره ، والإخلاص لله تعالى مطلوب فى كل عمل ويدونه لا يقبل ، فى الذكر الحكيم : ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾<sup>(2)</sup> أى لا يرائى ، وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة ، رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه ففرها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء .

(1) التمتع : التردد فى الكلام عيا وصعوبة .

(2) الآية 110 من سورة الكهف .

فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال كذبت (ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم . وقرأت القرآن ليقال : قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به . فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فليها إلا أنفقت فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار) .

وأورد الترمذى هذا الحديث الشريف وزاد فيه : ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال : يا أبا هريرة : (أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة) وروى أبو داود والترمذى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله . لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة) .

ونظرة إلى العاملين في حقول الحياة عامة ، ترى المتأمل قيمة العمل الناشئ عن إخلاص وإيمان وخوف من مراقبة العلى الكبير ، وتظهر نتيجة ما ينشأ عن عمل المرائى الذى يخادع فيما يأتى وما يذر ، فالأول يشعر فى قرارة نفسه وحبات قلبه أنه إنما يبذل قوته وخبرته وعلمه وكل ما يتصل بما يعمل مما يوصله إلى الكمال المنشود إرضاء لله لأنه واجبه الصادر عن نفسه المفطورة على الإخلاص المطبوعة بالمعرفة الحقة القريبة من جانب الله سبحانه الذى يدرك خلجاتها ، وما يعتمل بداخلها ، لا تخفى عليه خافية ، إنه يرانا أسرنا أو أعلننا ، جاهرنا ، أو خافتنا .

ولكل هذا تظهر النتائج باهرة لا مجال فيها لقول أو نقد أو ارتياب ، وهذا شأن بناء الدعوات الصالحة ، وديدن العلماء الفاقهين صلتهم برب الوجود وما حوى ، فإن شادوا بهر العالمين ما شادوا وإن رسموا خطة هداية ، وسلوك الكمال ، ومسارب رشد ، لا تملك قوى الدنيا العاقلة إلا أن تطأطى هاماتها لما أدوا من واجب وما قاموا به من عظام ، أرقب هؤلاء فى سجلات أصحاب الرسائل المصطفين الأخيار ،

فى أضابير أساطين العلوم المختلفة قديمها وحديثها فى مقيمى المجتمعات الفاضلة على أسس العدالة والتراحم والتواد والتعاطف ، لا على جماجم المظلومين وسحق عظام المستضعفين ، وصرخات الأرامل واليتامى ، والوالدات والأيامى .

والثانى : المرائى المداهن لا ينبت إلا خبثا يثمر سما وهلاك الحرث والنسل إن قاد أباد من تزعم ، وإن علم أهلك من تعلم ، والقرآن الكريم قد عرف مرماه ومغزاه ، وأدركت اتجاهاته وتوجيهاته ، مصدره رب العالمين ومبلغه سيد المرسلين ، فمن حمله ليؤدى حقه كان له هداية ونوراً ، ومن اتخذته وسيلة ليضل الناس على علم كان ساعيا إلى حتفه بظلفه ، وما ظلم إلا نفسه ومن أحاط به ممن اغتروا بقوله وخذعهم ظاهر فعله ، وسيلقى جزاءه يوم الدين ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (1) .

فאלلهم أقل عثراتنا ، واجعل صلتنا بقرآنك خالصة لوجهك ، ووفقنا وارزقنا القوة والسداد للقيام بحق ما علمتنا ، وبرئنا من الرياء والمراء إنك وحدك سميع الدعاء .

2 - أدرك شائئوا الإسلام والحاقدین على رسوله وأتمه عظمة القرآن ومدى أهميته وأنه لا إسلام بدون كتاب الإسلام ، الذى لا تتغى به العاجلة وكفى ، فهى وسيلة وليست هدفاً ، فليحصل فيها عامروها ما يسعد إقامتهم فيها وليحملوا الإنتاج الأهم والزاد الكافى إلى دار أخرى هى للإقامة الدائمة ، لا إزعاج فيها إلا لمن اتخذ إلهه هواه وسحره سراب خادع .

فمات ظمأ ولم يبتل بالماء فمه ، والذى يدعو إلى العجب أن الشائئين للإسلام الحاقدين على كتابه لم يقيموا عدواتهم على قواعد منطقية أو خلقية ولم تنشأ عن تبصر وروية ، وإنما هو العداء الآثم ، وضراوة الإمارة بالسوء والرغبة الملحقة لاقتناص (أم دفر) والاستحواذ على متاعها اعوجت الوسيلة أو استقامت (اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله) وماذا فعلوا ؟ لقد أثاروا الشكوك حول المصدر ، وقشع غاشيتهم نور من الله وفضل ، فحاموا حول الحملة (لفتح الحاء

(1) سورة إبراهيم الآية 43 .

المهملة والميم) ونوعوا وسائل الإغراء والفتنة ، وأجادوا تصويب السهام فى غفلة من غفل ، وغيبة وعى ، فأوقعوا فى الأرض الفساد وسار الركب المعادى يحل ألقابا علمية فى حقبة من زمان عمر القرآن العزيز ، وقاربوا النجاح لأنهم خططوا باتقان وعملوا دائبين . وكان ذلك تحت سمع المسلمين وبصرهم وبلغه القرآن ، ولما خشوا أن تتطلع وحدات من أبناء جلدتهم إلى مكنون سر الكتاب الحكيم فتصيخ سمعاً وتستجيب وربما لا يستطيعون مقاومة حريين إحداهما شبت فى حصونهم ، فقالوا لقومهم : لننقل لكم هذا الذى يبركم حين شاهدتموه ينتقل أمة أمية من بدائة وجهالة إلى قمم حضارة وحكمة ، ومن ضياع فى بيداء إلى سلطان كسرى وقيصر ، على أن ذلك كان ضرورة تاريخية ، وسنة كونية ، وظاهرة تتكرر فليست هى الأولى ولا الأخيرة ، وهاكم الدليل فتلك معان خيالية هزيلة وعبارات بدائية سبق إليها شعراء سبقوا فى الزمن ، وإذا غلبهم الحق وخافوا فى ضوءه ولم تقو عيونهم على مواجته ، فهو حوله بدخان الدعايات الباطلة فيخفى الدر المكنون ولكن إلى حين ، وهكذا نقلوا معانى - على حسب أهوائهم - من القرآن محرفين الكلم عن مواضعه إلى كل لسان أدركوا انتشاره وحاولوا وضع العملاق فى قمم وما استطاعوا النجاح الكامل ولكن أحدثت فعالهم دويماً مزعجاً وبين يدي الآن عديد مما سجلوا ما زيفوا وحرفوا كله مدون فى ثلاثمائة مؤلف أو تزيد ، ويحتاج نقض ما قدموا - زيفاً - إلى جهود وجهود مصحوبة بالصبر والمثابرة والشجاعة التى تقاوم مغرباتهم وتهدم مفترياتهم .

3 - مناسبة هذا القول لزمان صدوره ترجع إلى عاملين أحدهما هنا فى هذا الوطن العربى الإسلامى الأصيل (الكويت) فقد صحت عزيمة وزارة الأوقاف على افتتاح دار القرآن الكريم فى مطلع العام الدراسى 1391 هـ / 1392 هـ / ، 1971 / 1972 م . وكان هذا أول عمل فعلى من نوعه فى تلك الديار . هو مشروع ثار فيه الكلام منذ أعوام سلفت ، وعاقبت تنفيذه فى حينه عوائق . وهنا لدى التنفيذ بدت ظاهرة بهرت وأدهشت القريبين من المشروع تلك هى الإقبال العجيب من طبقات الشعب المختلفة على الانتساب إلى تلك الدار بدو من الصحراء ، وحضر من المدائن ، موظفون فى دواوين الدولة ، بل وأصحاب جاه ومال ، كل يرغب فى الدراسة للإجادة

والتجويد ، فأبان ذلك عن نفوس كريمة عامرة بحب القرآن ، ولا تحتاج إلا إلى زند  
لتورى وتشتعل نارا تحرق أعداء القرآن والشىء من معدنه لا يستغرب .

وهل ينبت الخطى إلا وشيجة وتغرس إلا فى منابتها النخل

والعامل الثانى : دعوة تلقيتها من عالم كبير من علماء جامعة باريس الذين  
يتبأون أعلى المناصب العلمية فى أرقى جامعات العالم المعاصر ، وليت فماذا  
وجدت ؟ (1) فى قرية نائية(2) فى ريف فرنسا تبعد عن باريس ثمانى ساعات بقطار سريع  
ما يقرب من ستين كيلومترا عن آخر محطة للقطار تقطع بالسيارة لقيت الرجل العالم  
يجلس فى بهو واسع من داره القروية الجميلة وتتناثر حوله كتب الإسلام وفى مقدمتها  
التفاسير مخطوطة ومطبوعة ، وكان اللقاء للبحث والدرس فميزة هذا العالم اللوذعى ،  
والحبر التحرير أنه يطلب موارد العلوم فى منتجعتها مهما بعدت الشقة ، وهذا ديدن  
العلماء المخلصين فيما يتصدون له من عمل ، هو يكتب مقدمة لترجمة جديدة لمعانى  
القرآن ، أعجبت تلك الترجمة لأنها منصفة للقرآن ويحب أن يستوضح كل ما يتصل  
بما يكتب ، وكان لقاء علميا جميلا أثار شجنى فأصحاب القرآن المنزل على رسول  
الله يغطون فى ثبات عميق ، وإن صحوا فلكى يشاكلوا غيرهم ، لا ليدلوا بحقائق  
القرآن لتدرج على أرضهم فتجمع شملهم وتوحد متفرقهم ، ولا أملك إلا أنا أنادى ،  
حتى على الفلاح : يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا .

يا قومنا استجيئوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، حتى على الفلاح فقد  
طال النوم ، والصلاة فى محراب القرآن خير من النوم ، هيا اعدوا كما طلب رسول  
الله ﷺ إلى المساجد فتعلموا القرآن وعلموه فذلك خير لكم من حمر النعم ، والله  
يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

(1) كان هما فى سنة 1971 .

(2) قرية سان جوليان .

## الشهيد

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت النبی صلی الله عليه وسلم يقول : (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ) .

(رواه البخارى وغيره بلفظ مقارب)

1 - ورد عن الحافظ بن حجر العسقلانى فى رواية هذا الحديث قصة تعطينا صورة صادقة لما كان عليه المسلمون الأوائل من التزام لحدود الله تعالى ، وامتثال تام لأوامر رسول الله ﷺ ، لا يتعدونها ولا يخالفون هديها قيد أنملة مع حفاظهم على المال والعرض المعادلين للحفاظ على النفس دون اعتداء أو مجاوزة للطريق السوى ..

قال ابن حجر رضى الله عنه : (لما كان بين عبد الله بن عمرو وبين عنبسة ابن أبى سفيان ما كان يشير إلى القتال ، فركب خالد بن العاص متوجها إلى عبد الله بن عمرو ، فوعظه ، فقال عبد الله بن عمرو : أما علمت قول رسول الله ﷺ ، ثم ذكر له الحديث ، وذلك أن عاملا لمعاوية أجرى عينا من ماء ليسقى بها أرضا ، فدنا من حائط لآل عمرو بن العاص فأراد أن يخرقه ليجرى العين إلى الأرض ، فأقبل عبد الله ومواليه بالسلاح فقالوا : والله لا تخرقون حائطنا حتى لا يبقى منا أحد ، وذكر الحديث .

والعامل المشار إليه هو عنبسة بن أبى سفيان كما روى الإمام مسلم وكان عاملا لأخيه معاوية على مكة والطائف وكانت الأرض بالطائف ، وقد أخرج هذا الحديث : النسائى ومسلم والطبرى وأبو داود والترمذى ، كلهم بلفظه المشهور .

وفى رواية لأبى داود والترمذى : (من أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد) قال النووى : (فيه جواز قتل من قصد أخذ المال بغير حق سواء كان المال قليلا أم كثيرا) وعند بعض أصحاب مالك رضى الله عنه : لا يجوز إذا كان المأخوذ مالا قليلا ، ويعقب على هذا القرطبى بقوله : من دواعى الخلاف عند المالكية أنهم تفارقوا فى أصل المسألة ، فرأى بعضهم أن ذلك من باب تغيير المنكر فلم يفرق بين القليل والكبير ، ورأى آخرون : أنه من باب دفع الضرر فيختلف الحال ، وعن الشافعى رضى الله عنه أنه قال : (من أريد ماله أو نفسه أو حريمه ، فله الخيار أن يكلمه (بسكون الكاف) أو يستغيث ،

فإن منع أو امتنع لم يكن له قتاله ، وإن لم يمتنع أو يمنع فله قتاله ، ولو أتى على نفسه ، وليس عليه عقل ولا دية ولا كفارة . ولكن ليس له تعد قتله ) .

وفى رواية الإمام مسلم رضى الله عنه روى الحديث بلفظ : ( رأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : فلا تعطه ، قال : رأيت إن قاتلني ؟ قال : فاقتله ، قال : رأيت إن قتلني ؟ قال : فأنت شهيد ، قال : رأيت أن أقتله ؟ قال : فهو فى النار ) . ولفظ ( دن ) الوارد فى حديث الباب تستعمل فى الأصل ظرف مكان بمعنى تحت ، وتستعمل للسببية على سبيل المجاز ، وتوجيه ذلك فى نص الحديث : إن الذى يقاتل عن ماله إنما يجعله غالباً خلفه أو تحته ثم يقاتل عليه .

2 - جرت سنة الله تعالى فى خلقه أن القوة تعنى المنعة (بفتح الميم والعين المهملة) بمعنى أنه لا يمكن الوصول إلى صاحبها ولا النيل منه ، ولا الاعتداء على حرماته ، فهو دائماً عزيز الجانب ، مهيب السلطان ، بينما الضعف ولتخاذل يطمعان العدو فيمن أتصف بهما ويصبح نهباً مشاعاً للأهواء ، وهدفاً واهياً للطمع ، ومنال مرمى سهام الغزاة .

ومن لم يذ عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وجرى مثلاً : ( من لم يتذأب أكلته الذئاب ) .

وقد حرص الإسلام على التواصى بوجوب حفظ حقوق المسلمين من أموال وغيرها كأفراد ، وحماية الدولة من كل اعتداء ، فلا بد من الإعداد ، وأخذ الحذر ، وتوقع العدوان فى كل وقت ، وتهيئة الأمة الإسلامية للنفير العام عند أول بادرة تشعر بانتهاك حرمت لديار الإسلامية .

وهذا يستلزم المرابطة على الحدود ، والحراسة القوية للثغور ، وتدريب كل بالغ رشيد على حمل السلاح وإجادة استعماله ، وتنويع آلات القتال مع تغير الزمان ، ومما يمكن للمسلمين فى هذا الأمر أن تنشأ فى ديارهم المصانع الكاملة لبناء الأساطيل الحربية من جوية وبحيرية وبرية ، وإيجاد معامل البحث والدرس ، وإعطاء الفرصة كاملة وإتاحتها دائماً للمفكرين المسلمين ليصلوا بأنفسهم إلى ما وصل إليه غيرهم ، ويتفوقوا بجدهم ودأبهم .

ولما كانت الأمة الإسلامية قد أهملت إن طوعاً وإن كرها أمثال تلك البحوث  
واكتفت دور العلم فيها بالأمر النظرية وتاهت في فلسفات بعيدة عن هذا الميدان ،  
فأولى لها الآن ودون إبطاء أن تبتعث إلى مختلف الأقطار المتقدمة من يدرس يتعلم  
ويتفقه مدركا حاجة بلاده إلى المعارف المعاصرة مما يدور هناك في المصانع ودوائر  
البحوث مهما كان نوعها ، وأيا كان مصدرها .

فقى الأثر : ( خذ الحكمة ولو من فم كافر ) ثم يعود أولئك الدارسون إلى ديارهم  
معلمين ومؤسسين للدراسات العلمية العملية في كافة صورها ، يقول الله سبحانه :  
﴿ قَالُوا نَفَرًا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ  
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (1) .

ومعنى الآية الكريمة ليس بعيداً عما تقصد إليه من لزوم تعلم العلوم التي يسمونها  
دنيوية ، ولا أجد فارقاً بين علم دنيوي وأخرى ، فالكل موصل إلى التمكين لمن تعلمه في  
الأرض والنصرة على أعدائه في كل ميدان ، وهذا هو طريق الحصول على مرضاة الله  
تعالى إذ هو مصدر للقوة (والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) .

وقد فسر العلماء الذين سبقونا في الزمان هذه الآية الكريمة بما يؤيد ذلك المعنى ،  
فقال القرطبي ما نصه : ( ليتفقها في الدين ) أي ليتبصروا ويتيقنوا بما يربهم الله من  
الظهور على المشركين ونصرة الدين ، قال أبو بكر بن العربي : ( وهذا يقتضى الحث  
على طلب العلم بأدلة والتعمق فيه ، وذلك بحسب ما يسره الله على عباده وقسمه بينهم  
من رحمته وحكمته سابق قدرته ) .

وروى الدرامي في كتاب ( بيان العلم ) عن الأوزاعي عن الحسن قال : سئل رسول  
الله ﷺ عن رجلين كانا فيمن سبقنا من الأمم ، أحدهما كان عالماً يصلي المكتوبة -  
حسبما ورد في تعاليم نبيه - ثم يجلس فيعلم الناس الخير ، والآخر يصوم النهار  
ويقوم الليل - ولا يعلم أحداً شيئاً مما علم - أيهما أفضل ؟ فقال رسول الله ﷺ :  
( فضل العالم الذي يصلي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي  
يصوم النهار ويقوم الليل ، كفضلي على أدناكم ) .

(1) الآية 122 من سورة التوبة .

قال العلماء السابقون من شرح هذا الحديث : المراد بتعليم الخير هنا ، ما يشمل علوم المعاش والمعاد ، فبالأول تكون الغلبة على الأداء والنصرة على الكافرين ، وبالثانية يكتسب رضوان الله وعونه ، وواضح بدهة من روح تعاليم الإسلام ، وهدى سيدنا رسول الله ﷺ ، أن كل ما يعمل مقصودا به الدفاع عن حوزة الأمة الإسلامية ، وإعلاء كلمة الله تعالى هو من الباقيات الصالحات التي هي خير ثوابا وخير أملا ، وإن من جلس في معمله أو في مصنعه يكشف مخبات الكون ويزيل النقاب عن أشياء لم يسبق إليها كان ذلك مما يضاعف ثبوته عند الله ويرفع درجته في الصالحين .

فهناك وسائل للحياة الحرة الكريمة لا ينبغي أن يظل المسلمون يستجدونها من غيرهم ، فقد تنوع وسائل الدفاع والقتال ، كما أصبح لاستغلال موارد الأرض والبحار ، وغيرهما الكثير من الطرق والآلات ، ولا يمكن الحصول على الجنى المستطبات إلا باستعمال مكتشفات العقول النيرة التي خدمت الإنسان في ميادين لحياة الصناعية وغيرها ، وفي وصول الآلات ذات الحدين إلى يد المؤمن الذي يخشى الله واليوم الآخر ضمان لعدم استعمالها في إيذاء الآخرين والسطو على حقوقهم واغتصاب أوطانهم كما هو دأب أعداء الإنسانية الذين لا يتورعون عن الولوع في دماء الأبرياء ، والذين يهيجون الدول الواقعة تحت سلطانهم بعضها على بعض ليضمنوا أسواقاً رابحة لما تنتجه مصانعهم من وسائل الهلاك والدمار والإفناء ، ثم ليخلو لهم الجو فيبيضوا ويصفروا ، ويستولوا على خيرات الدنيا دون منازع أو رقيب ..

3 - وفي اللحظات التي تحياها الأمة الإسلامية الآن يجري دم أبنائها على يد الطغاة في كل مكان ولا أرى وسيلة تصد عنهم العدوان إلا اعتصامهم بالله ، وجمع شملهم وتوحيد كلمتهم ، وبذ كل ما يسبب الخلاف بينهم ، وأطراح ما يدعو إلى التفرق حتى يعملوا يدا واحدة مقاتلين دون أموالهم وأعراضهم مستصرخين النافر منهم ، مراحمين متوادين ، مطيعين لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ <sup>(190)</sup> وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْفُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلَكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ <sup>(191)</sup> فَإِنْ اتَّهَمُوا

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>(192)</sup> وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ<sup>(193)</sup> . (1)

وبعد ، ففي أثناء دراسة الحديث وتسجيل شرحه كما وفق الله سبحانه وتعالى سألتني أحد الأبناء الحريصين على فهم مرامى السنة الشريفة ، قائلاً : هل تجوز الاستعانة بالكافر في حروب المسلمين مع أعدائهم ، ولم أجد جواباً أفضل ولا اصدق من قول سيدنا رسول الله ﷺ وفعله فهو عليه أفضل الصلاة والسلام القدوة والأسوة .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة رضی الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت : خرج رسول الله ﷺ قبل (بكسر القاف وفتح الباء الموحدة) بدر فلما كان بـ (حرة الوبرة)<sup>(2)</sup> أدركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه ، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ : جئت لأتبعك وأصيب معك ، قال له رسول الله ﷺ : (تؤمن بالله ورسوله) ؟ ... ، قال : لا ، قال : (فارجع فلن أستعين بمشرك) ، قالت ثم مضى ، حتى إذا كنا بـ (الشجرة) أدركه الرجل ، فقال كما قال أول مرة ، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة ، قال : (فارجع فلن أستعين بمشرك) قالت ثم رجع فأدركه (بالبيداء) فقال له كما قال أول مرة : (تؤمن بالله ورسوله ؟) قال : نعم ، فقال له رسول الله ﷺ : (فانطلق) .

والمسلم الحق هو الذى يرتضى كل ما ورد عن رسول الله ﷺ وطبقه على سلوكه واعتقاده ولا يبغي به بدلاً ، ولهذا ليس لنا ما نضيفه جواباً على التساؤل فوق ما ورد عن سيدنا رسول الله ﷺ ، ففي طياته تكمن حكم وتوجيهات يحتاج بيانها إلى مجلدات ، ولدى المؤمن من إيمانه ما يكفيه للرضى والقبول الحسن ، والله يهدى من يشاء إلى الصراط المستقيم ، صراط الله الذى له منا فى السموات والأرض ومن بيده ملكوت كل شىء وهو اللى الحميد سبحانه وتعالى العزيز الحكيم لا إله إلا هو ربى عليه توكلت وإليه أنيب .

(1) الآيات من 190 - 193 من سورة البقرة .

(2) اسم مكان .

## العمل والجزاء

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وسلم  
فيما يرويهِ عن ربه عز وجل قال : (قال : إن الله عز وجل كتب  
الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها  
الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هم بها وعملها كتبها الله له عنده عشر  
حسنات إلى سعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم  
يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها  
الله له سيئة واحدة) .

(رواه البخارى وغيره بلفظ مقارب)

قال الحافظ بن حجر العسقلانى يحتمل أن يكون هذا الحديث مما تلقاه النبى  
ﷺ عن ربه بلا واسطة ويحتمل أن يكون مما تلقاه بواسطة الملك .

الحسنة : ضد السيئة وفى التنزيل : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ، والجمع  
حسنات ولا يكسر ، والمحسنات فى الأعمال ضد المساوىء ، وقوله تعالى :  
﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أى يدفعون بالكلام الحسن ما ورد عليهم من سىء غيرهم .  
والسيئة : الخطيئة ، وسىء وسيئة عملان قبيحان ، وبصير السبيى نعتاً للمذكر من  
الأعمال ، وليسيئة نعتاً للمؤنث منها ، وفى القرآن الكريم : ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ  
وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَجِئُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (1) .

وهم بالشىء بهم هما : نواه وأراده وعزم عليه . ومن معنى الهم : ترجيح قصد  
الفعل يقال : هم بالشىء قصده بهمته .

1 - الله رحيم بعباده ، رؤوف بهم ، أرسل إليهم رسله مبشرين ومنذرين لسلوكوا  
بهم شعاب الحياة دروبها فى يسر ، منيرين لهم دجنتها ، ليصلوا إلى غاياتها الكريمة  
على هدى وبصيرة ، وليضعوهم فى أول درجات السلم ثم يرتقوا فيه على مقتضى السنن

(1) الآية 43 من سورة فاطر.

الكونية وطبائع الأشياء ، ولم يكلفهم ما لا يطيقون ، وجعل لكل عمل نافع مثوبة ، ويقدر اتساع رقعة التطبيق والفائدة تكون جزالة العطاء من الله تعالى والتفضل ، واقتضت سنته في الكون أنه لا بد من عمل وسعى وقوة وعزم ، ونفاذ إرادة ، وصبر ومداومة لكي يصل السائرون في مختلف المسالك إلى أهدافهم ، ويجنوا ثمار جهودهم وينعموا بالبهجة والسعادة وقت الحصاد ، وإبان الجنى وحين نتأمل سلوك سيدنا رسول الله ﷺ في السر بالدعوة إلى ما استقرت عليه من كمال في جميع مناحيها ومقاصدها ، ووضوح منهاجها ، نجد العمل الواقعي هو العدة في كل خطوة خطاها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وهنا لا أستطيع أن أقول : إن السير الدقيق المنتظم الذي نراه في كل حركة وسكنة سيدنا رسول الله ﷺ في انتقالات الدعوة من مرحلة ضيقة النطاق لا تتجاوز المخالطين في المعيشة والسكن إلى العشيرة الأقربين مستهلة بدعوة شركاء النسب وذوى القربى القريبة ، واللحمة البعيدة ، إلى أن تتجاوز كل الحدود على مختلف الآفاق ، فيقول رسول الله ﷺ فيما يرويه مسلم : (والذي نفسى بيده لا يسمع إلى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار) ويقول الله عز جل : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(1)</sup> .

ثم ما كان من الهجرة الكبرى إلى يثرب ومفارقة للأهل والوطن وما تلا الهجرة من غزوات وحروب . أقول : لا نستطيع أن ننسب هذه الخطة الدقيقة إلا إلى الله رب العالمين ، ومنفذها في الواقع المحس هو سيدنا رسول الله ﷺ ، ومن دلالاتها ، التوجيه القوى للأمة التي استجابت للنداء ، أن تدرس أمور حياتها وكونها على ظهر الأرض دراسة مستنيرة واعية ، فلا تقدم على عمل إلا بعد معرفة أبعاده ، ونتائجه وأن تتيقظ لكل ما يحيط بوجودها ، وما يسرى قواعد الدولة على أسس لا ينال منها الزمان ولا الإنسان ، بل ولا تتناولها الأحداث ، وهنا لا بد من وقفة مدركة لتوجيهات الإسلام المستوحاة من القرآن العظيم والسنة الشريفة تلك هي : إن الجدير بالانتساب إلى الإسلام ، والحقيق باسم المسلم كما يريد الله ورسوله هو الذى يصل ليله بنهاره

(1) الآية 28 من سورة سبأ

كادحا جادا فى إيجاد مصانع أدوات الحياة فى الوطن الإسلامى ومن أسس البقاء الكريم نماء إنتاج القنابل الذرية وإضرارها فى أرض الإسلام ، شريطة أن تنهض بها عقول مسلمة وجوهها لله تعالى مؤمنة بعظمته وعونه ، وإنه بالغ أمره ، فهذا هو الفيصل بين الحق والباطل ، وتلك هى العدة التى أمرنا بإعدادها فى بعض آى الذكر الحكيم فلئن قيل فما مضى من زمان .

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

فإنه يقال هذا فى كل حين وزمان ، وبأخذ السيف أسماء متعددة متغيرة مع رقى وسائل الدمار ، وتقدم الإنسانية فى هذا المضمار ، وكما كانت الأمة الأقوى هى الأكثر سيوفا ، فما زال ميزان (القوى) منوطا رجحانه بالقنا والقنابل ، وهنا يتداعى إلى الأذهان حين قراءة هذا القول سؤال ربما يظن أنه ليس له جواب حاسم ، ولنقطع تلك الحيرة ونجيب بما نراه فى هذا الصدد ولعل لغيرنا من العلم ما لم يبلغه إدراكنا ولم يصل إليه علمنا ، وبعد الاستعانة بالله على الصواب ومجانبة الخطل والخطأ نورد السؤال وما يوفق الله إليه من جواب :

كيف وصل غيرنا إلى ما وصل إليه فى هذا الميدان ، وما هى طريقنا إلى اللحاق بالقافلة ؟ ونجيب ، نشأ الاكتشاف فى دولة ثم تسرب إلى أخرى وذاع وصار من الممكن أن يدرس ويدرك ، ووقائع أحوال أبناء إسلام فى بلاد الشرق والغرب تشير إلى رؤوس وأمخاخ وعقول مستنيرة استنارة ذرية علمية واقعية منتجة فى هذا الحقل ، وما ينقصنا إلا الأخذ بيدها وتهيئة الأسباب والأجواء الصالحة لإنتاجها ، ومن سار على الدرب وصل ، ولنصبر ونصابر على المدى طال أو قصر ، مع دأب ودرس وإنتاج محلى وعمل على اكتفاء ذاتى فالأسماع قد صمت من (أسطوانات) القدماء وأمجادهم وتريد أن تصيغ إلى مجد حديث يضاف إلى التليد ، وتلك أمور لا تأتى ارتجالا ولا عفو خاطر ، وإنما تحتاج إلى لقاء عقول وأفكار ، وسرعه فى رسم خطة عملية مستمرة مع الحياة التى لا يتوقف سيرها ومن أراد إيقاف عجلاتها حطمتها وتركته أثر بعد عين ، ووادى الإسلام المهيب الجانب هو الذى تدور فيه مصانع كل شىء من الإبرة إلى الذرة ، وليس الإسلام هو ما يحكى كل يوم فى كلمات نظرية تردد

أقوالا غبر بها الزمان ، ولم يعد لصداها أى أثر فى النفوس .

والم تأمل فى بعض أحاديث الرسول ﷺ ، يدرك أن الفقه الحقيقى لها كان غائبًا ولا يزال عن مدارك الحالكيين والسامعين ، ولنضرب لذلك مثلا بحديث تداعى الأمم على المسلمين ، حيث نرى فهما فجا وإدراكا ضعيفا لما يهدف إليه .

أليس فى طياته ما يشير إلى ضعف يصيب المسلمين ، وانحلال يحل بواديهم فيحيل كثرتهم غثاء ، وجمعهم ثقافة ، وما لديهم هباء ، بلى هو كذلك ، فهل تدبر المسلمون موارد الضعف واحتاطوا لها ، وحاولوا توقيها حتى لا تحل بواديهم ولا يقعوا فيها ، الجواب : لا .

لقد أصبح واقعهم نسيانا للتذكير وإهمالا للتوجيه وانتظارا للموت والإبادة ، على أن هذه نهاية محتومة وما عداها أمور موهومة .

ويقينى أن كل ما أشار إليه سيدنا رسول الله ﷺ مما ظاهره نذر خراب وفساد ، إنما هو دعوة صريحة للعقلاء أن يفكروا فى الأمر قبل وقوعه لتداركوا أخطاره ، وليتلافوا شروره ولكن انعكس الفهم فضلت القافلة الطريق فتردت فى مهاوى صار الخلوص منها صعبا ولكنه ليس محالا مع صدق العزائم والإدراك الحقيقى لأهداف التوجيه النبوى الكريم .

2 - يعلم الله الذى وسع كل شىء علما ، أن فى كل عمل أخطاء ، وأن الكمال الكامل لا يصل إليه مخلوق محدود القدرة والفكرة . فمهما أوتى من علم فالله هو العالم الحق ، وقل ذلك فى كل صفة ونعت تحبسه ومن أجل هذا أخبر نبيه سيدنا وحبيبنا رسول الله ليخبرنا بأن لا نياس من رحمته عند وقوع الأخطاء ، وليعلمنا أن الله يرانا ويراقب أعمالنا وأنه قد أوحى إلى ملائكته أن يتصرفوا وفق إرادته هو وعلى مقتضى رحمة لرحيم بعباده لضعفاء ﴿وَوَخَّلِقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾<sup>(1)</sup> .. فانظروا إلى ما بين أيدنا من قول رسول الله حاكياً عن ربه عز وجل حيث نلحظ منتهى العطف والرأفة بالعباد الذين كلفهم الله بالعمل والجد ، فأبان أنهم سيخطئون وبهمون بفعل ما

(1) الآية 28 من سورة النساء .

يخالف المروءة والحق ولكنهم قد لا يواقعون الفعل فإذا ترك (بالبناء المجهول)  
الفعل السيئ خشية لله كتب حسنة قد تضاعفت .

وإذا جاوز المسيء ولو كان التجاوز لأمر خارج عن الإرادة ، عفى عنه ولم  
يسجل عليه شيء في صفحات المسئولية الإلهية .

وإذا أراد مسلم عمل خير ولم يستطع التنفيذ سجل ذلك له حسنة كاملة عند الله  
تعالى ، وأما إذا هم ونفذ ما أراد من عمل نافع مفيد فهذا يضاعف في كتاب  
الحسنات أضعافا كثيرة ، ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ  
سَبْعَ سَوَابِلَ فِي كُلِّ سَبْتَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (1) كما  
يشير الحديث الشريف إلى أن من نفذ سيئة جوزى بها سيئة واحدة لا تزيد .

وفي ختام هذا البحث : أؤكد أن الأعمال التي ترفع بها الدرجات وتزداد بها  
الحسنات هي ما مكنت نتائجها لدين الله تعالى في الأرض ، وما أثمرت عزة وقوة  
للإسلام والمسلمين ولا يمكن أن تنحصر في صلوات لا روح فيها ، ولا صيام لا غناء  
منه ، ولا حج قصاراه رحلة شكلية .

فإن لم تكن الصلاة تنظيما لحرب وقاتل تحت إمرة قائد رشيد ، والصيام كفاحا  
وصبرا يعين على احتمال الشدائد ، والحج تمرينا عمليا على رحلة شاقة في سبيل  
أهداف الإسلام السامية أقول إذا لم يكن ذلك كذلك مضافاً إليه بذل المال في إقامة  
مصانع الحياة الحرة المتمثلة في إنتاج ما يكفى البلاد من معاش وما يدفع عنها أذى  
أعدائها بمثل أسلحتهم مع خروج كل ذلك من بين أيدي مسلمة لله وجوهها مؤمنة  
إيماناً كاملاً بقدرته وعونه فقل على دنيا المسلمين العفاء .

وأعتقد أن هذه هي الأعمال التي تضاعف حسناتها ويعفو الله عن سيئاتها  
مضافة بل ومؤسسة مع غيرها مما حفلت به آثار رسول الله ﷺ من نافع الأعمال في  
الدنيا مزرعة الآخرة .

والله أعلم .

(1) الآية 261 من سورة البقرة .

## المسئولية

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال :  
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (كلكم راع وكلكم  
مسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله  
وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيته  
، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، والولد راع فى مال أبيه  
ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) (1) .

هذا الحديث الشريف جامع للقوى الساهرة على منافذ المجتمع ، التى بقوتها  
حفظ كيانه ، وإدامة استوائه على أشده ن وبيقظتها استمرار تطوره إلى الأفضل ، وسد  
لثغرات الفساد ودفع لها بعيداً عن ساحته فقد جمع هذا الكلم الشريف الرؤوس التى  
لو عمرت بالخير وأدت وظيفتها كاملة لسعدت أمة الإسلام وقويت ، واحتلت مكان  
الصدارة فى الوجود الإنسانى ، فلم يخرج عن دائرة هذا القول وذلك التحديد من  
يعتد به ، فالإمام والمراد به الوالى الحاكم الراعى للأمة كلها هو المحور الذى تدور  
عليه كل مقدراتها ، ورب الأسرة سيد فى أهله إن ذل ذلوا وإن سما سماوا .

والمرأة الزوجة قريبة له وند ، لها دورها الأولى فى الحفظ والتوجيه والرعاية ،  
والخادم أمين مؤتمن على سر العائلة وعلنها مادياً ومعنوياً ، فهو ليس غريباً عنها وإنما  
هو واحد منها له حقوق وعليه مسئولية ، والولد إلى جانب أبيه سند له وقوة ، وعلى هذا  
فالكل حافظ للكون الاجتماعى ، ولن يفلت من مسئوليته أمام علام الغيوب الذى لا  
يخفى عليه شىء ، وأمام الأجيال التى تعاصره والتى تجيء من بعده ، والتاريخ حكم لا  
يضل وسجلاته لا تغفل عن شىء ، وفوق ذلك كله فإنه العلى المجيد وسؤاله للعباد وارد

---

(1) الراعى يرعى الماشية أى يحوطها ويحفظها ، وأكثر ما يقال : رعاية للولادة ، والرعياء لراعى الغنم ،  
ورعى الأمير رعيته رعاية . ورعى الإبل أرهاها ، ورعاها بها يرعاها رعياء ورعاية حفظه ، وكل من ولى  
أمر قوم فهو راعيهم ، وهم رعيته .

ومعنى (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) أى حافظ مؤتمن والرعية كل من شمله حفظ الراعى  
ونظره ... عن لسان العرب ص 1188 ج 1 - طبع بيروت .

لا محالة : ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَيَنِّيهِ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (1).

وانطلاقاً من الفهم المستنير النافذ إلى أغوار معاني كلمات سيدنا رسول الله ﷺ نجده عليه أضل الصلاة وأزكى السلام قد وجه كل فرد من ذكور الأمة وإنائها شبيها وشبابها إلى ما عليه من واجبات هو مسئول عنها ولو أحسن أداها لاستكملت الأمة قوامها ، كما أوضح أنه لا يحق لامرئ يحترم نفسه ووجوده أن يعيش لنفسه وحده دون نظر إلى وجود غيره ، ومن الحكم المشهورة : (ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط) .

### 1 - (الإمام راع ومسئول عن رعيته) :

الإمام - كما سبق - هو القمة في الأمة ، وهو قدوتها ، ومصدر كل توجيه فيها إذا توافرت فيه شروط الولاية الإسلامية ، وعمر قلبه بحب الله ورسوله ثم وطنه وقومه وعشيرته ، وأدرك أن وجوده من وجود شعبه ، وأنه لولاهم لم يكن ، حاول جاهداً إيصال كل حق إلى صاحبه ، وأدرك أنه مسئول عن كل صغيرة وكبيرة في طول بلاده وعرضها ، وأن مسؤوليات تفوق كل مسئولية ، فحافظ على ثغور بلاده بالمرابطين الأقوياء عدداً وعدة ، ونمى الثروة وارتفع بمستوى الأفراد ، وأنشأ لكل حاجة وطنية مصنعاً يبتدئ من الخيط الدقيق إلى الآلات الثقيلة حتى يحدث للوطن وأبنائه الاكتفاء الذاتي من كل مقومات وجودهم ، وعبأ الجهود كلها للعمل النافع المفيد ، فالزراع إلى حقولهم ، والصناع في مصانعهم ، والمعلمون في دور العلم والعالمون في معاملهم ، والجيوش في مواقعهم ، والكل مترابط مزود بالمحبة والتعاطف والتفاني في أداء الواجب الموكل إليه ، فهو راع ومسئول عن رعيته .

وحذار أن يمتاز الحاكم العادل الواعي عن أفراد أمته في مسكن أو ملبس أو أي مظهر من مظاهر الحياة سوى القوة العقلية والإرادة الحازمة والأوامر الرشيدة النافذة ، واللجوء إلى الله وحده في كل نازلة ، والاستعانة به سبحانه في الشدائد ، والاعتصام

(1) الآية 30 من سورة آل عمران .

بهدى القرآن ونور النبوة الآمنة ولتتعامل مع العالم المحيط به ويقومه معاملة ند  
لأنداد لا يذل ولا يهني ، ولا يتخاذل ولا يضعف فما من أمة مهما بلغت قوتها تستطيع  
أن تعيش فى معزل عن أضعف أمة فى الوجود .

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وكل من ولى شيئاً من السلطة العامة وعهد إليه بمصلحة من أمور الأمة مهما  
ضوءل أمرها أو قوى واشتد أثرها فهو راع ومسئول عن رعيته .

## 2- (الرجل فى أهله راع ومسئول عن رعيته) :

وأول من يسأل عنه من شئون أهل وأسرته ، هو السعى على معاشها واكتساب  
قوتها ونفقاتها ، ويجب أن يحدث هذا بعد تأمل وتفكير واختيار أفضل الطرق  
الموصلة إلى الكسب الحلال من وجهه المشروعة ، واستدامة اليقظة والرقابة لما  
عسى أن يعترض طريقه من عقبات فيحيد عنها ، أو فرص فيسارع إلى اغتنامها ، مع  
إدانة الكد والجد ، مع شدة الاحتراس من التهالك المفسد لدينه المضيع لمروءته ،  
والابتعاد عما يغضب الله وما يسيء إلى مواطنيه ، ومع هذا يحافظ على أفراد أسرته  
من الانزلاق فى مهاوى الفساد حتى لا يكونوا حطباً لنار جهنم ، ولتأمل دائماً قول  
الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقْوُدْهَا النَّاسُ  
وَالْحِجَارَةُ .. ﴾ (1) .

وذلك يستلزم تربية ناشئة الأسرة على قواعد الدين والأخلاق الكريمة . واحترام  
المبادئ الإسلامية فى عاداتهم ومعاملاتهم ، كما يراقب حركاتهم وسكناتهم بفكر نير ،  
وعقل يقظ ، ولا سيما فى مرحلة المراهقة حيث ثورة القوى الحيوانية ، وتوثبها ، كما  
يجب أن يرشدهم إلى مسالك الحياة الصحيحة ، وبوجههم إلى ما ينفعهم فى كسب  
معاشهم ، والاستعداد لمعادهم ، ويعودهم المحافظة على صحتهم الجسمية والعقلية ،  
وتمضى بهم فى مراحل التعليم إلى نهايتها مع استيعاب ونجاح ، وامتنياز فى النجاح ،  
ولا شىء أجدى فى التربية من القدوة العملية ، فليكن رب الأسرة هو مثلها الأعلى فى

(1) الآية 6 من سورة التحريم .

السلوك ورائدها فى كل خير ، وقدوتها فى كل عمل نافع مفيد ، ويدخل فى هذا ملازمته لأسرته فى كل حالاتها فلا يبعد عنها إلا للضرورة القصوى التى لا يستطيع لها دفعا ، وبهذا يتحقق له دعاء الصالحين المسطور فى قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾<sup>(1)</sup> .

ومن أدب نفسه أدب أهله ، جنى الثمار الطيبة آجلا وعاجلا ، واستحق شكر أسرته واحترام مواطنيه ، حيث أقام فيهم لبنات صالحة بها تقوى شوكتهم ، وتشهد سواعدهم وتحصل سعادتهم فى الدنيا والعقبى .

### 3- (المرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها) :

للمرأة الصالحة القدح المعلى والمكانة المرموقة فى الأسرة ، فهى سر السعادة ، وعلى وجودها تدور الحياة الكريمة ، هى فى الواقع قائدة وليس مقودة ، هى الرحمة - إن صلحت - والجحيم إن فسدت ، والمرأة التى تدرك دورها الحقيقى فى بناء الأسرة هى الزوجة التى يقول فيها سيدنا رسول الله ﷺ : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) .

تلك هى ذات الدين العارفة بريها المصدقة لنيبها ، المؤمنة بأسرتها الساعية فى حفظ كيانها ومراعاة مصالحها يحملها رسول الله ﷺ مسئولية رعاية زوجها وولدها ومالها وخدمها وكل ما يتصل بحياتها ، هى التى تدرك أن سعادتها الحققة فى إسعاد أسرته فى تربية أولادها ، فى حفظ ما لزوجها وما عليه ، تسره إذا حضر وتحفظه إذا غاب ، وهى شقيقته فى الحياة (إنما النساء شقائق الرجال) ، لها من الحقوق مثل ما عليها من الواجبات ، تدبير نظام بيتها ، وتكبح جماح رغباتها تقتصد فى حال اليسر ما يكون عدة حين العسر ، تتعاون مع زوجها فى إحسان تنشئة أطفالها ، ترضهم المكارم مع لبنها ، وتغذيهم بالمكرمات مع حضانتها لهم ، هى دائما باشة هاشة طلقة المحيا أم رؤوم ، وزوجة عطوف ، ورائدة حكيمة ، ورعاية أمينة ، تنشئ أطفالها على المحبة والتعاون والإحساس بالآلام غيرهم وإسداء المعروف لكل من عرفوا ومن لم يعرفوا ، تحافظ على شعور من عايشها فى بيتها من زوج وولد وخدم وأقارب ، وتتعلم أنها فى صلاحها

(1) الآية 74 من سورة الفرقان .

وتقواها تقود الأسرة إلى سعادتي الآجلة والعاجلة ، ولتدرك أن كل كبيرة وصغيرة فى بيت زوجها بين يديها فى حاجة ماسة إلى عنايتها وجميل رعايتها ، وأنها مسئولة بين يدي الله تعالى عن كل ما صدر منه ، وأنه لا جزاء لصلاحها وكرم خلقها إلا الجنة .

وتوزع حبها وحنانها على الجميع بالقسطاس المستقيم فالكل يرنوا إليها ويتمنى نصيباً من رعايتها ، لا فرق بين بنين أو بنات فهم جميعاً منه وإليها والله معينا ومسددا خطاها إن لاذت بحماها ، وألقت برحالها فى رحابه .

#### 4 - (والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته) :

للخادم فى نظر الشرع الشريف أثره وخطره ، يغشى الأسرة ويطلع على سرها وعلنها ، وكثيراً ما يترك له التصرف فى أموالها ، وقد جعله سيدنا رسول الله راعياً فى مال سيده ، وحمله مسئولية حفظ ذلك المال ، وحسن القوامة على إدارته حين يعهد إليه ما يتصرف فيه بمحض إرادته ، فعليه أن يكون أميناً بعيداً عن الربب والشكوك متجنباً للمسالك البعيدة عن الخير التى يتردى فيها من لا خلاق لهم ، وأن لا يغمض عينيه عن حق سيده طمعاً فى أن يستفيد هو شيئاً حراماً من المال المؤتمن عليه ، كما أن على الخادم واجبات حيال سيده ، فإن له حقوقاً لا تنكر فقد ورد فى صحيح البخارى أن أبا ذر الغفارى قال : قال رسول الله ﷺ : (إن إخوانكم خولكم<sup>(1)</sup> جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم) .

وفى الخادم الصالح يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن مالك عن نافع بن عمر رضى الله عنهم : (العبد إذا نصح سيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين) وفى الموطأ وصحيح الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : (للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ولا يكلف من العمل ما لا يطيق) .

(1) الخول بفتح المعجمة والواو : هم الخدم ، سماوا بذلك لأنهم يتخولون الأمور أى يصلحونها ومنه (الخولى) لمن يقوم بإصلاح البستان ، ويقال الخولى جمع خائل وهو الراعى التخويل : التملك ، تقول : خولك الله كذا أى ملكك إياه ، وفى تقديم لفظ إخوانكم على خولكم إشارة الى الاهتمام بالأخوة - عن فتح البارى ص 100م ، 6 طبع مصطفى الحلبي بالقاهرة .

وهكذا حرص الإسلام دائما على حفظ الحقوق الإنسانية كاملة غير منقوصة مهما كان وضع ذلك الإنسان تابعا أو متبوعا ، فمن عرف حقه قام بما عليه من واجب ، وبذلك تستقيم أمور الحياة وتسير فى طريق غير ذى عوج .

## 5- (والولد فى مال أبيه راع ومسئول عن رعيته) :

يقول بعض شراح الحديث من شيوخنا الأجلاء رحمهم الله تعالى : (هذا سير مع ما يجرى كثيرا فى متعارف الناس ، إذ ينشأ الولد فى حجر أبيه حتى يبلغ أشده وتكمل رجولته ويدخل فى طور التكليف ، ولا تزال يده تجول بالتصرف فى مال أبيه كما يتصرف المالك فى ملكه ، فالشارع الحكيم يقر هذه الحالة على ما هى عليه ويرشد من هو كذلك إلى أنه فى تصرفه راع مسئول ، لا مطلق التصرف من جميع الوجوه ، فيجب أن يكون تصرفه تصرف القيم الأمين لا تصرف المالك المطلق) وهذا قول له وزنه وقيمته فالشباب فى حاجة ماسة إلى مثل هذه النصيحة القيمة لأن طبيعة الشباب يغلب عليها التبذير وبعثرة المال ، لأن التجارب لم تحكم أمورهم ولأن نفوس الشباب أسرع إلى الزهو والاعتزاز بمكذوب الثناء ومعسول القول ، فهم عرضة لأن تسلبهم أصحاب الألسنة المدقة ، والنفوس المتملقة ما بأيديهم وفوق ذلك لم يكدوا ولم يحصلوا لمال بمشقة ولم يذوقوا عناء جمعه حتى يدركوا قيمته ، ولهذا جاء التعبير الشريف : (راع فى مال أبيه) ليشير إلى أن مال الأب سهل المنال بالنسبة للأبناء فعليهم أن لا يسرفوا ، وليتأملوا قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ وقوله جل شأنه : ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ .

وجاء فى ختام الحديث الشريف : (وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) فكان هذا القول إجمالا بعد تفصيل ليقرر ما سبق ويزيده تأكيداً وليدخل ما عساه لم يدخل فى التفصيلات السابقة كمرعاة الجار شئون جاره والصديق مهام صديقه ، بل كمرعاة المرء شئون نسه الخاصة من ضبط جوارحه وحواسه ، ومسئول عن كل ذلك ، وقد قيل : (من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه) .

نسأل الله جللت قدرته أن يوفق كل راع مسئول فى رعاية ما استرعاه ، إنى ربى سميع مجيب هو نعم المولى ونعم الموفق والمعين .

## سیدی رسول اللہ ﷺ

عن الصعب<sup>(1)</sup> بن جثامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
(لا حمى<sup>(2)</sup> إلا لله ورسوله) .

(رواه البخارى)

كل عاقل يحب أن يستكثر من الخير ، وكل قوى يريد أن ييسط سلطانه على ما تؤهله له قوه ، ولا يخلو الأمر فى كل حال من ظلم يحيق بآخرين ، وتعد على مستضعفين ، وقد مر يوم بالحياة قاهرون ومقهورون ، غالبون ومتغلبون ، ولو أن البشر تركوا وشأنهم دون قيادة حازمة تضع كل شىء فى موضعه ، وتعمل على إيصال الحقوق لأصحابها لصارت أوضاع الناس فوضى حيث لا هادى ولا رائد ولا حامى ولا زائد ، وفى هذا الحديث الشريف بوجه رسول الله ﷺ متزعمى الجاهلية إلى ربهم القوى ويمضى بهم إلى رحاب رسوله المصطفى ويعلمهم أن كل شىء لله وحده ولا يحق لعبد أن يخص نفسه بزائد يتجاوز به حدود رب العالمين .

فقد روى أن هذا القول الشريف موجه أصالة إلى شرفاء لجاهلية الذين كانوا إذا نزل أحدهم ، أرضاً استعدى كلباً فحمى مدى عوائه لا يشركه فيه غيره ، وهو يشارك القوم فى سائر ما يرعون فيه ، فكان هذا التوجيه نهياً عن فعل ممقوت ، ضرره يقع على الأكثرين ، ويعود فضله على آحاد ، ويستمر واجب التطبيق فى كل عصر ومصر حتى ينفخ فى الصور لا يقبل نقداً ولا تعديلاً ، لأن مصدره من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ومبلغه ومنتفذه المجتبى المختار .

والإسلام فى حاجة ماسة إلى إدامة الدعوة إلى تطبيق مبادئه القويمة ، حتى تثبت فى الأرض وتستقر فى النفوس وتصبح واقعا عمليا لا يترك ولا يهمل ، فلا بد من تبصير

(1) الصعب ، فتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وجثامة بفتح الجيم وتشديد المثناة ، لثنى .

(2) الحمى - لغة : المحطور ، وفى الاصطلاح الفقهى . ما يحمى الإمام من الأرض الموات لرعاة يعينها لهم ويمنع سائر الناس من النزول فيها . ويطلق الحمى أيضاً على محارم الله تبارك وتعالى . وفى الحديث الشريف (ألا وإن حمى الله محارمه . ومن حام حول الحمى يوشك أن يواقعه) .

أممه وشعوبه بمناهجه الصريحة السليمة البيّنة ، التي ترسى أسس العمران القائم على مجتمع متكاتف متحاب ، متحد متساند .

ولا ينمو ولا يزدهر إلا بدعاة مخلصين مؤمنين بالله وحده ورسوله الأمين :  
﴿رَجُلٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ ووثقوا بقيوم السموات والأرض ، وعرفوا عن يقين لا يتسرب غليه شك . ولا يداخل ريب ، أن الله الذي رفع السموات بغير عمد ، ويسط الأرض ودحاها ، ذلك الإله القوى القادر القاهر العظيم هو رب محمد النبي العربي الهاشمي القرشي ، سليل أمة شرفت به في دنياها وأخرها ، وقد رعاها في الجاهلية وتعهد وأدبه فأحسن تأديبه ، وأكرمه إذ حال بينه وبين الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، واختاره من بين خلقه أجمعين لحمل الرسالة اداء الأمانة إلى نانس كافة ، وحفظه بعنايته من شياطين الجن والإنس ، وجعله من أولى العزم ، تحمل الأذى من قومه وصبر عليه .

فقد أودى في سبيل الله فصبر حسبه الله ، ألقى عليه الحجارة وبعق على وجهه الشريف ، جمعت القاذورات على باب داره ، وأخرج من بين أهله وعشيرته ، فما وهن عزمه ، ولا ضعفت إرادته ، ولا أوغر صدره على أحد ولا قسا أبدا حين قدر : ولا تخاذل في القيام بالمهمة التي وكلت اليه ، بل مضى قدما في الدعوة الإلهية وجاهد وجالد وصبر وصابر ، كان جوابه الدائم للمعاندين ، والمؤذنين والمعوقين جواب الأب الرحيم ، والأخ الكريم ، والرسول الحكيم ، (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون) .

وهنا تتساءل : هل كان رسول الله ﷺ يريد من دعوته مالا ؟ أم هل كان يطلب جاها ؟ أم كان يسعى لدنيا في صورة أخرى ، والجواب على هذا التساؤل جواب واحد وهو : لا ، وألف لا ، يقولها التاريخ بملء فيه ، وتتردد أصداؤها في الدنيا بقوة قوية جارفة للباطل ، ماحقة للكفر ، وكيف يطلب دنيا ، ورب الدنيا يقول له في محكم كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ (1) ، وكيف يطلبها وهو يعلم : أن الدنيا خداعة غدارة ، مأكرة فاجرة ، عزها ذل وغناها فقر ، لا بقاء لها ولا استقرار . وهو ﷺ القائل في

(1) الآية 45 من سورة الكهف .

شأنها : ( لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرة ماء ) .

نعم : لقد طلبها في حدود أوامر الله تعالى ونواهيه ، واستقر فيها لحظات من عمر الزمان ليعلم البشر أن العاجلة مزرعة الآجلة ، وأن هنا سوق للبيع والشراء ، وهناك إحصاء للريح والخسارة ، وقد رحل عنها يوم اطمأن على رسوخ أقدام الدعوة ، وثبت مبادئها ، واستقرار الأمر لخلفائه من بعده .

وكيف يطلب جاها ؟ وجاهه مستمد من رب كل شيء المبدئ المعيد الذي أوحى إليه ما أوحى بعد ما أطلعه على جلاله ، وعظمته سبحانه مسير الفلك ، ومقيم الملوك ، ومبيد الظلم والظالمين ، أهلك فرعون وهامان ، واسرى به ﷺ في لحظات ، وطاف به الملكوت في لمح البصر : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى <sup>(5)</sup> ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى <sup>(6)</sup> وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى <sup>(7)</sup> ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى <sup>(8)</sup> فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى <sup>(9)</sup> فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى <sup>(10)</sup> ﴾ (1) .. كيف يطلب جاها غير جاه ربه الذي أراه منازل العتاه الجبارين في النار : ﴿ إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ <sup>(71)</sup> فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ <sup>(72)</sup> ﴾ هناك يقال لهم : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ويقول قائلهم : ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ <sup>(27)</sup> مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِي <sup>(28)</sup> هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِي <sup>(29)</sup> ﴾ فيجواب : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ <sup>(30)</sup> ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ <sup>(31)</sup> ﴾ (2) .

وكيف يريد من الدنيا مالا وهو ﷺ الذي أنزل عليه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (3) . ويوقن بغنى وقدره من يقول : ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ <sup>(33)</sup> وَلِيُوتِيَهُمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ <sup>(34)</sup> وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ <sup>(35)</sup> ﴾ (4) .

هيات هيات ، أن تكون دعوة خير الخلق لدنيا أو لجاه أو لمال ؟ .. وإنما كان لبها وجوهرها ومبتدؤها وخيرها ، وأولها ومنتهاها ، هداية الحائرين وإرشاد

(1) الآيات من سور النجم .

(2) الآيات من سورة الحاقة .

(3) الآية 30 من سورة الإسراء .

(4) الآيات من 33 - 35 من سورة الزخرف .

الضالين ، وإنشاء مجتمع إسلامى قوى قويم مستقيم ، فيه يتعاطف المواطنون ويتراخمون ، يعرفون لربهم حقه ، ولدينهم واجبه ، ينالون من طيبات لدنيا فى غير مخالفة ولا تجاوز لحدود الله : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

دعا سيدى رسول الله إلى تكوين أمة سداها ولحمتها الإيمان بالله ، والتواصى بالخير والمرحمة ، أمة تتواصى بالحق وبالصبر ويعرف أبنائها أن لهم مكانا على الأرض يجب أن يحموه ، وأن يشهروا السلاح فى وجوه أعدائه ، يؤمنون بأن القوة كل القوة فى التعاطف الأصيل الذى يمحو الفوارق ، ويبيد الفتن التى تنشأ من حقد الفقير على الغنى ، وما الغنى فى أمة الإسلام إلا نائب عن الله فى ماله ، وليس له مما ملك أو مما ملكه الله إلا ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأبقى .

وأن يعرفوا تمام المعرفة أن من دواعى انهيار المجتمعات السعى فيها بالفساد فمحووا من بينهم الساعى بالنميمة المفسد بين الناس بالوقية الخادع الغاش فكل أولئك لهم كان هناك فى سواء الجحيم ، فمجتمع الإسلام الحقيقى يوقن العائشون على أرضه المستظلون بسمائه أنهم كما هم سواسية فى هوائه وشمسه ومائه هم كذلك سواء أمام رب الهواء والشمس وخالق الليل والنهار لا فضل لأحدهم على أخيه إلا بالتوقى إن أكرمكم عند الله أتقاكم .

لله أنت سيدى رسول الله لقد حولت كل شىء إلى الأفضل ، فبدلت الظلم عدلا ، والجور إنصافا ، والجهل علما ، والظلمة نورا ، والكفر إسلاما وإيمانا ، والتنافر محبة ووثاما ، لقد حولت الحمق والعنجهية والجاهلية الجهلاء فى بعض أصحابك إلى صرامة فى خدمة الدين . ودفاع فى إيمان وصوفية فى قوة ، وصيرت من قصاب كسعد بن أبى وقاص قائد جيش فاتح ممالك ، وبدلت من خالد بن الوليد الحرب على الإسلام صديقا مؤمنا سيفا للإسلام مجاهدا فى سبيل الله حتى لقي ربه وهو عنه راض ، وجعلت من العبد ذى الرأى المطروح والقول المتروك وخذن المهانة وقرين الذل ، عنوانا على الصبر ورمزا للجهد فى سبيل الحق والعقيدة .

وقبل كل أولئك أريتنا كيف يصير الإسلام الرجل صديقا صدقوا ، وحببنا مخلصا ، يفدى صاحبه بنفسه ، ويقدم راضيا روحه في سبيله ، وجسدت هذه المعاني في نماذج كثيرة من أصحابك الأكرمين على الله وعلى الناس .

هذه التركة التي أرسى قواعدها سيدنا رسول الله ﷺ تحتاج إلى رجال مؤمنين موقنين بفناء الدنيا وبقاء الآخرة يعملون لها (أى للدعوى) ليلا ونهارا حتى تبقى وثبتت وتطبق ، تريد عاقلا تعاف نفسه طعام الزائلة ، ويدعو مخلصا لوجه الله ، يقول مقالة نوع لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ .. ﴾ ومقالة هود لعاد : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ وذلك ليثقوا في إخلاصه ولا يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى عرضه وخلقه .. التركة تريد رجلا حازما مجاهدا في سبيل الله يتحمل المشاق بقوة أولى العزم ، فقد بدأ الإسلام بالدعوة المسالمة إلى الله ، حملها رجال آمنوا بالله وزادهم هدى ، وباب العمل مفتوح ، ولكل مجاله الذى يستطيع فيه خدمة عقيدته فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين .

ويعد فان الحقبة التي نعيشها الآن ، تطلب من كل فرد قادر أن يتحمل المسؤولية كاملة وأن لا يحاول إلقاء التبعة على غيره ، فالحاجة دافعة إلى تضافر الجهود ، واستغلال الخيرات ، وإطراح الأنانية المقيتة ، والتجافى عن الراحة والدعة ، والسير نحو البناء المعمر الشامل ، كل ذلك مع طاعة الله ، وانتهاج الطريق الأقوم ، الذى فصل منه إلى قهر العدو الكاشح المترص ، وبهذا يظل الحمى لله ولرسوله مهايا مصونا ، فمن لم يذد عن حوضه بسلاحه بهدم ، ومن لا يحمى حماه يهلك ، ومن ينكص على عقبيه فالنار مثواه والدمار نهايته ، والحق واضح أبلج ، والباطل ضعيف لجلج ، والله مع العاملين ولن يترهم أعمالهم .

## حق الله وحق العباد

عن معاذ رضى الله عنه قال : كنت ردف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار يقال له عفير<sup>(1)</sup> فقال يا معاذ : ( هل تدري حق الله على عباده ، وحق العباد على الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإن حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً ، قلت : يا رسول الله : أفلا أبشر به الناس ؟ قال : لا تبشروهم فيتكلوا ) .

( رواه الإمام البخارى )

1 - من تعمق فى دراسة المجتمع الإنسانى ، وغاص فى بحاره ، وأدرك مخبآتة ، وشاهد اختلاف المشارب والمآرب ، وتباين الأهداف وتنوع الغايات خرج بنتيجة ملزمة ، هى الإيمان بوجود الله تعالى ، وثبت له بما لا يقبل الجدل إن هذا الإله لا شريك له ، فهو المتوحد فى ربوبيته المتفرد فى عظمته ، المخصوص بالعبادة ، سبحانه ابتداءً من لا شىء كل ما أنشأ .

فالأيات الواضحة والحجج الظاهرة ، تشهد له بالعزة والقدرة ، والعظمة والجبروت ، هو الأول بلا أبد يحصى ، والباقى بلا أمد يفنى ، عالم بخفيات الأمور ، وخطرات القلوب : « لا يغرب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » .

قال جل شأنه : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾<sup>(2)</sup> .

ويقول جل وعلا : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّيْرِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِزْقٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَابَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

(1) عفير : تصغير أعفر . كما يقال فى تصغير أسود سويد . والعفرة : حمرة يخالطها بياض . وورد أن عفير : حمار أهدها المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأن هناك حمار آخر يقال له : يعفور . أهدها فروة بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً .

(2) الآية 7 من سورة المجادلة .

إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ<sup>(1)</sup> ، محيي من حى ، ومهلك من هلك ، لا يغلبه غالب ، ولا يند عن سلطانه كائن ، هو العالى فى مشيئته ، والقاهر فوق عباده ، المنزه عن مشابهة خلقه كما قال : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>(2)</sup> .

خلق الإنسان بقدرته وهداه النجدين رحمته وأوضح له السبيل إلى معرفته :  
 ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ<sup>(3)</sup> ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ<sup>(4)</sup> ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ<sup>(5)</sup>﴾<sup>(3)</sup> .

ثم خاطب فى الإنسان عقله ، ودعاه إلى التبصر فيما حوله ، وأرشده إلى معالم ربوبيته ، فقال فى محكم تنزيله : ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ<sup>(6)</sup> وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَثْمَرَ بَشَرًا تَنْشُرُونَ<sup>(7)</sup>﴾<sup>(4)</sup> .

ثم امتن على عبده بالزوجة الصالحة الوفية المؤمنة بربها الراكنة إلى مولاها فقال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ<sup>(8)</sup>﴾<sup>(5)</sup> ثم دله على مظاهر قدرته فى إبداع السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار وتباين الألسنة والألوان ، وما ذلك بمستكن عنا ، ولا بعيد عن تناول حواسنا فقال تسامت عظمته : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ<sup>(9)</sup>﴾<sup>(6)</sup> .

وأشار سبحانه إلى أنه وحده الحافظ لعباده حين يتوفاهم بالنوم ، ومنحهم عن الهلاك على يد هوام الأرض ودوابها ، والرزاق لهم دون سواه ، حين ينتشرون فى فلجاج الأرض كادحين باحثين عن أقواتهم : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

(1) الآية 59 من سورة الأنعام .

(2) الآية 11 من سورة الشورى .

(3) الآيات 7 - 9 من سورة السجدة .

(4) الآيات 19 - 20 من سورة الروم .

(5) الآية 21 من سورة الروم .

(6) الآية 22 من سورة الروم .

وَابْتَغُواكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ ﴿١﴾ .

وما الظواهر الكونية والتقلبات الطبيعية إلا برهان لنا على عظمته ، ودليل على ضعف الإنسان ووهنه : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَسَاءً قِيْحِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (2) وما هو ذا سبحانه أبدع السماء ورفعها وسط الأرض ودحاها ، وأمسكها بقدرته أن تزولا ، ولم يشركه أحد فيها فلم تفسدا ، فبأمره وحده يتم كل شيء ، فإذا دعا الموتى إلى النشور بادروا ولم يستطيعوا عن ذلك حولا : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (3) ، يدين له بالطاعة والعبادة من وما فى السموات والأرض : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لُهُ قَانِتُونَ﴾ (4) .

دعا عباده إلى الاستدلال على وجوده وهيمنته بما بطن لهم من أمور الحياة وما ظهر ، وما أراهم مر يديع حكمته ، وجميل صنعه ، وضعفهم أمام قهره وغلبته ، وساء لهم : ما الذى غركم بربكم حتى تنكصوا عن طاعته : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (6) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (7) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (8) (5) ، ألا تتفكر فى خلق السماء ورفعها بغير عمدى ترى ، وما يسبح فى الفلك من شمس وقمر ونجوم مسخرات بأمره ، لا يستقيم أمر العالم إلا بها ، فهى تعلمك سير الأزمنة التى فيها صلاح الحرث والنسل ، وإحياء الأرض ، وتعاور الليل والنهار : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَنْ حَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَتَّبِعُوا فُضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِجَابِ وَكُلِّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ (6) .. ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (38) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ

(1) الآية 23 من سورة الروم .

(2) الآية 24 من سورة الروم .

(3) الآية 25 من سورة الروم .

(4) الآية 26 من سورة الروم .

(5) الآيات 6 - 8 من سورة الانفطار .

(6) الآية 12 من سورة الإسراء .

يَسْبَحُونَ<sup>(40)</sup>»<sup>(1)</sup> ، ثم هذه الجبال التي جعلها للأرض أوتادا ، وأرساها على نظام بديع ، وتلك الأنهار التي أجراها لنحيا بمائها ، والبحار التي تستخرج منها طعامك وزينتك .

قال تالي : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(2)</sup> .

2 - لقد وصل العلم أو قارب ذروته ، ويرز إلى العيان في عصرنا ما كان يعد الحديث فيه أو عنه ضربا من الخيال أو الخيال ، فأينا العجب العجاب الآخذ بالألباب من مذياع وتلفاز وشاهدنا الذرة وكيف تبديد أمما في لحظات وتفنى ممالك في طرفة عين ، والكهرباء ، وكيف تشفى العلل وتنير الدجئات ، وتسير ما دق وما عظم من آلات ، ثم كيف تنقلب ماردا مهلكا فتقتل الأنفس وتهلك الحرث والنسل ، وكل هذا تعرف عليه وافد من وادي عبقير ، ولكن أى عبقري أو صاحب جاه أو سلطان يستطيع أن يصد عن نفسه عاديات الأيام ، أو يؤخر ميقات رحيله إذا واتاه القدر المحتوم ، كلا فالله تبارك وتعالى يقول وهو الصادق القادر : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾<sup>(3)</sup> .

وهل استطاع أو يستطيع عالم أن يوقف حركة الليل والنهار ، أو يطمس معالم البحار ، أو يحصى نجوم السماء ورمال الصحراء ، أو هل يستطيع واحد من هؤلاء أن يرد على تحدى إبراهيم عليه السلام : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ ، أو هل فى إمكان أحد أن يقطع صلته برب كل شىء فلا يتضرع إليه إذا أصابته البأساة ، أو مسه ضر ، أو لاحقته البلواء ؟ لا ورسى : إنما يتصاغر الإنسان ويضعف ويهن وتخور قواه عند الملمات ، ويبطر ويتكبر إذا أنعم الله عليه .

وقد ضرب الله تبارك وتعالى المثل لحالى ابن آدم فى استكاته وضعفه ، وتعالیه

(1) الآيات 38 - 40 من سورة يس .

(2) الآية 12 من سورة فاطر .

(3) الآية 61 من سورة النحل .

وتجبره . فقال عز من قائل : ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بِرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحْتُمْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أُنزِلْنَا مِنْ الشَّاكِرِينَ<sup>(22)</sup> فَلَمَّا أُنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

والعجب لابن آدم أن يظن عند نجاته من المآزق أنه سلم مدى الحياة ، ولم يدرك ان الحياة حائلة متقلبة لا تدوم على حال ، وأن نهايتها حتمية ، وأن مردنا إلى الله العليم الخبير : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَثْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ .

3 - إذا كان الإنسان بهذه المثابة من الضعف أمام أعاصير الحياة ، وأن ملاذه الوحيد هو عون الله وحده ، فلماذا يشرك به غيره ، وينكص على عقبيه متباعدا عن هديه ونوره ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، أن المؤمن الصادق الموقن بربه عن دليل - وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد - لا يززع إيمانه شيء مهما عظم ، فهو يوقن أن عظمة وجاهه دونه كل جاه وعطاؤه يتضاءل أمامه كل عطاء ، وهل يستوى خالق ومخلوق ، حاشا وكلا .. المؤمن الصادق يقاوم الشرك في نفسه وبين قومنه ولو كلفه ذلك روحه ، ما دام يقيم بذلك حقا ويبيد باطلا .

ويكف يتراخى عن نصرته حدود الله تبارك وتعالى من يدرك أن لكل أجل كتابا وأن أشرف حالة لفراق الدنيا هي ما كنت في سبيل الله ، ولله وحده على أن ما يراد منا لا يكلفنا ذلك أبدا ، ولا يصل بنا إلى تلك الحالة مهما كان ، فما يطلب من المسلمين الآن إلا أن يرجعوا إلى ربهم ، ويستجيبوا لبارئهم ، ويقيموا حدوده كما يجب أن تكون ، المطلوب أن يحاسب كل مسلم نفسه التي بين جنبيه عما اجترحت من السيئات في جنب الله .

وليعلم علم اليقين أن الله تعالى يقول وهو أصدق القائلين : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَكَلَّمَهُ مَا نُوسِسُ بِهِ نَفْسَهُ وَكُنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ، وحبل الوريد عرق في العنق إذا قطع مات صاحبه ، وإن يدركوا سمة المجتمع الإسلامي فيروسا قواعد مجتمعاتهم على أسس إسلامية قويمه كما أمر الله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ إِنِ

مَكْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ﴿١﴾ ، فلا يدعوا منكرا فاشيا فيهم إلا عملوا على إزالته ، ولا فضيلة محمودة إلا تمسكوا بها ، حتى يغير الله أحوالهم إلى أحسن مما هو عليه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ، يجب أن تكون أيامنا هذه حداً فاصلاً بين عهدين ، عهد العمى عن الحق والغواية والضلال ، وعهد الهدى والنور وإن نسمع القول فنتبع أحسنه ، وأن نتخذ ما نتعلم وسيلة للعمل حتى يكون حجة لنا لا علينا وأن نسعى جاهدين ليحتل كتاب الله مكاتته في التشريع والقضاء وفضل الخصومات بين شعوب الأرض جميعا ، بعد أن نبرهن على صلاحيته لهذه المهمة بتطبيقه على واقعنا .

أولا وقبل كل شيء ، وكيف ندعى الإسلام ولا نحتكم إلى كتاب الله والله تبارك وتعالى يقول : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (1) .

4 - وتلك معانٍ تداعت إلى النفس إن شئت أو إلى القلب إن أردت حين وجدتنى بعيدا عن أحباب كنت ألتقى بهم صباح مساء فأجد في لقائهم برد الإيمان وراحة اليقين ، وكنت كلما حزبنى أمر - وما أكثر ملهمات الحياة - أفزع إلى رأى شقيقى روح فأجد العزاء وأنس الروح ، فأعود راضياً ، وأنقلب أشد إيمانا بالأخوة فى الله كما رسم سيدى رسول الله ﷺ ولما دعيت - وتنفيذا للمقدر أجبت ، ومن كتبت عليه خطى مشاها - جلت فى المدينة الغربية (بالغين المعجمة) حيث أقيم الآن وحيداً على ضفاف النهر (2) الذى يخرقها منذ آلاف السنين حاملا بين جنباته الرى والخير وعلى ظهره ظلمات نفوس ماجنة عابثة ، ينوء بحملها ويود أن لو انقلبت طعاما لأسماكه ، وجدتنى مباحثا عن الإنسان الذى فقد وجوده ، وعرف سر مجيئه من عالم الغيب ، الإنسان الذى يحترم إنسانيته ويضعها فى المكان المراد لها بين الكائنات المحيطة به ، فلم أعثر له على أثر فى هذا الجموع الصاخبة المتلاطمة كأمواج بحر هائج ، أفزعته ربيع صرصر عاتية ، فأخذ يضرب نفسه بنفسه يميناً وشمالاً طالبا النجاة ولكن هيهات .

(1) الآية 65 من سورة النساء .

(2) فى مدينة باريس على نهر السين حيث كنت أدرس فى السربون .

وجلست متأملا تلك الطبيعة الناضرة والوجوه التي تبدو كثيفة رغم ملاحظتها خلقة ، وتذكرت - وما كنت ناسيا - أن الله يريد بعباده اليسر ، ولا يريد بهم العسر ، وأشاء أمامي الحديث الشريف الذي جعلته عنوان البحث حيث وجدت فيه رحمة الله بعباده ، ولكنها رحمة مشروطة لكل شيء ثمن وغاية ، فالعباد بخير ما لم يشركوا بالله شيئا ، ولكن أنى يتحقق للإنسان المعاصر الذى أرى هذا الشرط وقد قامت مجتمعاته على أسس الحادية فكفرت بالمثل ، وعصت الرسل ، نسيت حقوق رب العالمين الذى تبدو آثار قدرته ودلائل وجوده وقيوميته فى كل شيء بدا أو اختفى .. فانطمست المعالم الخيرة فى تلك الأنفس ، وتحولت حيوانات من نوع تسمى منه العجماءات نوع لم يوضح له تعريف لا هو بالإنسان ولا هو بالأعاجم ، وعجبا وأى عجب للفلاسفة ناسبوا زمانهم فجعلوا الخروج عن الحقائق المسلمة فلسفة ، وأنشأوا لها كراسى فى جامعاتهم تتولى تقديمها ثقافة للناشئة المنكوبة فيهم وفى نفسها .

والويل للإنسانية إن لم يتداركها لطف الله ، وبأى شكل يكون ؟ علم ذلك عند علام الغيوب ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ولئن كانت فى الأجل بقية فستكون للقلم جولة أخرى فى هذا الميدان ، ميدان المجتمع المعاصر وفلاسفته البوهيين ، والسلام على من اتبع الهدى .

## من أخطائنا

عن شداد بن أوس رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( سيد الاستغفار أن تقول : اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي إليك ، اغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنب إلا أنت )<sup>(1)</sup> .

1 - ثلاث مقالات ظهرت فى كبريات مجلات الكويت ، بل إنها تعتبر طليعة مجلات العالم الإسلامى والعربى ، دعت تلك الأحاديث المثالية فى عصرنا ، المعبرة بإخلاص عن أخطائنا ، الداعية بصدق فى تلافى نقصنا ، ومحاولة بذل الجهد للقول الجاد ، والدعوة المثمرة ، فى حقل لا يضار فيه أحد ، ولا يهدف إلى ما يروم الناس من عرض زائل ، وإنما هى فى اعتقادى دعوة للعقل المستنير المستطيع أن يعمل ، مقتدياً سيدنا رسول الله ﷺ ، ولا يتأثر بما يصادفه فى الحياة العملية من عقبات ، أو يضاده من أفكاره أو ما يلاحقه من تعويق .

أولى الثلاث التى أشرت إليها ، لمست بلطف وعفة قلم ما وقع فيه فضلاء المسلمين من تأويل بعض الأحاديث النبوية الشريفة بما لا يتفق وروح النص . ولا يليق بمجتمع يقيم عمده على أسس الشريعة الواقعية العملية الداعية إلى الحق ، وإعمار الأرض ، والإعداد للحفاظ على كيان الدعوة ، والأرض التى تعيش عليها ،

(1) شرح مفردات الحديث الشريف :

( أ ) سيد الاستغفار : أفضله ، وصيغ الاستغفار كثيرة ، ومنها ما فضله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على غيره ، لمزية خاصة ، أو حالة مفردة ، أو لمعنى يراد .

(ب) وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت : المراد : الإيمان بك ، وإخلاص الطاعة لك ، فلا أشرك بك غيرك ، ولا ألوذ بحمى سواك . وفى قوله : ما استطعت : اعتراف من العبد بالتقصير والعجز عن القيام بحق الشكر كما ينبغى . فهذا شىء لا يمكن الوصول إليه مهما حاول العبد وعمل من طاعات فتعم الله لا تحصى ، إن عدت .

(ج) أبوء بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي إليك . أى أترف وأقر بفضلك فى الحالين غير مجحود ، ففى الأولى : تفضل ومنة ، وفى الثانية : غفران ورحمة .

وتكوين أجيال تتفاعل مع أزمانها ساعية إلى قيادة عالمية ، فاضلة في كل ميدان ، فى الخلق ، فى الصناعة ، فى الاقتصاد ، فى الحكم ، فى السياسة ، فى كل مناحى الوجود ، دون استعمال (إلا) أو إحدى أخواتها .. وقد ضرب الكاتب العلامة لذلك الأمثال بما اتسع له المقام .

والثانية : كانت مسطورة فى نفس العدد ، وهى مداعبة بين عاليمين متكافئين علما وعملا فيما أرى ، ويعلم الناس ، وفضل الله عليهما (حين أتاح لهم العلم الواسع ، والعقل الناضج ، ويسر لهما السبيل لخدمة الشريعة فى مؤلفات سارت بها الركبان) ، لا ينكر ، واسميها مداعبة ، ذلك لأن مداعبات العلماء بعضهم لبعض ، طالما دافعت عن حق ورد إلى صواب ، وكبحت من جماع ، والذى لا ينكر من بوادر عصرنا ، وهو أن فتاوى كثيرة صدرت من شخصيات علمية لها وزنها لدى العامة والخاصة ، ما زالت تيسر وتيسر حتى وصلت إلى درجة لو تابعناها فى السووك لانتبهنا إلى تمييع كامل للشريعة ، وإضافة تامة لحدد الله ، وألقينا بالناس فى بيداء مجهولة لا يعمل ما وراءها إلا بارئ السموات والأرض ، والحلال بين والحرام بين ، فمن أراد الدين الخاص ليسلك طريقه ومن رام غير ذلك ونكص فانما ينكص على نفسه ، ولهذا فأنا (ولا أقصد إلا وجه الله وحده) مع العلامة الشيخ أو بزهرة فيما سجل تحت عنوان (الطلاق) وقل الحق من ريكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

والثالثة : حملتها زعيمة مجالات العرب فى العصر ، وجرها يراع مقول مرموق ، وخطيب مفوه ، نرجو له السلامة والعافية ، جاء فيها : (ما أحوج أمتنا اليوم إلى متدينين مستنيرين ينظرون إلى المرأة ، لا على أنها آفة من آفات المجتمع ، بل على أنها نعمة من نعم الله فيه) وهذا قول جيد وطيب الأثر ، وحديث تفتتح له آذان المسلمين العقلاء ليتدبروه على ضوء أصول الشريعة ، وسلوك رسوله الأمين ، ولكن هل لى أن أسر إلى السيد المفضل وهو شيخ العارفين ، أو أعلن على ملأ من الناس . أن الأسلوب الذى عيب على الشرق فى أقصى درجات نظرتة إلى المرأة ، قد كان فى الغرب ما يزيد عليه فظاظة وفضاعة .

وهل درى المتحاملون على الشرقيين أن الزمن الذى حفظ فيه الإسلام حقوق المرأة كاملة ، وصانها عن الابتذال ، ووضعها فى مكانها اللائق بها فى المجتمع ، كانت فى الغرب تعيش فى أتعس حالة تسف إليها قسوة الجهالة ، حيث كان يصنع لها غطاء من حديد يوضع على موطن العفة منها ولها مفتاح يحمله الزوج الكريم أو الأب الرحيم المسافر جندياً فى الحروب وقد لا يعود ، صورة لم أستطع أن أصدقها إلا عندما رأيت رأى العين الغطاء ومفتاحه فى أحد متاحف باريس ، وقرأته خبراً مقتضباً فى قاموس (روبير) وأخذ الحياء السيد (لاروس) فلم يشر إليه فى قاموسه الشهير ... ماذا أريد أن أقول ؟

سؤال يردده القارئ البصير ، والجواب : لقد ثارت المرأة فى الغرب لترفع القيد ، ثورة صامتة فى ظاهرها ولكنها تحمل وقود الاشتعال السريع فى باطنها وظهر لها أنصار يدعون إلى حريتها ، ولكنهم حين أزاخوا الغطاء الحديدى ، طووا معه كل أديتها وتركوها مجردة كيوم ولدتها أمها ، فلم تكن حرية ولكن ابتذالاً لها وتناسياً لكرامتها ، وقتلاً لأنوثتها ، وبعداً بها عن موطن سعادتها ..

وكانت بدايتهم معها أن سخروا الفنانين وخاصة الرسامين والنحاتين ، فأعمل كل ريشته ومعوله فى إبراز مفاتن الطبيعة فى الحيوان أولاً (كارها لما سيكون) وليست للحيوان الأعجم عورة مستورة ، وقد يقال إنها مستورة بما لا يبعد عن لون الهيكل البادى للعيان ، وإذا برزت فى صورة ما اشماز العقلاء من منظرها مجردة من سترها ، ومع هذا قال الفنانون : إنها الطبيعة ، وهذا شئ من الاعتياد لا يخدش الحياء .. ولا يثلم المروءة ولو أطيل النظر إليه ، ثم انتقلوا إلى الإنسان وأى إنسان ؟ اقلب أولى صفحات كتاب (ميكائيل لانج) المنشور فى مجلدين عظيمين بالألوان الطبيعية ، تجد صوراً متفرقة يظهر فيها السيد المسيح (وهو فى عقيدته - ميكائيل - سليل الإله ووحده) فى صورة عارية تماماً وعورته بادية دون أى ستار ، فى ابتذال وقح مشير وبعد هذا .. فلا ضير أن يظهر الفنان المتدين (كما كانوا ينعته) عورات غير المسيح من البشر العظماء فى نظره ، وعمرت تلك التماثيل الميادين ، ورآها الناشئة وأفهموا أن هذه فلسفة الحياة ، شئ طبيعى لا غبار عليه ، وما زالوا يقلدونه فى واقعهم تلك

التمثيل حتى تجردوا من ثيابهم ، ثم وقعوا فيما يعف عنه بعض الحيوان الأعجم .

وهكذا كانت الطامة الخلقية ، والاجتماعية ، وصار من المعتاد أن تشاهد فتاة في عمر الزهور لم تتجاوز الخامسة عشر ولها وليد يجرى وراءها من سفاح تحميه الحكومة وترعاه الدولة ، وكأنها تناجيتها : انسلى ولا ضير عليك وليس هذا من الأسرار التي تخشى إذاعتها ، وإنما هي من الأمور التي يجب أن تعلم عند القوم ليقتدى اللاحق بالسابق ... وإلى أين المسير ... الله أعلم .

2 - هنا في بلاد المسلمين يجب أن نقول : (إن لله حدودا يجب أن لا تتعدى ، وأن لا تنهادى بالتهوين من شأنها في مجالسنا العامة أو لخاصة ، فالمرأة في الإسلام لها شأن عظيم لا ينكر ، ووضع كريم لا يطاول ، ووظيفة أو وظائف جديرة بها ، ولم يكن الإسلام هو الذى رسم خطة قصور السلاطين ولا حريم استامبول ، وإنما الذى فعل ذلك شيء آخر كالذى حمل أوروبى العصور الوسطى على أن يغطى من وضع العفة من زوجته أو بنته بقفل ورتاج من حديد ، والذى أخشى هو أن تنمادى مع الغرب فنقول : إن الاختلاط سهل وهين ، وأن العرى جميل ، وأن الجلوس فى المقاهى حرية ، وأن الأسفار لا غبار عليها ، حتى يجيء اليوم الذى وصل إليه الغرب حيث لا تعرف الأسرة رباطا ، ولا يدري المولود من والده ، ولا يصدق الرجل أن هذا المخلوق الجديد من نسله ، وهكذا يتفرق المجتمع أيدى سبأ . ويتلاشى الجميع فى تاريخ الحياة التقليدية دون وازع من ضمير ، أو حماية من عقل ، أو رادع من حكم .

وبعد :

فمن يستطيع أن يقول إن المرأة آفة من آفات المجتمع ، هل صدر هذا القول فعلا ؟ هل له فى الحقيقة واقع ... ؟

ما أظن أن مجنوننا بله العقالين يستطيع أن يقول هذا ، وإنما الذى تجرى عليه سنة الحياة ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهو أن المرأة زمام الأسرة ، وعافية العقل ، وراعية الخلق ، وداعية العمل الجاد ، هى ركن ركين فى الحياة إن ضاعت ضاع

الوجود كله ، وهي دعامة لو فقدت لاختفت كل الفضائل ، إنها الأم والأخت والابنت ورفيقة الحياة ، فمن ذا يقول إن الإسلام ضيق عليها الخناق ، إنه لم يضارها أبدا لا فى واقعة الحق ، ولا فى تشريعاته الأصلية ، وتعالوا إلى الحرية التى يتمتع بها صنوها الرجل أية حرية يملك ذلك المسكين ؟ إنه عبد للأسرة ، وخادم للمجتمع ، وقرن قوته ، وطوع أمر رئيسه ، إن الرجل رقيق فى الحياة ، فما الحرية الحقيقية بمعنى الإنطلاق الواسع الذى لا يحده حاجز ولا يعوقه قيد ، إن هى إلا خيال الشعراء وحلم الفلاسفة ، وإن شئت فقل : ربما تتحقق لدى المتدينين كأمل يوم القيامة ، أما فى وجودنا هنا على ظهر الأرض فلا حرية مطلقة أبدا ، وإنما لكل نافذة تطل على الحرية باب يستر وراءه عدة قيود وسدود ..

وتعالوا : ننظر إلى التدرج الغربى فى حرية المرأة والنتيجة التى وصل إليها قفل ورتاج من حديد من حديد على المرأة ومفتاح بيد الرجل ، ثم حرية فى إبراز العورات على الحجارة الصماء ، والألواح البكماء ، ثم تقصير للثياب ، ثم ترك الجسد عاريا ، وهنا حامت الكلاب حول الرمم ، وتداعى الفراش إلى النار ، وأحب السائم المرعى ، وعبث الماجن بالجسد دون رقيب ، وحصل على طلبته فى يسر ، وجاء نتاج لا يعرف أبا ، ولا ترعاه أسرة ، فلنأخذ أمورنا نحن برفق ولا نغالى فى ولا نبالغ فى التعبيرات ، فإن الحرب أولها كلام ...

والخلاصة : أن أعمالنا جميعا (وابدأ بالمتصدين لتفسير الإسلام وشرح قواعده) تحتاج إلى مزيد من الاستغفار ، فالاستغفار فى عقيدتى لا يصدر إلا من عارف بربه ، ومن عرف ربه هداه السبيل ، ولنبدأ الطريق بإزالة الغبار عن الأحاديث الشريفة ، وتجليتها فى صورتها الصادقة الأصيلة كما أرادها قائلها سيدنا رسول الله ﷺ .

وفى النهاية أقول : إن المرأة ليست مشكلة ، وحاشا لله أن تكون آفة مجتمع ، وإنما المرأة الآن عالمة ومتعلمة ومنهن من لا ترضى عن الأوضاع التى يراد لها أن تسود أبدا ، بل ترى فيها كل الضياع للمرأة وكرامتها .

ونعود إلى الحديث الشريف فى صحبة عالم جليل من شراحه الأكرمين الذين سبقونا بإحسان طيب الله ثراه فنعيد مقالته رضى الله عنه (قد جمع هذا الحديث

الشريف من بديع المعانى ، وحسن الألفاظ ما يحق أن يسمى سيد الاستغفار ، ففيه الإقرار لله وحده بالألوهية والعبودية ، واعتراف بأنه الخالق ، والإقرار بالعهد الذى أخذه على عباده ، والرجاء لما وعدهم به ، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه ، وفيه إضافة النعماء إلى خالقها ، وإضافة الذنوب إلى العبد ، ورغبة فى المغفرة ، واعتراف بأنه لا يقدر على ذلك إلا رب العالمين سبحانه) ... فاللهم إنى استغفرك وأتوب إليك ، غفرانك ربنا وإليك المصير .

## بين الخطأ والإكراه

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
(إن الله تعالى تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكروها عليه) .

(رواه ابن ماجه والبيهقى)

نستعين الله جللت قدرته ، ونجول قليلا مع سادتنا العلماء الذين سبقونا بإحسان ، ولم تعج دنياهم بما يملأ دنيانا من مساوىء ومخاطر ، وملهيات ودافعات إلى الشرور ، فعاشوا بأعصاب هادئة ، ولم يلووا رؤوسهم عن نداء ربهم ، وأخلصوا لله تعالى عملهم ، وحمدوه على توفيقه ، أدوا للعلم خدمات لا يمكن أن تؤدي في نفس المجال الآن .

وأقول : لا يمكن أن تؤدي ، وأن لا .. فأين صاحب الهمة العالية ، والعزيمة الماضية ، التي لا تضعفها الملاحقات المعاصرة المنبثة في كل مكان ، ليسير على درب البحث الخالص لله وحده ، والرغبة الأكيدة في عمل يرضيه ، وإن كان ما نرى ، فما أرى مرض يلاحق دورة الفلك ، ولا يستطيع الثبات دائما إذا واجه الطيب التماسي ، وامتدت إليه يد الإخلاص مع التوفيق الإلهي ، وما دام سليل لآدم يدرج على البسيطة فالأمل مرجو ، والشفاء مدرك ، وسبحان من يبدىء ويعيد ، دون معقب أو رقيب .

بعد هذا : أورد مقالة الأقدمين في هذا الحديث الشريف ، بادئا بلغوياته ومعقبا بمعنوياته ، فقد قالوا : رحمهم الله تعالى ، وحسنا ما قالوا : الخطأ هو نقيض الصواب ، ومن المشكل توضيح الواضح ، ومعلوم منطقيا : أن النقيضين هما الأمران الوجوديان اللذان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، فإما خطأ ، وإما صواب ، وقالوا : : من أراد الصواب فصار إلى غيره فهو المخطئ ، ومن فعل ما لا ينبغي فهو الخاطئ ، وفي حديث شريف (لا يحتكر إلى خاطئ) . والنسيان : هو عدم الذكر للشيء ذهولا ، أو غفلة ، وهما (الخطأ والنسيان) من ملازمات الإنسان ، فهو كإنسان لا بد وأن يخطئ ويصيب وأن يتذكر وينسى ، وقد كلف الله جللت عظمته ، عباده أن يسألوه رفع المؤاخذة عنهم لدى الخطأ والنسيان ، فقال سبحانه في محكم كتابه العزيز :

﴿ .. لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. ﴾<sup>(1)</sup> ، وما استكروها عليه : وما قهروا عليه قهرا أورد له علماء الفقه شروطا كثيرة ووضحوا الحد الذى يحمل المسلم على الظهور بما يخالف اعتقاده تطبيقا لقوله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾<sup>(2)</sup> .

هذه لمحات يسيرة من آثار الأقدمين رضوان الله تعالى عليهم نخرج بعدها على واقع عصرنا فندرس فيه على ضوء الحديث الريف - ظاهرتين تلويان إليهما الأعناق ، وتشيران التساؤل ، أولاها : موقف أولئك الذين وسدت إليهم أمور لبها وجوهرها خدمة الإنسانية ، ومنفذها الإيمان العميق بخالق القوى والقدر حيث يتلاشى الإكراه ويختفى الخوف ، ولكنهم خرجوا من أعمالهم أقل إيمانا منهم حين دخلوها ، ثم لما انصرم العصر ، وأنسأ الله لهم فى الأجل بدأوا ينقدون ما اشتركوا فى تنفيذه ، ويحملون غيرهم تبعاتها ، دون حياء من الله أو خجل من الناس ، والظاهرة الثانية : قد تكون ضاربة فى القدم والزمان يعديها وقد تكون من ملاسبات العصر ، ألا وهى : المحاكاة دون وعى ، أو إدراك لشؤم عواقبها .

وعن الأولى : قد حيرنى كثيرا حديث (متابع) التقى به صباح مساء ، يعيد إلى ذاكرتى صورة مجلس حملته إليه مناسبة لا بد له فيها ، يردد ما دار فيه ، ويضع تحت بصر القارئ ، وسمع المنصت ، رسم لواقعة حية لا مدخل للخيال فيها ، وليس صنو رؤى أو وليدة أحلام ... قريبا من التاسعة مساء يوم من شهر يناير حيث يتكاثر زوار بلدنا ، دلفت مع الصحب إلى رحاب مبنى لا استطيع وصف مشتملاته من الأشياء والناس ، تعددت طبقاته سامقة فى جو المدينة ، حيث وجدت المصاعد فيها مجالا للغد والرواح فهى لا تصعد إلا لتهبط ولا تمس الأرض إلا لتجافىها ، وفى أحد أروقة هذا المبنى الشامخ كبرياء المدل بجناته ، تكشفت لنا غرفة فسيحة ، صفت فيها الأرائك الغربية الصنع إلى جانب الطنافس الشرقية الإبداع ، وتصدر المجلس شيخ جاوز السبعين وقارب المدى الذى دعا الشاعر الجاهلى لصاحبه أن يبلغه ، وإن كان

(1) الآية 286 من سورة البقرة .

(2) الآية 106 من سورة النحل .

قد أحوج سمعه إلى ترجمان ، وتم هيئة الشيخ عن خلجات قلبه ، وتحمل أشلاؤه مياسم الصراع العنيف الذى اعتمل ويعتمل فى جوانحه ، والذى لم يجد منفذا سليما مباحا فاصطدم بأحد أركان الهيكل العام فهدمها ، وتركها صريعة تحمّل ولا تحمّل (الأولى بضم التاء المثناة والثانية بفتحها) فهى كلة على سيدها وعبء على أقرانها ، وما كان لها من ذنب فيما كان من ضياع قوتها ، إلا أنها اختيرت ولم تختَر لتصرف غير معتاد ولا منتظر .

سلمنا ، ورد الشيخ الذى وجدت فيه شخصا كانت تربطنى به صلوات عمل منذ أمد هو فى عمر الزمان قصير ، وفى حساب عاد الأيام طويل ، وجرى الحديث متخذاً مداخل ومخارج شتى والحديث ذو شجون ، وكان من شجونه وإن شئت فقل من أشجانه حديث مؤسسات ضارية فى أغوار الماضى ، ماضى الإنسانية البعيد ، قد نالته يد العابثين فصارت إلى الأسوأ قصدا وعمدا مع سبق إصرار الفاعل كما يقول رجال فقه القانون الجنائى حين يقفون أمام قضية تلتخ جبين الإنسانية بالعار ، وراح شيخ السبعين يكيّل اللوم ويستنزل لعنات السماء على العاملين والمشاركين فى أعمال أخرت سير القافلة ، وأهاضتها ، وحطمت جوانحها ، ونشرت الرعب فى آفاق حداته ، ولم يفته أن يطلب إلى الملائكة المقربين أن ينقضوا على من دوخوا الحرية بل قتلوها ، وهدموا أركان الفضيلة بل أبادوها ، ومنعوا أفعال الخير ، وعاقبوا عليها .

وكانت النتيجة أن وصل المجتمع الذى أظلتهم سماؤه وأقلتهم أرضه ، ونعموا منفردين بخيراته ، إلى الحد الذى أنبتت فيه روابط البر (كما وردت فى إحدى سور القرآن الكريم) وتباعدت القربى فلا رحم ، ولا أخوة ، ومن نجا بنفسه إن استطاع فقد نجا ، ومن رام أن يمد يده لغيره سقط وكبا ، وهكذا يمضى الشيخ فى حديثه والحضور منصتون ، وهذا أمر لا غبار عليه لولا أن المتحدث نفسه بعقله الألمعى ، وفكره الذكى ، وإدراكه العبرى ، لم يكن عضوا فعلا فى كل ما حدث ، كما يحدث ، فهل كل ما صدر عنه من مشاركة فعلية ، لا بالصمت فقط ، تنفيذا لما ورد فى الذكر الحكيم ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ؟ أم أن وراء الأكمة ما لا يستطيع أحد إدراك كنهه إلا هذا اللوذعى الفطين ، ألم تسخ له فرصة الحديث إلى من تسنم غارب

الأمر والنهي ليقف منه موقف امرأة من عمر ، أم أن جاء الوظيفة ويريق السلطان المؤقت قد غشى عينيه وأنساه التاريخ الذي لا يرحم ولا يستر ، واليوم الثقل الذي ينتظره هناك يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ؟ ... لعمرك لا أدري ، ولا المنجم يدري ...

لعلك يا سيدي القارئ أدركتها شخصية شرقية معاصرة ، والحقيقة أنها لا شرقية ولا غربية ، فليست مختصة بإقليم أو قارة ، ولكنها قدر مشترك في الإنسان ولا تستثنى إلا من رحم الله ، فالمرء إذا ابتعد عن ساحة ربه وهدايته تخبط يمينا وشمالا ، وتلمس الطريق في إحساس شهواني مريب عجيب ، لا شهوة الجنس تقصد ، وإنما هي أخفها إذا قيست بملازمات لا تنفك بل لا تفارق ولو عمر الشيخ قروناً .

وهنا : لا بد من الإفصاح عن الذي حمل (المتابع) على إثارة مثل هذا الحديث المؤلم الدامي ، وجوابه ثورة اعتملت في نفسه حين أهاجه استعراض أجراء تلفاز باريس على مرحلتين في شهر مايو المنصرم ، وترك القول في المرحلة الأولى لسكان تلك الأرض الطيبة ، وأعطى الجولة الثانية للذين خرجوا على أشلاء مليون شهيد ، والذين كانوا دائما في حوارهم لا يرددون كلمة (عرب) أبدا ولو على سبيل الخطأ ، وإنما تمسكوا بأن محاربيهم (هم المسلمون) والمسلمون فقط ، وجاء دور العسكريين الغاصبين فتباكي أحدهم وقد كان قائد الدمار حينذاك على الجزائر الفرنسية ، وسب ولعن في أسلوب سياسي مقنع أولئك الذين زجوا به في السجن ، ولم يدعوه يقتل الأبرياء المطالبين بحق مشروع بلغوا الحلم ، وأرادوا رفع الوصاية عنهم ، وبرز في الميدان شيخ وياليتيه ما كان قد انحاز إلى الشيطان يوم كان له السلطان ، وتباكي مع الراعي يوم أمن أنياب الذئب العاوي ، والبالغ في الدم ، يقول : أكرهنا وعلام أكرهوا ؟ أكرهوا على المناداة بترك الاستعباد ، والكف عن ظلم العباد ، وكانت لحظة ثقيلة على نفس المتابع ذكرته بمواقف كثيرة مثيرة لعديد من رجال الإسلام خاصة (على حد تعبير العسكريين الفرنسيين عن الجزائريين) وبالأخص قادة الفكر منهم ، فلهم مواقف لا يقرها قانون ولا يعترف بها إسلام ، فقد عالجوا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة حسب أهواء سادتهم ، وقالوا للعامة : عذرنا مقبول ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ .

ولصاحبي مقياس لهذا الإكراه لا يتقيد فيه بحديث الفقهاء ولا غيرهم ، فهو لا يرى أى مجال لتطبيق هذا الإكراه ، ويقول : لو اتخذنا مقولات البعض مقياسا ، لما دافع أحد عن حق ، ولما وصل مظلوم إلى إنصاف وعلى سبيل المثال : لو أن الخوف من الموت والفناء وضياع المال والولد جعل أساسا ، لما مضى رسول الله ﷺ فى دعواتهم ، ولما حققوا رسالات ربهم ، ولما هدوا إلى صراط مستقيم ، فقد أخرجوا من ديارهم وأوذوا فى أنفسهم وأموالهم ، وأهيجوا عن حماهم ، بل وانتهى الأمر ببعضهم إلى القتل الفعلى ولقى ربه وجراحه تسخب دما يشهد بقسوة الإنسان على أخيه ، وما يدعوه إلا إلى هدى وخير ، وليس هذا حديثا مبتدعا أو إلقاء للقول على عواهنه دون دليل .

فإليك سيدى القارئ قول الله تبارك وتعالى : ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(1)</sup> ، إذا هم قد قتلوا الأنبياء الذين لم يتوقفوا عن التبليغ وهم على منصة الإعدام ، فلا المقصود بالإكراه الذى يتجاوز الله عنه لامة سيدنا رسول الله ﷺ هو الإكراه الذى يشق على النفس ولا يترتب عليه مهما كان ضياع شيء من مقومات الدين ، أو مساس بالإيمان .

والحياة ماضية مهما حرصنا عليها ، فمن يستطيع إيقاف سير الفلك ، أو التصدى لعجلة الزمان ، فإذا أدى الأمر إلى وضع تهان فيه حدود الله تعالى ، فالموت خير من الحياة ، والبقاء على الضيم هو والموت سواء ، ومن حرص على الموت فى سبيل عقيدته فقد أحرز الحياة التى تليق به كإنسان حريص على إنسانيته وبالتالى على عقيدته . ومن حرص على عقيدته وافتداها بالنفس والمال حرص على تراب أرضه ومثوى أجداده .

وأما الخطأ كما أسلفنا فكثير الوقوع وهو عمل غير متعمد ، وطبيعة الإنسان أنه خطأ ، والله لا يوصد باب رحمته أمام الخطائين التوابين أبدا ، والنسيان أصل متمكن من ابن آدم وقديما قيل :

(1) الآية 183 من سورة (آل عمران) .

وما سمى الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب

وعلى هذا فالله سبحانه عفو غفور لمن نسى أو أخطأ ، ولكن باب الإكراه له حد مقبول ، وآخر موصل ، لو فتح كما يريد الذين شاركوا وشاركوا المفسدين فى الأرض ويساعدونهم بالفتيا والتأويلات البعيدة عن الإسلام ، لبادت الفضائل ، وسادت الرذائل ، وعفت آثار الخير ، وخلا الجو للشر ليبيض ويفرخ .

ونختم القول بتوجيه الحديث إلى الذين قاربوا الفناء جريا على المعتاد ، وحن موعد لقاءهم مع رب السموات والأرض ، فلعلهم يكونون أكثر تعقلا ، وأشد إحساسا بالحاجة إلى رضى الله وحده وأكثر علما وتجربة بأن الخسران المبين فى اغتنام عاجلة زائلة وإطراح آجله باقية ، وما عند الله خير للأبرار ، عندئذ يحركون أقلامهم ويجرونها بما يرضى الله ، ولا يمهدون لشر قد فتح له غيرهم الأبواب على مصارعها ، وعرف أكثر مما يعرفون كيف يصل إلى تثبيت أركانه وتقويض عمود الخير فى أرضتنا لينفذ من ذلك إلى ما يريد من اغتيال مصادر خيراتها ، وليكونوا عوامل دفاع عن ما دافع عنه سيدنا رسول الله ﷺ فمن منح علما وفضلا وعرفه الناس بالمعرفة فخير له أن يتحرى قبل أن يكتب ، وأن يدقق قبل أن ينطق ، حتى يبعده الله عن غضبه ، ويتلقاه بواسع رحمته وسبحانه القائل : ﴿ وَإِنِّي لَفَقَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ (1) .

وأما عن المحاكاة فالحديث يطول ، ولنا معه لقاء فى غد قريب إذا لم تسبق المنايا الأمانى .

وإن غداً لناظره قريب ... وكل شىء عده بمقدار جل ربي وعلا .

(1) الآية 82 من سورة طه .

## التكافل الإسلامى

عن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من منح منيحة لبن<sup>(1)</sup> أو ورق<sup>(2)</sup> أو هدى زقاقا<sup>(3)</sup> كان له مثل عتق رقبة) .

(رواه أحمد وابن حبان والترمذى)

1 - فى هذه الحياة الدنيا لا يستطيع امرؤ أن يحيا بعيدا عن الآخرين ، منزويا فى عقر داره أو منحازا إلى جبل أو مغارة ، بل لا بد من التلاقى والتواصل على أوسع نطاق ، وفى قوة تعاون وتساند ، حتى تمضى الحياة إلى الأفضل وتستمر فى الصعود إلى قمة الكمال الممكن إدراكه ، والمستطاع الوصول إليه .

وهذا يقتضى شعور كل إنسان بحاجة أخيه شعورا كاملا ، والعمل على سد الثغرات التى تنزلق منها البشرية إلى هاوية الفرقة والتنافر ، والإسلام حريص كل الحرص على أن يتلاقى الناس فى ظل المحبة والإخاء منهما بعدت بهم الدار ، ومهما شط بهم المزار ، لهذا نلحظ كثيرا فى توجيهات سيد المرسلين ﷺ التأكيد على ما يوصل إلى العيش الرغيد ، والسير الحميد ، والتماسك والتآلف .

ومن بين وصايا سيدنا رسول الله ﷺ تلك المقولة الكريمة التى تحث على بذل المعروف ، ونشر التعاون ، وتدل عليه فى صورة سهلة الإدراك ، يسيرة المأخذ ، فقد أشار هذا الكل الطيب إلى صنفين من أصناف البر والتعاون ، الأول منهما : هو المعونة بالمال - والمال عدل النفس ، والثانى منهما : هو المعونة بالمال ، ورب

(1) معنى منيحة اللبن : هو أن تعطى غيرك قانتك أو شاتك ، أو بقرتك لياخذ لبنها احتلابا ، ثم يردها عليك .

(2) والمراد بمنيحة الورق : هى دراهم مصكوكة من الفضة يقرضها المرء لغيره . ويدخل فى ذلك كل قرض حسن : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فُيَضَّا عَلَيْهِ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) .

(3) والمقصود من هداية الزقاق : هو أن يدل الإنسان غيره على الطريق الذى يوصله إلى غايته فيسلكه ، وخاصة إذا كان السائل غريبا لا يدرى أين الطريق .

كلمة طيبة رفعت من شأن ، ودافعت عن حق ، أكدت المحبة وأبادت البغضاء ، وقد أوضح الحديث الشريف أنه يلزم القادر إسعاف العاجز ، وعلى الغنى بذلك ما يستطيع للأخذ بيد الفقير ، كما أنه على العالم أن يفقه الجاهل ، وعلى كل ذي فضل أن يعطي من لفضل ما عنه لذى الحاجة العاجز عن إدراك ما أدرك ، والمقعد عن الوصول إلى ما وصل إليه ، وتلك خلال الإسلام وفضائله .

وقد نص سيدنا رسول الله ﷺ على ما ورد في الحديث الشريف موضع البحث من قبيل ذكر الأمثلة الخاصة التي تدل المتأمل فيها على نظائرها من مطلوبات الأعمال والأقوال ، وتلك طريقة كريمة سهلة يشير فيها المرشد إلى ما يراه أقرب إلى أفهام الناس ، وأيسر لى إدراكهم لمثوله متكررا أمام أعينهم ، حتى أصبح مألوفا لهم ، كما أن في ذلك إيقاظا لأفكار الدارسين الأذكياء وتوجيها لهم إلى مزيد من التدبر والفهم والإدراك ، ليقسوا الأشباه على النظائر مما يمت إليه بصلة من غاية أو نهاية ، وهذا مما يثقف العقول ، ويحملها على التصرف في الأمور تصرفا حسنا مستندا إلى البرهان والاستنتاج المستقيم ، وهذا يفسر لنا دائما السر الكامن وراء اقتضاؤه صلى الله عليه وسلم على بعض الأشياء ، وسكوته عن البعض الآخر لما في ذلك من فائدة للعالمين والمتعلمين .

2 - في تدبر هذا الحديث الشريف وتطبيقه عمليا تيسير الأمور على من تعسرت عليه ، وتفريج الكروب عما نزلت به ، ومد يد التراحم للأخذ بناصر من أحاطت بهم أسوار الضيق والعوز ، وبذل البر عامة لإغاثة كل ملهوف محتاج إلى العون فى شتى صورته وأشكاله ، ولقد فقه سلفنا الصالح كل ذلك ، وأدركه إدراكا كاملا من توجيهات سيدنا رسول الله ﷺ فاستقاموا على العمل النافع المفيد ، وحرصوا عليه ، وتواصوا بالصبر والرحمة ، وكان من نتائج ذلك أن يسارع القوى إلى الأخذ بناصر الضعيف ، وأن يبسر الواجد على المعسر ، ويبادر إلى سد حاجته ، فلم يتركوا مسلما يتردى فى هاوية الآلام أبدا إلا وجدوا له من آلامه شفاء ، ومن كربه فرجا ، ومن ضيقه مخرجا ورأوا - رحمهم الله - أن ما يصيب أحدهم يصيب المجموع ، فما يشعر به الفرد المسلم من خير أو شر تسرى عدوى شعوره إلى الآخرين من إخوانه فيفرحون فرحه ويساؤون لإساءته .

وصدق فيهم قول سيدنا رسول الله ﷺ : ( ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) . كما رواه البخارى وغيره قريبا من لفظه ومتحدا فى معناه ، فالمؤمن الحق هو الذى تتمكن فى قلبه إخوة الإسلام فتشمر التواصل والتعاطف والتلاقي دائما فى رحاب الله وتحت راية سيدنا رسول الله ﷺ ، فلا يمكن أن يتسم إيمان المؤمنين إلا إذا صاروا حقا كالجسد الواحد إذا مرض منه عضو اشترك معه سائر الأعضاء فى الألم ، فالعين تسهر والقلب بتألم ، والمعدة تضطرب ، والفكر يرتبك ، فكأن الجسم كالشجرة إذا اهتز غصن من أغصانها اهتز سائرها .

وهذا توضيح لبعض ما ورد فى الذكر الحكيم كقول ربنا تبارك وتعالى :  
﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَٰكِنْ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(1)</sup> .

وهكذا فى الصورة الإسلامية الصحيحة يصبح المسلمون بنعمة الله إخوانا متكافلين متعاضدين ، يلجأ ضعيفهم إلى قوبهم ، ويكفل غنيهم فقيرهم وبهذا يسعدون ، ويتم الله عليهم نعمته ، ويفلحون فى كل مقاصدهم .

3 - تسلطت على العالم الإسلامى أنواع من الجهالة بالإسلام لم يتفق عقلاؤهم على مصادرها ، ولم يعلموا تماما مواردها ، فقال قائلهم : من الاستعمار أتتنا ، وصاح آخر : من غلبة الكفار على أوديتنا ، وتحكمهم فى مقدراتنا ، ونتج من جهالتهم انفكك وحدتهم ، وتفرق كلمتهم وانطفاء نورهم ، وتمزقهم أيدى سبا وتبدلت طباعهم فلم يعودوا يشعرون بشعور واحد ، ولا ينضوون تحت لواء واحد ، ولا يدركون كل الإدراك ما ينفعهم متميزا عما يضرهم ، وخطوا عملا صالحا وآخر سيئا فأصبحوا أهدوثة العالم ، ونفاية الإنسانية ، وحثالة الوجود ، وضلوا طريقهم السوى تائبين فى بيدااء الجهل ، ولبشوا كذلك حقا متطاولة ، حتى قرعت بابهم القوارع بشدة ، وصاحبت بهم حادثات الأيام ، صيحة أزعجتهم عن مستقرهم ،

(1) الآية 9 من سورة الحشر .

وياعدت بين البعض وأوطانهم ، فانتبهوا مذعورين ، وتشتتوا فى مسالك مختلفة كقطيع فاجأته الذئاب العاوية ، فلم يدر أى مسلك ينجيه ، ولم يجد من يأخذ بيده أو يهديه .

وهنا يصيح بى صاحبى لا تترك الآلام تقود القلم ، ولا تدع اليأس يسجل المأساة ، فقد لاح فجر وأضاء نجم ، وما بعد الليل إلا النهار ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، وإن حادى العيس فى البيداء لن يضل ، نور القرآن وهدى سيدنا رسول الله ﷺ ، وتترأى أمامى أضواء تعلق وتهبط هنا وهناك فى أودية مختلفة ، وأدعو الله أن تزداد قوة ولمعانا حتى تبدد حولك الظلام التى أحاطت بنا ، وأخذت علينا طريقنا ردحا من الزمان .

وينادىنى صوت من بعيد يحملنى على العنان والالتفات إليه ، والاستماع إلى مصدره ، فردد فى أذنى أصداء الحرية المعناه اللاهثة ، يفك قيودها من عرك الحياة وعاركتها ، واصطلى الحوادث وذاق سمها ، وعرف ضيق السجن يوما وتنسم الحرية يوما ، فأخذ يسمح بيده الكريمة جباه الحريات المحمومة ، ويصف لها الدواء ويتابع العلاج ، ويلقى للأسف الشديد الأمرين فى سبيل ذلك ، ولكن الله معه ومؤيده ، وبدأ الحيارى يتنفسون الصعداء ، واعتقد أنه ستنعكس أفكاره وأعماله على أمم إسلامية كثيرة ، وسيتابعه آخرون فى نفس الطريق إن عاجلا وإن آجلا ، فالرجل ملخص محنك وقيادته حكيمة موفقة ، والمعوقون سيختفون بفضل الله وعونه ، وتعود إلى الوطن الإسلامى عنده أعطاه للمخلصين من قادة الإسلام الغابرين ، ويفسح له فى طريق الخير ويحميه من تسلطات الشياطين ، وإن الشياطين ليس لهم سلطان على عباد الله المخلصين ، وصاحبنا من أشد الناس إخلاصا فيما أرى لله ، وللحق وللوطن ، ومولانا القوى القادر العالم بخفيات الأمور يقول للخائن الخاسر : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ (1) .

وحين تعم الحريات ويتنفس المخلصون الصعداء تكثر منائح الخير ، وبعم التعاون والتساند المخلص لله وحده ، وتسود الوطن الإسلامى المحبة والإخاء ، ويصبح أهله يدا واحدة على عدوهم الكاشح الجاثم على أنفاسه ، فيورده موارد الهلاك ، ويستعيد قوته ومجده ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا .

(1) الآية 42 من سورة الحجر .

## الهدى النبوى فى العبادة

روى البخارى بسنده المتصل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قال : حدثنا أبو نعيم قال : حدثنا مسعر عن زياد قال : سمعت المغيرة  
رضى الله عنه يقول : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم أو  
ليصلي حتى تورم قدماه أو ساقاه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبداً  
شكوراً ؟ .

1 - نعم الله تعالى التى تفضل بها على عباده أجل من أن ينالها عد ، وإن تعدوا  
نعمة الله لا تحصوها ، ومن أجل تلك العطايا والمنن ، اصطفاه الله تبارك وتعالى  
لواحد من عباده ليحمل رسالته إلى خلقه مبلغا وهاديا ، بشيرا ونذيراً .

وفى مقدمة من عرفت الدنيا من الرسل عليهم الصلاة والسلام سيدنا رسول الله  
محمد بن عبد الله ﷺ صنعه على عينه ، وشمله بعنايته فى كل مراحل حياته ، وآتاه من  
كل فضيلة وكمال ما لم يؤت أحدا من العالمين ، أنقذ به أمة أمية من الضياع ،  
وصيرها بهديته مثلا نادرا فى السمو والتجافى عن ما يشين الإنسان كإنسان وحملها  
حملا على المضى قدما فى السبق إلى كل مكرمة فى كل ميدان ، فأخرج منها القائد  
البعقرى ، والعالم اللوذعى ، والسياسى المسدره ، والمفتن فى كل ما يخدم هذا  
الوجود ، ويرقى به ، ويسعده وينمى الخير فى أوديته ، وفاتح العقول الجبارة القادرة  
على الدرس والتنقيب على مخبآت هذا الكون وخفاياه .

وواضعى أصول العلوم فى كل فن ، فيالها من فعال لا ضريب لها لولا مقارب منذ  
أن شب الإنسان عن الطريق ؟ وأخذ طريقه دارجا على البسيطة . عابرا فى دروبها ، باحثا  
عن أسرارها ، فمما يهول الباحث ما يراه فى كل معقل فى عصرنا من آثار أتباع سيدنا  
رسول الله السائرين على نهجه ، والمقتدين به ، الذين اتخذوه أسوة حسنة ، فتفانوا  
ليخلدوا ، وشمخوا على الزمان لطأطى لهم هامته ويسجل بإعجاب آثارهم ، فقد كانوا  
حلقة ذهبية وصلت الماضى بزمان وجودهم ، وتركته يشع لمن بعدهم ولو أن أبناءهم  
تقصوا مهمهم لما غلب أمتهم غالب ، ولا قهرها متسلط ، وكان السبق كل السبق لهم ،

ولهم وحدهم ، وكأنى بسيدنا رسول الله ﷺ حين يفرق فى العباد ءة ، وحين يداوم بشدة على الصلاة ، وحين يديم التهجد وقيام الليل ، وحين يتجافى جنبه عن مضجعه .

وعندما يقف بين يدى بارئه حتى تتورم قدماءه ، إنما يضرب الأمثال لقومه على نوع من الزلقى إلى الله يفتح مغلفات الوجود ، ويسمو بالفكر ، ويربط هذا الإنسان بخالقه ، يخلصه من علائق المادة المميتة القاتلة ليصله بوثاق الروح بقيوم السموات والأرض ، الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض .

ويفيض من مكنون علمه على من يشاء من عباده ، سبحانه لا إله إلا هو رب العرش العظيم ، من طرق بابه أدخله رحابه ، ومن ولج إلى ملكوته استطلع ما لم يحط غيره بعلمه ، ومن ارتفع عن ماديته غمره نور المعرفة التى لا حدود لها ومن أعرف بالله وما عنده من رسوله المصطفى ، وحببيه المجتبى ، ومن أولى بشكره وإدامة عبادته من سيد أنبيائه ، وواسطة عقد رسله . ولهذا قيل له : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ، فيجيب عليه وعلى آله أفضل صلاة وأزكى سلام : ( أفلا أكون عبداً شكوراً ) .

2 - أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقوم الليل إلا قليلا ، كما ورد فى أول سورة المزمل ، ولك لأن قيام الليل أشد مواطاة وموافقة بين القلب واللسان ، وأجمع للخاطر فى قراءة القرآن وتفهمه ، وهذا لا يتيسر بالنهار وقت السعى على المعاش ، وانتشار الصخب واللجب فيه : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ وكان رسول الله ﷺ لا يمل من العباد ءة وإن أضر ذلك يبدنه . قالت عائشة رضى الله عنها : ( كان ﷺ يقوم حتى تنفطر قدماءه ) ومع هذا لفقد كان يشفق على أصحابه أن يملوا ، ويحاول أن يحملهم على الأخذ من العباد ءة بما يستطيعون . وأن يداوموا على فعل القليل ، ويبين لهم أن القليل الدائم خير من الكثير المنقطع . فقد حدث البخارى عن أشعث قال : ( سمعت أبى قال : سمعت مسروقاً قال : سألت عائشة رضى الله عنها : أى العمل كان أحب إلى النبى ﷺ ؟ قالت : الدائم . قلت : متى كان يقوم ؟ قالت : يقوم إذا سمع الصارخ ) ، ووقع فى مسند الطيالسى فى هذا الحديث : ( الصارخ : الديك ) والصرخة : الصيحة الشديدة ، وجرت العادة أن يصبح الديك عند منتصف الليل غالباً ، وهو غير الذى يصبح عند اقتراب الفجر .

وروى البخارى أيضا أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أخبر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال له : (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوما ويفطر يوما) قال واحد من شراح الحديث الأسبقين رضى الله عنهم : (وإنما كان ذلك أرفق لأن النوم بعد القيام يريح البدن ويذهب السهر وذبول الجسم بخلاف السهر إلى الصباح ، وفيه من المصلحة أيضا استقبال صلاة الصبح بنشاط ، وأنه أقرب إلى عدم الرياء لأن من نام سدس الليل الأخير أصبح ظاهر اللون سليم القوى ، فهو أقرب إلى أن يخفى عمله الماضى عن من يراه .

وحكى عن قوم آخرين : (أن معنى قوله : (أحب الصلاة) هو بالنسبة إلى من حاله مثل حال المخاطب بذلك ، وهو من يشق عليه قيام أكثر الليل ، وعمدة هذا القائل اقتضاء القاعدة زيادة الأجر بسبب زيادة العمل ، والأفضل أن نجرى على ما دل عليه اللفظ والله أعلم) .

3 - وهنا يورد صاحبى سؤالاً لا يصح بحال أن يورد فى جانب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وإن جاز إيرادها فى حق العباد غير الرسل ، والسؤال هل يدخل الرياء فعل الرسل ؟

والجواب : أن هذا محال ، لأن رسل الله هم المعلمون والموجهون والمشرعون ، وكل أعمالهم قلت أو جلت يجب علينا متابعتها ومحاسنتها ، فلا يمكن بحال أن يقال أن فى أعمالهم عليهم الصلاة والسلام أى نوع من الرياء ، والرياء آفة اجتماعية ممقوتة نهى عنها سيدنا رسول الله ﷺ ودمها القرآن ، ولكى يبين القول فيها نورد معناها اللغوى .

فقد جاء فى لسان العرب لابن منظور المصرى ما نصه : (ورأيت الرجل مراعاة ورياء : أريته أى على خلاف ما أنا عليه . وفى التنزيل (بطروا ورثاء الناس) وفيه : (الذين هم يراءون) يعنى المنافقين ، أى إذا صلى المؤمنون صلوا معهم يراءونهم ذلك على ما هم عليه ، وفلان مرء ، وقوم مرءون ، والاسم الرياء . يقال : فعل ذلك

رياء وسمعة ، وتقول : من الرياء يستر أى فلان ، كما تقول : يستحمق ويستعقل عن  
أبى عمر ... الخ) (1) .

والرياء بكل هذه المعانى محال أن يدخل أعمال الرسل والأنبياء . وهو معتبر  
شرعا من الآفات الممقوتة حتى فى العبادات ، سأل رجل رسول الله صلى الله عليه  
 وآله وسلم ، فقال : يا رسول الله . فيم النجاة ؟ فقال : ألا يعمل العبد بطاعة الله يريد  
بها الناس .

وفى الحديث الذى رواه مسلم قال أبو هريرة راويا عن رسول الله ﷺ فى المقتول  
فى سبيل الله ، والمتصدق بماله ، والقارئ بكتاب الله إن الله عز وجل يقول لكل  
وواحد منهم : كذب بل أردت أن يقال فلان شجاع ، كذبت بل أردت أن يقال فلان  
جواد ، كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ . فأفاد هذا القول الشريف أنهم لم يثابوا .  
وأن رياءهم هو الذى أحبط أعمالهم ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما قال النبى ﷺ :  
(من رأى راءى رأى الله به ، ومن سمع سمع الله به) . حديث متفق عليه ، وأخرج أحمد  
والبيهقى أن الرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم  
الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله  
عز وجل يوم القيام إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم ترءون فى  
الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ؟) .

وقال سيدنا على كرم الله وجهه : (للمرائى ثلاث علامات ، يكسل إذا كان وحده  
وينشط إذا كان فى الناس ، ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه) .

فالرياء ممقوت يذهب فائدة العمل بل ويبلطه ، وهو مسلك من مسالك النفاق  
الذى عابه القرآن الكريم ، وذم المتصفين به ، وأعد لهم أشد العذاب يوم القيام ، قال  
تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى  
يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا<sup>(142)</sup> مُذْتَبَذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى  
هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا<sup>(143)</sup> ﴾ (2)

(1) ص 1094 ج - 1 ط بيروت .

(2) الآياتان 142 - 143 من سورة النساء .

ثم يقول تبارك وتعالى من نفس السورة: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾<sup>(1)</sup> ، وفى قوله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ النَّاسَ﴾ قال المفسرون: يراءون بفعالهم أى يبتغون بذلك أن يراهم المؤمنون فيعدوهم منهم: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أى لا يصلون إلا قليلا ، فإذا لم يرههم أحد لم يصلوا ، وإذا كانوا مع الناس راء وهم وصلوا معهم ، وهم مضطربون مائلون تارة إلى المؤمنين ، وتارة إلى الكافرين لا يخلصون لأحد الفريقين لأنهم طلاب نفع ، ولا يدرون لمن تكون الغلبة والعاقبة ، فمتى ظهرت الغلبة لأحدهما ادعوا أنهم معه .

فالواجب إخلاص العمل لله وإخفاؤه متى أمكن ذلك . فقد روى الطبرانى والحاكم بإسناد صحيح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل المسجد فرأى معاذ بن جبل رضى الله عنه يبكى عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : ما يبكيك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإن حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصاييح الهدى ، ينجون من كل غيراء مظلمة) وإن يطلب به (أى بالعمل) رضوان الله وخير ما عنده لا الغلبة والتسلط على الناس وقهرهم ، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾<sup>(2)</sup> .

وجاء فى الصحاح أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : (إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد) وخوف الله وترك مراعاة الناس يجتث الكبر من النفوس ، ويجعل العمل مؤتيا ثماره كاملة حين يستهين الإنسان بما عمل ، ويعدده هينا فى جنب نعم الله تبارك وتعالى مبتعدا عن التكبر والتعالى على عباد الله ، وبذلك يقترب من رضوان مولاه وبيتعد عن ما يغضبه ويسخطه ، واله سبحانه لا يحب كل متكبر جبار . روى مسلم وأبو داود أن النبى ﷺ قال : (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل

(1) الآية 145 من سورة النساء .

(2) الآية 83 من سورة القصص .

يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة . فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله جميل يحب الجمال ، الكبير بظر الحق وغمط الناس) .

والخلاصة من كل ما سبق .

1 - أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان حريصا على العبادة فى جميع أشكالها قياما بواجب شكر الله : (أفلا أكون عبداً شكوراً) .

2 - إن أعمال الرسل والأنبياء الظاهرة والباطنة لا يمكن أن يداخلها الرياء ولا النفاق ، وإنما هى خطوط واضحة يجب ترسمها فى كل مسالك الحياة إذ هم صفوة الخلق والمبلغون لما أوحى إليهم من قيوم السموات والأرض .

3 - إن الرياء نوع من النفاق المهلك وقد أعد الله للمنافقين عذاباً أليماً .

4 - يجب إخلاص العمل من العباد لله تعالى وحده ، والابتعاد به عن التسلط على خلق الله ، والتجافى عن الغرور والكبرياء حتى يكون عملاً مقبولاً ، لا ثوابه العظيم بالدار الآخرة ، وإن الدار الآخرة لهى الحيوان .

5 - وإن كل عمل لا يقصد به وجه الله فهو غير مقبول عند الله وإن بدا كذلك فى الدنيا ، ودليل ذلك قصة الثلاثة الذين وردت فعالهم فى حديث رسول الله ﷺ الذى أوردناه فى صلب اشرح : (المجاهد المرائى ، والباذل المرائى ، وقارئ القرآن المرائى) ، فكل أولئك حبطت أعمالهم فلا يقام لهم يوم القيام وزن .

نسأل الله جللت قدرته وتباركت أسماؤه أن يجعل أعمالنا دائمة خالصة لوجهه الكريم ، وأن يمحضها لما يرضيه ، وما يبلغنا خير الدار الآخرة ، إنه سبحانه نعم المستعان .

## الإيمان والعمل (\*)

أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن موقوفا: <sup>(1)</sup> (ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وإن قوما ألتهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نحسن الظن بالله تعالى: وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل).

وأخرج البخارى فى تاريخه عن أنس مرفوعا: <sup>(2)</sup> (ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن ما وقر فى القلب ، فأما علم القلب فالعلم النافع وعلم اللسان حجة على بنى آدم).

الإيمان هو التصديق بما علم من الدين بالضرورة تصديقا يستقر فى القلب ، وتظهر آثاره على الجوارح ، والذى يتصف بالإيمان حقا يوقن بمعرفة الله تعالى إيقانا لا يقبل الشك ، فيتحلى بمكارم الأخلاق ويظهر أثر ذلك فى تهذيب النفس ، واستقامة العمل ، فلا يجديه نفقا أو يقول: إنى مؤمن وهو خبيث الخبيء ، فاسد الطوية ، كربه الأداء .

والحديث الشريف يدعو إلى العمل وينهى عن التواكل والاعتزاز بالأمانى الزائفة التى لا تحقق شيئا نافعا ، وكثيرا ما يهلك الإنسان شيطانه حيث يخيل إليه السراب ماء وظل السحاب واقيا من حمارة القيظ فيدع الحقائق الواقعة إلى وادى الأمانى الزائفة ، وتمضى الأيام دون أن يحصل على طلبه أو يحقق رغبته ، والإسلام يعتمد فى توجيهاته السامية على العمل المثمر ، فمن زعم أنه مسحن الظن بالله ، فإن شرع فى تحقيق الصلة الروحية القوية الدافعة إلى الجهد والمثابرة على فعل الخير كان إحسان ظنه معينا له على الدوام والثبات وجنى أطيب الثمرات ، وأما من تواكل ولاذ

---

\* حاشية : عن الحافظ ابن كثير فى كتابه (الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث ص 34 - 35)

(1) الحديث الموقوف : مطلقه يختص بالصحابى ولا يستعمل فيمن دونه إلا مقعدا وقد يكون إسنادا متصلا وغير متصل .

(2) الحديث المرفوع : هو ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً سواء كان متصلاً أم منقطعاً أم مرسلأ .

بأسباب الخمول فإن إحصان ظنه بالله في هذه الحالة خيال أو خيال (بالمثناة التحتية في الأولى والموحدة في الثانية) .

ومظهر الإيمان الجاد يتجلى في أداء وصايا الله لعباده والبعد عن كل ما ينافيها ، وقد وضح القرآن الكريم تلك الوصايا وسردها أحياناً مجتمعة وأحياناً متفرقة ، كما وردت تلك الوصايا في الكتب السماوية التي سبقت الكتاب العزيز ، إذ هي تجمع أصول ما حرم الله على عباده في الأقوال والأعمال كما تشمل ما يقابلها من أصول الخير والفضائل .

وقدر وردت لبعضها تفصيل في سورة الإسراء ، ولكنها جمعت كاملة في سورة الأنعام حيث قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ<sup>(151)</sup> وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ<sup>(152)</sup> وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ<sup>(153)</sup> ﴾ (1) .

هذه هي الوصايا العشر كما وردت في سورة الأنعام ولكي يستطيع المسلمون الإسلام بها وإدراك مراميها التي تثبت أركان الخير في الأرض وتنتشر السلام وتحسن العقبى في الآخرة نفسرها في إيجاز ، ففى تفسيرها زيادة على ما سبق توضيح الطريق للسالك المؤمن الذي لم تغره الأمانى الكاذبة ، وإنما تزود بالعمل بعد أن أدرك النتائج الطيبة لإحصان ظنه بالله فأحسن العمل فنقول والله ولى التوفيق .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يقول لعباد الله جميعاً : أقبِلوا على أئين لكم ما حرم ربكم عليكم فإنه سبحانه هو الذى يحل ويحرم وأنا مبلغ عنه بإذنه فاسمعوا عنى هذه الوصايا وتمسكوا بما جاء فيها :

(1) الآيات من 151 - 153 من سورة الأنعام .

## الوصية الأولى :

﴿أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ نهى عن الإشراك بالله لأن الشرك هو الكفر وهو أشد المحرمات إفساداً للعقل ، وهو طمس لبطرة السليمة ، فكل ما عدا الله سبحانه مخلوق لله وعبد له : ﴿إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا﴾ فاعبده وحده بما شرعه على السنة رسله لا حسب أهوائكم ولا أهواء أحد من الخلق أمثالكم .

## الوصية الثانية :

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وأحسنوا بالوالدين إحساناً كاملاً تاماً لا تدخروا فيه وسعاً ولا تألوا فيه جهداً ، وهذا نهى عن الإساءة مهما صغرت ، وقد ورد فى سورة الإسراء قوله تعالى : ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ﴾ وفى سورة لقمان : ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ وروى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن عبد الله بن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : (الصلاة على وقتها ، قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله) فقدم بر الوالدين على الجهاد فى سبيل الله الذى هو أكبر الحقوق العامة على الإنسان ، لأن حقوق الوالدين على ولدهما أعظم وأجل عند الله من جميع حقوق الخلق عليه ، وعاطفة النبوة من أقوى غرائز الفطرة ، فمن قصر فى بر الوالدين والإحسان إليهما كان فاسد الفطرة مضيعاً للحقوق جميعها فلا يجرى منه خير لأحد .

## الوصية الثالثة :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فلا يجوز بحال ولا يحل أبداً أن تقتلوا أولادكم من الفقر الواقع بكم فعلاً أى الفقر المتحقق الحاصل ، وفى آية أخرى وردت فى سورة الإسراء نهى عن قتل الأولاد خشية الفقر المتوقع أى غير الحاصل فعلاً ، وإنما يخاف حصوله لكثرة الأولاد قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وقدم هنا رزق الأولاد على رزق الآباء عكس آية الأنعام ، فلا يباح بأى حال الإقدام على هذا الفعل الشائن ، لأن الله سبحانه هو

الذى يرزق العباد ويضمن لهم ذلك فى صريح القرآن الكريم : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾<sup>(22)</sup> قَرَّبَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ<sup>(23)</sup>﴾<sup>(1)</sup> ، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾<sup>(2)</sup> .

ولكن يجب السعى والكسب والجد فى الحياة ليحصل الرزق ، ويتحقق ، فالسماء لا تمطر ذمبا ولا فضة : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ الشُّورُ﴾<sup>(3)</sup> .

وحث الآيات والأحاديث الشريفة على وجوب العمل لكسب القوت والحصول على ما يمكن الحصول عليهن من العيش الحلال ، ولا يعترف الإسلام بالكسالى والأتكاليين ولا يقر أبداً السؤال ، فاليد العليا خير من اليد السفلى دائماً ، وخيرات الأرض تكفى أهلها مهما تكاثروا فالذى خلق الأرض قدر فيها أقواتها وهو الحكيم العليم .

### الوصية الرابعة :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ وتطلق الفاحشة على ما ثبتت شدة قبحة عقلا وشرعا ، وما يرتكب الفاحشة إلا البعيد عن معرفة الله تعالى وعن المعقول ، والفواحش التى يقترفها الاهلون منها : الزنى واللواط وقذف المحصنون والمحصنات وكثير من الناس من يرتكب بعض الفواحش معلنا بها ، ومنهم من يأتيتها سرا بعيدا عن رقابة الناس ، أخرج ابن أبى حاتم عن أبى حازم أنه سمع مولاة يقول : كان رسول الله ﷺ يقول : (مسألة الناس من الفواحش) وعن عمرو بن حصين فيما أخرجه ابن أبى حاتم أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (أرأيتم الزانى والسارق وشارب الخمر ، ما تقولون فيهم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : هن فواحش وفيهن عقوبة) ، وعن عكرمة قال : ما ظهر منها ظلم الناس وما بطن الزنا والسرقة) لأن الناس يفعلونها فى الخفاء .

وروى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

(1) الآيتان 22 - 23 من سورة الذاريات .

(2) الآية 6 من سورة هود .

(3) الآية 15 من سورة الملك .

لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وقال تعالى : ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنِّمِ وَبَاطِنَهُ﴾ ، وفي سورة الأعراف : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِنِّمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (1) .

### الوصية الخامسة :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ نهى عن قتل النفس التي حرم الله قتلها بالإسلام أو بالعهد أو بالاستئمان ، روى الترمذى قول رسول الله ﷺ : (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة . وإن يريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً) وفي قول الله تعالى : (إلا بالحق) إشارة إلى ما يباح به قتل النفس شرعاً .

ففى الحديث الشريف : (لا يحل دم إمريء مسلم إلا بأحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل نفس بغير حق) . ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الإشارة إلى الوصايا الخمس التي مرت وتليت فى الآية الكريمة ، والوصية معناها : ما يعهد إلى الإنسان عمله من خير أو ما يطلب إليه تركه من شر مع اقتتران ذلك بما يرجى له من أثر ، والمعنى ، إنما وصاكم الله بذلك لما فيه من الخير العميم والمنفعة المؤكدة ، وكل هذا ما تدركه العقول الناضجة ، وفى قوله تعالى : (لعلكم تعقلون) تعريض بأن ما هم عليه من الشرك وما بعده أشياء لا يقرها العقل السليم ، وليست فيها أدنى مصلحة ظاهرة للعاقل المفكر المتدبر ، فسعى أن تعقلوا ما فيه الفائدة وهو ما أرشدنا إليه رب العالمين ، فتسيروا على نهجه القويم ، وتسلخوا طريقه المستقيم .

### الوصية السادسة :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أى أن مما يتلى عليكم من الوصايا التي وصاكم الله بها هو ألا تقربوا مال اليتيم إذا كنتم ولاة أمره أو إذا تعاملتم معه إلا أفضل ما يوصل إليه الخير من حفظ ماله وتنميته المحققة من وجوه الحلال .

(1) الآية 33 من سورة الأعراف .

وقوله تعالى : (ولا تقربوا) أبلغ في النهي من النهي عن الفعل نفسه ، لأن هذا التعبير الكريم يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل التي تؤدي إلى الفعل وتوقع فيه ، وبلوغ الأشد معناه : بلوغ سن الرشد والقوة ، وقال صاحب لسان العرب : (الأشد معناه مبلغ الرجل الحنكة والمعركة وأورد ابن منظور المصري<sup>(1)</sup> ، عن الزهري أنه قال : (ورد الأشد في كتاب الله تعالى في ثلاثة معان يقرب اختلافها ، فأما قوله في قصة يوسف عليه السلام : ولما بلغ أشده : فمعناه : الإدراك والبلوغ وحينئذ راودته امرأة العزيز عن نفسه ، وكذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَقِينِ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قال الزجاج : معناه : احفظوا عليه ماله حتى يبلغ أشده فإذا بلغ أشده فادفعوا إليه ماله ، قال : وبلوغه أشده أن يؤنس منه الرشد مع أن يكون بالغاً ، وقال بعضهم : حتى يبلغ ثماني عشرة سنة ، وقد أونس منه الرشد فطلب دفع ماله إليه وجب له ذلك ، قال الأزهرى ، وهذا صحيح وهو قول الشافعى وقول أكثر أهل العلم .. الخ .

وأما قوله تعالى في قصة موسى صلوات الله على نبينا وعليه : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ فإنه قرن بلوغ الأشد بالاستواء وهو أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهى شبابه .

وأما قول الله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فهو أقصى بلوغ الأشد وعند تمامها بعث محمد ﷺ نبيا وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله فبلوغ الأشد محصور الأول ومحصور النهاية غير محصور ما بين ذلك ، وقد اشترط الشارع الحكيم لإيتاء اليتامى أموالهم بلوغهم سن الحلم والرشد معا ظهور رشدهم في المعاملات المالية بالاختيار والتجربة . قال تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النُّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ ، وهو خطاب للأولياء والأوصياء ، وميزان الرشد يبرز بكثرة التجارب والمران وإحسان المعاملات المالية وإجادة التصرف في تقليب المال واستثماره .

(1) الأشد فتح الهمزة وضم الشين - لسان العرب ص 283 ج 2 طبع دار لسان العرب بيروت - لبنان .

## الوصية السابعة :

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر بإتمام الكيل فى حالتى الأخذ والعطاء ، وإيفاء الميزان لأنفسكم فيما تشترون أو لغيركم فيما تبيعون ، وقد ذم الله سبحانه وتعالى المطففين فى سورة سماها باسمهم وتوعدهم فيها بالعذاب الشديد على فعلهم فقال تبارك وتعالى . ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ<sup>(1)</sup> الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ<sup>(2)</sup> وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَكُوهُمْ يُخْسِرُونَ<sup>(3)</sup>﴾ <sup>(1)</sup> وأوضحت الآيات أنهم بعيدون عن الإيمان بيوم البعث والحساب ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ<sup>(4)</sup> لِيَوْمٍ عَظِيمٍ<sup>(5)</sup> يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(6)</sup>﴾ <sup>(2)</sup> ولما كانت إقامة القسط تاما أمرا دقيقا جدا لا يمكن تحقيقه فى كل مكيل أو موزون تمام التحقيق قال سبحانه : ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أى أنه تعالى لا يلزم إنسانا إلا ما يسعه فعله بدون مشقة ولا حرج ، فالمراد : أن يضبط الكيل والميزان بحيث يعتقد أنه لم يظلم فيهما بزيادة أو نقص يعتد به شرعا وقد قص القرآ ، الكريم علينا ما كان من قوم سيدنا شعيب عليه السلام ويعدهم عن العدل فى ميزان أو كيل فحكى عن نبيهم قوله : ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَ هُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ <sup>(3)</sup> .

وروى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قول رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان : ﴿إنكم وليتم أمرا هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم﴾ ويكفى فى شدة الزجر عن التطفيف فى كيل أو ميزان أن الله تبارك وتعالى سماه عشوا فى الأرض وفسادا .

## الوصية الثامنة :

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أمر بالعدل لى الأقوال حين الشهادة أو القضاء ، ولو كان المشهود له أو عليه ، وكذلك المتقاضى عندكم قريبا قرابة لحم ودم أو نفس وروح ، فالعدل فى الأقوال لازم وواجب كالعدل فى الأفعال ، وقد وضع الله

(1) الآيات من 1 - 6 من سورة المطففين .

(2) الآيات من 3 - 6 من سورة المطففين .

(3) الآية 85 من سورة هود .

سبحانه ذلك في سورة النساء حيث يقول تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾<sup>(1)</sup> ، وشدد الله في ذلك أى في العدل حين الشهادة والقضاء مهما كانت الصلة بالمشهود له أو عليه ، وكذلك المتقاضى لأن العدل قوام الحياة حياة الأمم ، فلا يجوز أن تحكمننا الصلات فتحملنا على الظلم أو الميل عن الصراط المستقيم ، ومن حاد أو ظلم فالله سيحاسبه فهو جل وعلا يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فلا تخفى عليه خافية .

### الوصية التاسعة :

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهو ينتظم ما عهد الله تعالى إلى خلقه على السنة أنبيائه ورسله ، وما يعاهد الناس بعضهم بعضا عليه مما يوافق الشرع ، وقد ورد لفظ العهد في القرآن كثيرا مشيرا إلى ذلك قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ وقال سبحانه : ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ لَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ﴾ وقال أيضا : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ وقال : ﴿أَوْكَلْنَا عَاهِدُوا عَهْدًا بِنَدَاهُ فَرِيقٌ﴾ وجعل الوفاء بالعهد من صفات المؤمنين فقال عز اسمه : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ وقال : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ .

وعد الرسول ﷺ نكث العهد من صفات المنافقين فقد روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أربع من كن فيه منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر) نعوذ بالله من النفاق وأهله (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) أى أن ما سمعتموه مما تلوته عليكم هو ما وصاكم الله به فلعلمكم تذكرون ما فيه من الصلاح لكم يحملكم ذلك على العمل به ويذكر بعضكم بعضا وهذا من التواصلى بالحق والتواصلى بالصبر ، وعد الله تعالى التذكر بالخير

(1) الآية 135 من سورة النساء .

والعمل به من دلائل الإنابة والرجوع إلى أوامره وخشيته وخوف عذابه قال سبحانه :  
(وما يتذكر إلا من ينيب) وقال جل وعلا (سيدكر من يخشى) .

### الوصية العاشرة :

﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾

وهذا بيان لم يدعو إليه رسول الله ﷺ من الدين والشرع القويم وأنه سبيل الله الذي يوصل إلى رضائه سبحانه كما يوصل إلى نيل السعادة التامة فى الدنيا والآخرة ، والصراط المستقيم هو شرع الله ، أخرج أحمد والنسائي والحاكم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (خط رسول الله خطأ بيده) ثم قال : (هذا سبيل الله مستقيماً) ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال : (وهذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه) .

ثم قرأ : ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ . وروى ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قوله : (أمر المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم . المرء والخصومات) . ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ التقوى اسم لكل ما يتقى من الضرر العام والخاص مهما يكن نوعه فالأمر باتباع الصراط المستقيم والنهى عن سبيل الغى والضلال هو ما وصاكم به ربكم ليهينكم للبعد عن كل ما يشقى ويردى فى الدنيا والآخرة والقرب مما يوصل إلى السعادة التامة فيهما ، وقد وردت آثار كثيرة بشأن تلك الوصايا منهم ما أخرجه الترمذى وآخرون عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من سره أن ينظر إلى وصايا محمد التى عليها خاتمة فليقرأ هؤلاء الآيات : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

### والخلاصة :

أن الإيمان الصحيح ليس بالتمنى ، ولكن بالعمل وتنفيذ أوامر الله واتباع وصاياه كما وردت فى محكم كتابه وعلى لسان خير خلقه ﷺ ، والإيمان المستقر فى

القلب لا يد وأن تبدو آثاره الطيبة على فعل الجوارح ، وأما قول اللسان دون عمل فهذا مما جاء فيه قول العلي الكبير : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (1) وهو حجة على ابن آدم يوم القيامة ومما يؤيد ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (2) .

نعوذ بالله تعالى من قول بلا عمل ونسأله جلت قدرته أن يوفقنا لتنفيذ وصاياه والعمل بما أوحاه إلى سيد المرسلين إن ربي سميع مجيب .

---

(1) الآية 3 من سورة الصف .

(2) الآية 123 من سورة النساء .

## يسألون عن الروح

عن علقمة ، عن عبد الله رضى الله عنه قال : بينما أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فى حرث<sup>(1)</sup> وهو يتكئ على عسيب<sup>(2)</sup> إذا مرّ اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال : ما رأيكم به<sup>(3)</sup> ، وقال بعضهم ، لا يستقبلكم بشيء تكرهونه فقال سلوه ، فسألوه عن الروح ، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً ، فعلمت أنه يوحى إليه فقامت مقامى ، فلما نزل الوحي قال : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

(رواه البخارى)

1 - كثر الحديث عن الروح منذ أن كان للإنسان وجود على ظهر البسيطة ، ولم يصل باحث إلى إدراك حقيقتها أو الوقوف على كنهها ، فقال فقيه إسلامى مفوضاً أمرها إلى بارئ الكون وحده : إنها شيء استأثر الله بعلمه ، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه ، فلا يجوز البحث عنها بأكثر من أنها شيء موجود ؟ وأوغل بعضهم فى التفويض ، فقال : إن الإفاضة فى بحث الروح بدعة فى الدين إذ لم يبينه الله لرسوله بأكثر مما هو وارد بالآية الكريمة فالاشتغال بالتفتيش فعلى ما بعد ذلك النص غلو فى شيء لم يرد به قرآن ولم يقم عليه برهان ، وهذا يسمى عنادا وخروجهما عن حدود المقدرة الإنسانية المحدودة ، ولكن من غير هؤلاء من أجاب بأن الآيه الكريمة لا تحمل فى طياتها منعاً

(1) حرث : فى رواية أخرى : كان فى (نخل) وفى ثالثة : (فى حرث للأنصار) والحرث العمل فى الأرض زرعاً كان أو غرساً . وقد يكون الحرث نفس الزرع وبه فسر الزجاج قوله تعالى : ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكْنَاهُ﴾ وقال الزهرى : الحرث : قذفك الحب فى الأرض لا زراع ... وفيه معان أخرى تطلب من مطولات اللغة .

(2) عسيب : لهذه الكلمة معان مختلفة فى اللغة وأكثرها مناسبة هنا : جريدة النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها . (كما ورد فى لسان العرب . مادة - عسب) .

(3) ما رأيكم به : ورد معناه فى لسان العرب مادة ريب : أى ما رأيكم حاجتكم إلى سؤاله ؟ وقال الخطابى : الصواب : ما رأيكم بتقديم الهمزة وفتحيتين من الأرب وهو الحاجة قال الحافظ بن حجر العسقلانى : وهذا واضح لو ساعدته الرواية .

من الخوض في البحث ، كما لا تشير إلى أن الرسول ﷺ كان غير عالم بها .

وغاية ما هنالك أنه ﷺ أمر بالعدول عن الجواب تفصيلا ، وغالبًا ما يرجع ذلك إلى أحد سببين أولهما مجتمعين : إما : لأن سؤال اليهود كان تعنتا لأنها تطلق على معان كثيرة ، فإذا أجاب بواحد منها قالوا : لا نريد هذا وإنما غيره أردنا ، وإما : لأن الإمساك عن التفصيل كان عهد السائلين من دلائل نبوته ﷺ ، وقالوا : لو كان أمر الروح مما لا سبيل إلى معرفته لكان الجواب : ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ كما قيل في الساعة وممن خاض في البحث عنها الإمام ابن حزم في كتابه : (الملل والنحل) . فقد أورد مذاهب شتى في الموضوع ثم عقب على ذلك بقوله : (وذهب سائل أهل الإسلام والملل المقرة بالمعاد إلى أن النفس - وهي بعض تفسيرات الروح - جسم طويل عريض عميق ذات مكان عاقلة متميزة مصرفة للجسد .. قال : والنفس والروح اسمان لمسمى واحد ومعناها واحد ، وأما من ذهب إلى أن النفس ليست جسما فقله باطل بالقرآن والسنة والإجماع .

فقى القرآن : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ﴾ .. ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ فصح أن النفس هي الفعالة المجزية الخاطئة .. وقال تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ .. وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّمَا بَلَّ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ <sup>(1)</sup> وفي آل فرعون يقول : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ فصح أن الأنفس منها ما يعرض على النار قبل يوم القيام ويعذب ، ومنها ما يرزق النعيم ، ولا شك أن آحاد أجساد آل فرعون ، وأجساد المقتولين في سبيل الله قد تقطعت أوصالها ، ولا شك في أن العرض (بفتح العين والراء المهملة) لا يلقي العذاب ولا يحس فليست عرضا ، فصح ضرورة أنها جسم ومن السنة قول رسول الله ﷺ : (إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة) .

وفي حديث الإسراء أخرجه البخاري أنه صلى الله عليه وسلم . رأى نسخ بنى آدم عند سماء الدنيا عن يمين آدم ويساره) فصح أنا مرئية هذه صفة الأجسام ضرورة ،

(1) الآية 169 من سورة آل عمران .

وأما الإجماع فهو منعقد على أن أنفس العباد منقولة بعد خروجها من الأجساد إلى نعم أو إلى عذاب وهذه صفة الأجساد أيضاً ، ثم يتابع ابن حزم حديثه فيقول : ومعنى قوله تعالى : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي) إنما هو لأن الجسد مخلوق من تراب ثم من نطفة ثم من علقة من مضغة ثم لحماً ثم أمشاجاً ، وليست الروح كذلك . وإنما قال الله تعالى آمراً له بالكون (كن فكان) فصح أن النفس والروح والنسمة أسماء مترادفة لمعنى واحد ، وقد تقع الروح أيضاً على غير هذا .

وقيل : إن الأرواح أجساد لطيفة متعلقة بالأجسام المحسوسة أجرى الله سبحانه العادة بحياة الأجساد ما دامت متعلقة بها ، فإذا فارقها حل بها الموت ، ويرى السلف : أن الروح عين قائمة بنفسها تفارق البدن وتنعم وتعذب لكنها ليست هي البدن ولا جزءاً من أجزائه ، وتوصف بأنها تعرج إذا نام الإنسان وتسجد تحت العرش ، والإنسان في نومه يحس بتصرفات روحه وتأثيرها في بدنه ، فصعودها لا يماثل صعود المشاهدات ، لأن المشاهدات إذا صعدت إلى مكان فارتقت المكان الذي كانت مستقرة فيه كلية ، فحركتها إلى العلو حركة انتقال ، وأما حركة الروح بعروجها وولوجها إلى الملأ الأعلى فليست كذلك ، وكل هذا مبنى على أن الروح في الآية : (ويسألونك عن الروح ..) روح الإنسان ، وفي هذا خلاف طويل بين العلماء ، فقد وردت الروح في القرآن في مواضع كثيرة بمعان مختلفة نجملها فيما يأتي :

1 - وردت بمعنى الوحي كما في قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا وَإِلَيْكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾<sup>(1)</sup> وفي سورة فاطر : ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾<sup>(2)</sup> الذين يصطفيهم للرسالة ولتبليغ الأحكام إلى من يريد من خلقه .. وفي سورة النحل : ﴿يُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي﴾<sup>(3)</sup> ، أي ينزل

(1) الآية 52 من سورة الشورى .

(2) الآية 15 من سورة غافر .

(3) الآية 2 من سورة النحل .

جل وعلا ملائكته بالوحي إلى من يريد من عباده المصطفين الخيار أن أنذروا أن إله الخلق واحد لا إله إلا هو وأنه لا تنبغ الألوهية إلا له ولا يصح أن يعبد سواه فاحذروه وأخلصوا له العبادة فإن في ذلك النجاة من الهلاك في الدنيا والآخرة .. وسمى الوحي روحا لما له من الأثر العظيم في حياة القلوب والأرواح جميعاً .

2 - تطلق الروح على القوة والثبات والنصر الذي يمد الله به من يشاء عباده الذين آمنوا به وأخلصوا له العمل في السر والعلانية ، ففي سورة المجادلة يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (1) ، ومعناه هنا : أنه قواهم بطمأنينة القلب والثبات على الحق فلا يبالون بموادة أعدائهم ولا يابهلون لهم وإنما يجعلون اعتمادهم على الله وحده والثقة به جل وعلا وحده وعلى هذا لا يحبون إلا في الله ولا يبغضون إلا من أجله وقد ورد فيما أخرجه الطبراني وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ( جعل والد أبي عبيدة يتصدق له يوم بدر وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده فقتله فنزلت الآية : ( لا تجد قوما .. ) فأى ثبات وإيمان ترك لمن عدا الله من أجل دين الله أكثر من هذا ؟

3 - أحيانا يراد بالروح في القرآن الكريم جبريل كما ورد في سورة الشعراء بالآتيتين 193 ، 194 : ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ <sup>(193)</sup> عَلَيَّ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ .. ﴾ أى أن هذا القرآن الذى تقدم ذكره فى نفس السورة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ الآية (5) .

أنزله الله إليك وجاء به جبريل عليه السلام فتلاه عليك حتى وعيته بقلبك لتنذر به قومك ليكون قاطعا لعذر مقيما للحجة هاديا إلى المحبة المستقيمة مصلحا لأحوال البشرية جميعا .. وفى سورة النحل الآية (102) ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ . أى أخبرهم وقد جاء به جبريل من

(1) الآية 22 من سورة المجادلة .

عند الله كما أتولوه عليكم وكما اقتضت حكمته البالغة من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة على وحدانية بارئ النسم وواسع قدرته وحث على النظر فى ملكوت السموات والأرض وتشريع يرقى بالأمم التى تؤمن به إلى مستوى لا تدانيها فيه أمة أخرى ، ومما يؤيد أن المراد فى الآية جبريل قول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة الآية (97) : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قل لهم أيها النبى حاكيا لهم عن الله : من كان عدوا لجبريل ، فإنه من أحواله - ي نزل القرآن على قلبك أى فهو عدو لوحى الله تعالى الذى يشمل نزول التوراة وغيرها وهدى لخلقه وبشرى للمؤمنين وقوله : (بإذن الله) إرشادا إلى أن مناجاة جبريل لروحك وخاطبته لقلبك إنما كان بأمر الله لا افتياتاً منه فعداوته لا تقف حائلا دون الإيمان بك ، ولا تقوم عذرا فالذكر الحكيم من عند الله سبحانه وليس من عند جبريل .

4 - ووردت كلمة الروح أيضا وأربد بها عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، ففى الآية 171 من سورة النساء يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾<sup>(1)</sup> ، وآية الله فى خلق عيسى بكلمته وما نفخ فيه من روح كآيته فى خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روح فأيجادهما كان بغير السنة العامة فى إيجاد البشر من ذكر وأنثى ، من سلالة من طين : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾<sup>(2)</sup> .

هذا ، وقد وردت آراء أخرى فى كل المراد من كلمة روح لا أرى ما يدعو إلى إيرادها لبعدها عن المطلوب هنا ولأنها تقوم على الحدس لا على التحقيق .

ويرى ابن جرير الطبرى أن المراد بالروح فى الآية الكريمة : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ هو جبريل عليه السلام حاكيا ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقال ابن

(1) الآية 59 من سورة آل عمران .

(2) الآية 171 من سورة النساء .

القيم : إن المستنول عنه : الروح الذى أخبر الله تعالى عنه فى كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة عليهم السلام : قال لأنهم إنما يسألونه عليه الصلاة والسلام عن أمر لا يعرف إلا بالوحي وذلك هو الروح الذى عند الله تعالى لا يعمله الناس .. الخ . وقال بعض مفسرى تلك الآية الكريمة : الذى أراه متعيناً لسابقها ولاحقها أن المراد بالروح الوحي بالقرآن وهو قريب من رواية عن قتادة ، ووجهه أن هذه الآية فى سياق القرآن وتنزيله وأن يكون شفاء ورحمة .. الخ .

### والخلاصة :

أن أمر الروح مما جرى القول فيه على غير وجه واحد ، وكأنه شغل الباحثين والفلاسفة منذ أقدم العصور الإنسانية ، ولم يجمع القوم على شىء فى هذا وذلك لغموض الموضوع وبعده عن المحسّات وعدم دخوله فى دائرة المرئى المشاهد ، ولهذا جاء الجواب فى الآية الكريمة مشيراً إلى ترك الخوض فى مثل هذا ، فالروح من أمر الله تعالى وكثير مما يثبت فى هذا الوجود لا تصله إليه العقول المخلوقة التى لم تعد المحسّ من الأشياء إلى الآن فهى تجول وتصول فيما بين يديها من الموجودات وتوائم بينها بتوجيه من الله تعالى وهداية وتخرج ما يحير ألباب القاصرين الكسالى ، ففى ترك الأمر لصاحبه ، والاشتغال بما هو خير للإنسانية فى عاجلها وآجلها أجدى وأنفع وصدق الله العظيم حين يقول جل وعلا : ﴿ وَمَا أُرِيهِمْ مِنْ الْعَلَمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

نسأله الهداية والتوفيق للبعد عما يربب والاشتغال بما هو خير وأعظم رشداً والله الموفق المستعان .

## درس من النبوة

(أخرج أبو داود عن جابر بن عبد الله قال : خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشججه في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه : فقال : هل تجدون لي رخصة في التيمم .. ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم أخبر<sup>(1)</sup> بذلك فقال : (قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا ، وإنما شفاء العي<sup>(2)</sup> السؤال ، إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده) .

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس رضی الله عنهما : أن رجلا أصابه جرح في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أصابه احتلام ، فأمر بالاعتسال فمات ، بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (قتلوه قتلهم الله ، ألم يكن شفاء العي السؤال) (3) .

1 - درس نعم هو ، وإرشاد كريم ما أقومه ، فكم قتل الجهل أقواماً ، وكما أحيى العلم آخرين ، ومصدر التوجيه هنا هو من كانت حركاته وسكناته ونومه ويقظته ، وسيره وتوقفه ، وجهاده وسلمه ، وجده ومزحه ، سنة وهداية وقدوة وأسوة ، فما حظيت الإنسانية قمة الكائنات بمثل يشابهه أو يقاربه في حد به عليها ورفقه بها ، وعطفه على مسيئها ، وحبها لمحسنها ، وقف عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام جهوده على تعليم البشرية وإرشادها صادما بأمر ربه الذي اصطفاه وختم برسائله رسالات السماء ، وما تركها إلا على المحبة البيضاء ، حين جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأكمل الله الدين وأتم نعمته ، ورضى للبشرية الإسلام ديننا ، حاطه بالعلم

(1) بالبناء للمجهول .

(2) هي بالأمر عيا وهو عي : عجز عنه ولم يظلم أحكامه .. والرجل يتكلف عملا فيعيا به وعنه إذا لم يهتد لوجه عمله .. وعييت فلانا أعياه أى جهلته . الخ (تراجع مادة : عيا) في لسان العرب .

(3) ورد هذا النص في مسند الإمام أحمد بإسناد صحيح ، والنص السابق رواه أبو داود في سنته والغاية في النصفين واحدة وإن اختلفت الرواية .

وأوجب التعمق فى النظر ، وألزم متابعة الدرس ومواصلة البحث ، والنفوذ على أغوار الأشياء والخلوص إلى أسبابها ومسبباتها ومدخلها ومخارجها .

ففى كل شىء له آية ، وفى كل أثر برهان يفتح الأذهان ويزيد الإيمان ويجلى للعيان آثار قدرة الرحمن وما عليك لكى تدرك مدى حرص سيد الرسل صلى الله عليه وسلم على إرشاد أصحابه وحملهم على المعرفة حملا قويا إلا أن تراجع قليلا أحواله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فى مجالسهم معهم وأقواله الملقاه اليهم ، وطيب الكلم الذى صدر عنه فى أسلوب سهل ، وبيان شاف ، حيث تجد العبارة المنتقاة التى تأخذ طريقها الى القلوب فى يسر ورفق ، فتعمل عملها المبتغى .

ويظهر أثرها المرتجى انعكاس خير على المجتمع الذى تسطير عليه ، والقوم تحميمهم من غائلة أنفسهم وعاديات الخصم الألد ألا وهو الجهل وما الجهل إلا مكروب فتاك وداء قتال وعودة إلى مسارى الغابات وعيش فى دياجير ظلام ، وسد حائل دون كل كريمة ، ودافع ضد كل رقى ، لتسمع إلى سيدنا رسول الله ﷺ يقول : فيما رواه الإمام أحمد وأخرجه البخارى ، وغيرهما : (من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين) . ودين دون فقه غباء وبلاء وتخبط فى عمياء مجهل .

ويرى ابن ماجه والترمذى قوله عليه الصلاة والسلام : (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) فالعابد لنفسه عمل وربما ضل الطريق لأنه لم يدرس معالمها قبل الولوج فيها ، وأما الفقيه للدين فشمس تعبت الحياة فى الوجود ، وتفتش غياهب الظلم ، وتوضع للسالك دروب سبيله ، والفقيه ناج يأخذ بيده غيره إلى النجاة ، وينقذه من مهاوى لهلاك ، وقد جعل سيد الخلق طلب العلم فريضة على كل مسلم فى خلاصة حديث ورواه أنس وأورده ابن ماجه فى سننه ، ولم يكن فميا أوجبه من العلم على المسلم اقتنصار قط على علوم الدين الباحثة ، بل ألزم عمليا بعض أصحابه بتعلم ما يصول إلى كل معرفة كونية .

وما يبين عن علوم الآخريين فى ثقة وأمانة ، ولو كان هذا فى غير لغة القرآن وبعيدا عن مسالك يعرب ولسان قحطان وفصاحة قريش ، فها هو ذا سيدنا رسول الله ﷺ حين يعجب ويسر يزيد بن ثابت ويرى عليه دلائل النبوغ واضحة فى حفظه لبعض سور

التنزيل ، وهو لا يزال في سن مبكرة يقول له : (يا زيد تعلم لى كتاب يهود ، فإنى والله ما آمن يهود على كتابى) وفى وجه آخر من الرواية يقول له : (إنى أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا على أو ينقصوا فتعلم السريانيه ) ، فال زيد : (فتعلمتها فى سبعة عشر يوماً) ، ويرد هذا الخبر وأكثر منه فى طبقات ابن سعد وتاريخ دمشق لابن عساكر .

2 - وأول مكان نستطيع أن نطلق عليه اسم مدرسة هو المكان الذى قامت فيه دار الأرقم بن الأرقم باعتبار المدرسة هو المكان الذى تتلقى فيه دروس محدودة المعالم واضحة الأهداف بينة المناهج يقوم عليها معلم أو معلمون يحسنون التوجيه ويجدون الأداء ، ويفقهون كل ما يلقون إلى تلاميذهم ويحرصون على استيعابهم لكل ما تحتوى عليه مناهج دراساتهم ، فقد كانت تلك الدار مكان اجتماع الرسول ﷺ بأصحابه الأوائل حين كانت الدعوة تدب فى مكة دبيب البرء فى السقم فتشفى عقولا مستعدة من أمراضها الجاهلية ، وكانت تتلقى الدروس سرا ، حيث كان الحواريون .

الأول : يتذاكرون ما ينزل من كتاب الله ورسول الله يعلمهم مبادئ الإسلام ، ويأمرهم بحفظ ما يستطيعون حفظه عن ظهر قلب غيب ، ومن هذه الدار دار الأرقم ، خرج رسول الله بين صفيين من المسلمين ، يتصدر أحدهما حمزة بن عبد المطلب .

والثانى : عمر بن الخطاب ، وكان لهما كديد ككديد الطحين (أى غبار متصاعد يشبه ما يتصاعد من الطحين) وبعدها صارت الدعوة جهارا نهارا ، وأصبح بيت رسول الله ﷺ هو الندوة التى يتلاقى فيها المسلمون ، وظلت كذلك حتى هاجر الجميع الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة (يثرب) .

وهناك بنى مسجد رسول الله ﷺ ، وقامت دور نساءه أمهات المؤمنين إلى جواره ، فكان من أثره فى حياة المسلمين ما جعل كل أحوالهم عبادة وطاعة يتلقون الكتاب والحكمة ويطبّقون ما اشتملا عليه من تشريعات وأحكام تطبيقا دقيقا بكل ما اشتملت عليه الدقة من معان ، وكان جوابهم على كل ما يسمعون من سيدنا رسول الله ﷺ : (سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) .

وما كان تعليم الرسول لأصحابه ليتحدد بمكان أو زمان ، فقد حفلت دور المهاجرين بلقاءات معه ﷺ ومجالسهم الخاصة وطرق المدينة وحوادثها ، فكلما

التقى فرد برسول الله وجهه إلى الخير ودعاه إلى إجادة العمل ، وأوضح له ما أغلق عليه ، وبين له ما أشكل ، تستوقفه عجوز فيتحدث إليها ، ويلقى غيرها فلا يغادره حتى يبدأ بالمسير ، ويمد يده مصافحا ، وتبدى قسما وجهه الشريف نورا يجذب الناس إليه وكأكنهم عليه ، وهو دائما صابر متحسب مبتسم لا يتقل على أصحابه ، وإنما يتخولهم بالموعظة ليستطيعوا استيعاب ما يلقي إليهم ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ( كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السامة علينا ) كما ورد في مسن الإمام أحمد ، كما كان سيد الخلق يتحدث إلى كل فئة من الناس بما يناسبهم ، وبما يستطيعون إدراكه إدراكا تاما ، فله ﷺ مع البدو أسلوب يغير أسلوبه مع الحضرى ، كما كان يضرب الأمثال شرحا لغامض أو جلاء لخاف أو فتحا لمستغلق أو تفهيمًا لمن حال استعداده دون إدراك ما يلقي إليه بادئ ذي بدء ، فقد جاء في صحيح مسلم ما نصه : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل من بنى فزارة إلى النبي ﷺ فقال : إن امرأتى ولدت غلامًا أسود وإنى أنكرته ، فقال له النبي ﷺ : ( هل لك من إبل ؟ ) قال : نعم ، قال : ( فما ألوانها ؟ ) قال : حمر . قال : ( هل فيها أورك ؟ ) <sup>(1)</sup> قال : إن فيها لورقا . قال : ( فأنى آتاها ذلك ؟ ) قال : عسى أن يكون نزعة عرق . قال : ( وهذا عسى أن يكون نزعة عرق ) .

وكان هذا جوابا شافيا حاسما في موضوع السؤال لا يمكن للسائل أن يعقب عليه بنفى أو إنكار ، فقد حاوره المصطفى محاورة تركزت على ما يجرى فى بيئته ، ويتحرك أمام عينيه ، وتلمسه حواسه ، فهل له بعد ذلك أن يكرر ( وإنى أنكرته ) ؟

ذلك لعمر الحق برهان واضح على أن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى ، وإن ما يلقي إليه إن هو إلا وحى يوحى ، وإلا فبأى شيء يوصف ما يصدر عنه من قول حكيم ، وتطبيق مستقيم ، وتوجيه ما له نظير ، أتلك عبقرية ، أذلك سلامة فطرة ، وإن كانت فمن وهبها ومن فطرها ومن هداها فى تلك الحقب القفرء من العلم والمعلم ، من

(1) الأورك من الأبل الذى فى ولنه بياض إلى سواد . والورقة (بضم الواو وسكون الراء) سواد فى غيرة (بضم الغين المعجمة) وقيل : سواد وبياض كدخان الرمث يكون ذلك فى أنواع البهائم وأكثر ذلك الإبل (لسان العرب مادة : ورق) .

الكتاب والكاتب ، من النضوج العقلى وفقه العقلاء ، لا محيص أن نقول مصدر كل ذلك هو العليم الخبير الذى اصطفى وعلم واختار وأرشد ، وأرسل برسوله وأتاه الحجة البالغة ، ومنحه الحكمة وفصل الخطاب .

ولجمال ذلك الأسلوب فى التعليم والتوجيه نسوق مثلاً آخر أورده الطبرانى فى الكبير : (قال الراوى : أتى النبى ﷺ فتى من قريش فقال : يا رسول الله ائذن لى فى الزنا ، فأقبل القوم عليه وزجروه ، فقالوا : مه مه .. (لكن سيدنا الحبيب المصطفى) قال : ادنه فدنا منه قريباً ، فقال : (أتحبه لأمك ؟) قال : لا والله ، جعلنى فداك . قال : (ولا الناس يحبونه لأمهاتهم) قال : (أفتحبه لابنتك ؟) قال : لا .. والله .. يا رسول الله جعلنى فداك .. قال : (ولا الناس يحبونه لبناتهم) - ثم ذكر له رسول الله ﷺ أخته وعمته وخالته وفى كل ذلك يقول الفتى مقالته : لا والله يا رسول الله ، جعلنى الله فداك - قال : فوضع يده عليه وقال : (اللهم أغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وحسن فرجه) قال الراوى : فلم يكن هذا الفتى يلتفت بعد ذلك إلى شىء ، كما ورد عن البخارى أنه ﷺ كان إذا تكلم يكرر القول ثلاثاً لكى يفهم عنه ، وعن عائشة رضى الله عنها أنه ﷺ كان لا يسرد الكلام كسر دكم ، ولكن كان إذا نطق تكلم بكلام فصل<sup>(1)</sup> يحفظه من سمعه ..

وفى رواية أخرى : إنما كان النبى ﷺ يحدث حديثاً لو عدّه العاد لأحصاه ولم يقبل أبداً عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام أن يطربه أصحابه أو يطلبوا الثناء عليه (إلا بالصيغ التى صحت عنه) .

ففى مسند أحمد أنه ﷺ قال لبعض أصحابه يوماً : (لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله) .. وإنه - وإن كان توجيه وحكم وتعليم وارد فى الكتاب والسنة منه ما يعم النساء والرجال جميعاً ، وإن ورد الخطاب للمذكر وخاصة فى العقائد وأصول الدين - فمع هذا نجد سيدنا رسول الله ﷺ قد خص النساء بمجالس خاصة حين قلن له : يا رسول الله ، ما نقدر عليك فى

---

(1) فى لسان العرب مادة (فصل) : وفى صفة كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصل لا نزر ولا هذر : أى فاصل قاطع.

مجلسك من الرجال فواعدنا منك يوماً نأتيك فيه ؟ قال : (مواعدكن بيت فلان) وهناك لقيهن وتحديث إليهن مجيباً عن كل ما وجهن من أسئلة ، كما حكى ذلك البخارى ومسلم وغيرهما ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها : (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين) فقد كن لا يتحرجن فى الأسئلة مهما كانت ما دامت ترمى إلى فهم ما استغلق عليهن من أمور دينهن رضى الله عنهن جميعاً .

روى البخارى أن امرأة<sup>(1)</sup> جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق ، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت) ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (إذا رأت الماء) فغطت أم سلمة - تعنى وجهها - وقالت : يا رسول الله ، أو تحتلم المرأة ؟ قال : (نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها ؟) .

3 - والحديث الشريف موضوع البحث يكشف عن خبيثة نفس المتناول إلى مستوى لم يهيا له ، ولا تسمو به مؤهلاته إليه ، فهو يريد الصدارة وما تليق به إلا المؤخرة ، وتلك صورة تمر كثيراً فى حقب الزمان المتعاقبة ، وبين كل أرباب الوظائف والحرف المختلفة ، فكم من صريع على يد مدعى النظاسة ، وكم من جاهل يبدى للأمة أن نقرس<sup>(2)</sup> ، وما أكثر من يتصدرون للفتيا وهم من الجهالة بمكان ، ورحم الله امرئ عرف قدر نفسه ، وهذه أحوال يجب أن يتعد عنها وينفر منها من ينتسب إلى الإسلام دين الحق الواضح ، والعلم النافع ، ولهذا نجد ونلاحظ هنا فى حديث سيدنا الحبيب رسول الله ﷺ الدعاء بالموت والهلاك لأولئك الذين أفتوا بغير علم أقماتوا صاحبهم ، ويقول فى جلاء وإشراق ما معناه : هلا استعلموا من غيرهم ممن هو أدري منهم بالحكم إذا جهلوا وحين أغلق عليهم الأمر ، ويشرح حالهم المتهافت ، وأنهم لا يستحقون الحياة ، لأنهم هم مرضى وجهلة ، ومع هذا لم يحاولوا شفاء عيبتهم ولا يتغلبوا على قصور معارفهم بسؤال من يعلم : (قتلوه ، قتلهم الله ، ألا

(1) فى فتح البارى يشرح البخارى تأليف : الحافظ شهاب الدين أبى الفضل العسقلانى المعروف بابن حجر : أن السائلة هى : أم سليم بنت ملحان والدة أنس بن مالك وأن أم سلمة رضى الله عنه زوج الرسول صلى الله عليه وسلم كانت حاضرة المجلس .

(2) يقال : نطاسى للطبيب الحاذق بالطلب العالم بفنونه . كما يطلق نقرس : على القطن للامور الفاقة لها (لسان العرب مادة : نطس) .

سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء العى السؤال) ولعل الذين يتجرءون على الله ، ويفتون بما لا يعلمون أن يتخلوا عن كبرياتهم المتكلف حتى لا يكونوا وقوداً للنار .

فقد ورد فى الأثر : أن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان إذا سئل أحال السائل على سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فيقال له فى ذلك فيقول : (أتريدون أن تجعلوا ظهورنا جسورا يوم القيامة يقولون أفتانا بها ابن عمر) ولن يغض عن قيمة المسئول حتى العالم أن يقول : لا أدرى ، فقد روى عن مالك بن أنس رضى الله عنه انه قال : (من قال : لا أدرى فقد أفتى واستبرأ لدينه) وهذا إذا لم يتعين الافتاء على هيئة أو شخص ، فحينئذ يستعين الله ويتحرى الصواب ، ويتقى الله ويعلمه الله إنه سبحانه نعم الهادى إلى سواء السبيل ..

## هذا هو الحل

عن أبي هريرة قال : بينما نحن فى المسجد ، خرج النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (انطلقوا إلى يهود) فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدارس<sup>(1)</sup> فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : (يا معشر يهود . أسلموا تسلموا . اعلّموا أن الأرض لله ولرسوله ، وإنى أريد أن أجليكم من هذه الأرض<sup>(2)</sup> فمن وجد<sup>(3)</sup> منكم بماله شيئا فليبعه)

(متفق عليه)

1 - من سنن الكون التى جعل الله جلت حكمته الوجود عليها ، الصراع الدائم ، والعراك المستمر ، والتناحر بين القوى المختلفة ، والتطاحن الدائب والبقاء والشباب لصاحب الغلبة على منافسيه ، تلك سنة الله فى هذه الدنيا ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ودواعى ذلك لا تمت إلى الحق والعدالة بسبب دائما ، بل غالبا ما تكون مميتة للحق ، وقاضية على العدالة ، وإن انتمت إلى استقامة الأمور ، استقرار الأمن فى زمان أو مكان ، فذلك هو النادر الأقل ، وإذا ضاق قبييل أو جماعة أو أمة بفعل آخربن ولم يستطيع له ردا ولا لكيدته دفعا ، صاح : هذه شرعة الغاب وتلك طبائع الوحوش ، ولو كانت للشاكي الغلبة فلربما أبدى لخصمه ناجذيه ، وصار أشد فتكا بمقوماته حتى يجليه عن ساحته أو يببده ليضحى أثرا بعد عين ، وخبرا ينبى عن حقيقة كانت وواقع وجد .

---

(1) بيت المدارس - بكسر الميم - هو الموضع الذى كان يجتمع فيه اليهود ليتدارسوا كتبهم ، وقيل : العالم الذى يدرس كتابهم . قال ابن حجر العسقلانى : والأول أرجح لأن فى رواية أخرى حتى أتى المدارس .

(2) أجليكم من هذه الأرض ، أى اريد إخراجكم منها والإشارة إلى أرض المدينة المنورة أو ما كانوا يمتلكونه من أرضها أو الجزيرة العربية كلها - بكل قيل .

(3) فمن وجد وفى رواية فمن يجد .. وهو إما من الوجدان . أى يجد مشتريا أو من الوجد . أى الممجة والمقصود أن منهم من يحب ماله ، ويشق عليه فراق شىء منه مما يعسر تحويله . فقد أذن له الرسول الكريم فى بيعه .

والمستقرىء لحوادث التاريخ عبر أزماته المتطاولة يدرك أن من بنى الإنسان من شذ طبعه نافرا عمن حوله ، غير ملق بالا ، ولا مصيخ سمعا لنداء عقل أو شريعة ، وإنما تحكم تحركاته شهواته الجامعة ورغباته الجانحة إلى التغلب والسيطرة ، وتقوده غرائزه النائرة الملتهبة إلى التهام كل ما يمكنه اغتياله ولو كان زائداً عن مطالبه وضرورة حياة الآخرين ولا يجدى معه قول لين أو فعال خيرة ، ولا يفيد نصح مهما كان مصدره وإنما علاجه القوة والشدة ، وأخذَه دون هوادة ، وضربه على أم رأسه ليفيق ويستطيع القاء سمعه لما يراد منه ، وفتح عينيه على ما يدور حوله ، ومع هذا فكلما أمكنته الفرصة وثب ، ومتى لاحت له ثغرة ولج إلى الشر منها ، وأنشَب أظفاره فى ضحاياه دون حياء أو وجل ، ومع هذا فأساة الحياة وترباقها هم رسل الله فى لىت الناس يعلمون .

وقد امتازت شردمة من البشر فعرفت بمعاداة البشرية جمعاء ، وقتل أنبياء الله ومحاولة الانتقاص ممن لم ينشأ على دينهم ، أو لم يسلك سبيلهم مهما كان لونه أو وضعه ، زاعمين أن الله اصطفاهم فهم أبناؤه وأحباؤه وشعبه المختار ، ودراسة أحوال اليهود منذ بدء وجودهم على البسيطة تظهر أنهم لا يقولون مجرد قول ، وإنما يخططون لما يريدون مسرين إذا أعياهم الجهر ، ومعلين إذا أمكنتهم الفرصة ، وواتاهم الحظ ، وأمسكوا بزمام الموقف ، وقد سيطروا على المرافق الحيوية التى تدر المال - إذ المال عصب الحياة - فى كل بلد وجدوا فيه ، وثبتوا أركانهم فى مراكز الإعلام ، وتطوروا معه كلما تطور عبر الزمان ، وطلب البرهان على هذا لا يعيبه أن يراجع الأسماء اليهودية فى المنظمات العالمية المعاصرة على اختلاف أشكالها وأهدافها ثقافية أو علمية أو زراعية أو صناعية ، بل من الممكن أن يقال : إن كثيراً من الأسماء لمعت فى قرننا وعاصرناها كان وراءها يهودى مفرد ، أو جمعية منظمة ، أو منشأة سرية ، ولا مبالغة فى هذا ولا تزيد ، فمن هذه الأمور ما انكشف غطاؤه ، ومنها ما ستكشفه الأيام .

2 - ولهذا فليس من العجيب أن يتحدث التاريخ عن حرب اليهود وعداوتهم للإسلام ورسوله منذ اللحظة التى وصل فيها سيدنا محمد ﷺ إلى المدينة مهاجرا من مكة ، ولندع المجال لابن إسحاق صاحب السيرة العطرة يحدثنا كيف ناصب اليهود

الرسول ﷺ العداة حيث يقول : (ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسناً وضغناً لما خص الله به العرب من أخذه رسوله منهم) .

ويسرد ابن هشام فى سيرته أسماءهم من بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة ويهود بنى زريق وغير هؤلاء كثيرون ، وفى بيان كذبهم وختلهم وخذاعهم والإفصاح عن سوء طويتهم ، ويقول واحد كان منهم ثم أسلم ذلكم هو عبد الله بن سلام ، وكان من علمائهم وابن سيدهم قال : (كتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله . إن يهود قوم بهت (أى أهل باطل) وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم ، قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به عابونى ويهتونى . قال : فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض بيوته ، ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين<sup>(1)</sup> ابن سلام فيكم ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ، قال : فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم : يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاء به ، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله ، مكتوباً عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله وأؤمن به ، وأصدقته ، وأعرفه ، فقالوا : كذبت . ثم وقعوا بى . قال : فقلت لرسول الله ﷺ : (ألم أخبرك إنهم قوم بهت ، وأهل غدر وكذب وفجور ، قال : فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى) .

وقد بدأ النفاق فيهم فقد أسلموا تقية ولم يخلص إسلامهم لله ، وكان من أحبارهم من أسلم نفاقاً مثل زيد بن اللصيت ، وهو الذى قال حين ضلت ناقة رسول الله ﷺ : يزعم محمد أن يأتية خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقتة . فقال رسول الله ﷺ ، وقد جاءه الخبر بما قال عدو الله فى رحله : إن قائلاً قال : يزعم محمد أنه يأتية خبر السماء ولا يدرى أين ناقتة .. ؟ وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلنى الله عليها ، فهى فى هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمانها . فذهب رجال من المسلمين فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ وكما وصف<sup>(2)</sup> .

(1) ويظهر أن هذا كان اسمه قبل الإسلام .

(2) أورد هذا الخبر ابن هشام فى سيرته ص 174 ج 2 طبعة الحلبي بالقاهرة .

وقد هادنهم سيدنا رسول الله ﷺ وعقد معاهدة ، ولكنهم لم يرعوا عن خبث طويتهم ، فما لبثوا أن نكثوا العهود ، ونقضوا المواثيق ، وبدا من أفواهم ما أخفت قلوبهم ، وقد حفلت كتب التاريخ بالكثير من أخبارهم فى هذا المجال ، فلا يدع أن يجلبهم ﷺ عن المدينة إلا قليلا من عمال الزراعة ، ولما ولى عمر بن الخطاب أمر المسلمين وآلت إليه الخلافة أجلي من بقى منهم ولم يدع يهوديا يقيم بالمدينة إلا أخرجها منها حفاظا على كيان المسلمين ، وقطعا لدابر فتن اليهود وقضاء على فسادهم ، فقد كان الوحى يخبر الرسول ﷺ بنفاقهم ، وقد انقطع من بعده فخشى عمر رضى الله عنه خيانتهم وغدرهم ووقيعتهم ودسائسهم ، ولم يجد بدأ من إخراجهم إلى حيث لا يعودون .

فمن ابن عمر رضى الله عنهما يروى البخارى أنه قال : قام عمر خطيبا ، فقال : إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خبير على أموالهم ، وقال : (نترككم على ما أقركم الله) وقد رأيت إجلاءهم ، فلما أجمع عمر على ذلك أتاه أحد بنى أبى الحقيق فقال : يا أمير المؤمنين أخرجنا وقد أقرنا محمد وعاملنا على الأموال ، فقال عمر : أظننت أنى نسيت قول رسول الله ﷺ : (كيف بك إذا أخرجت قلوبك<sup>(1)</sup> من خيبر ، تعدو بك قلوبك ليلة بعد ليلة) فقال : هذه كانت هزيمة<sup>(2)</sup> من أبى القاسم ، فقال : (كذبت يا عدو الله) فأجلاه عمر وأعطاهم قيمة ما كان لهم من الثمر مالا وإبلا وعروضا من اقتاب (جمع قتب وهو الرحل للبعير كالأكفاف لغيره وحبال وغير ذلك) . وفى حديث متفق عليه يحدث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ أوصى بثلاثة قال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا (أى أعطوا) الوفد بنحو ما كنت أجيزهم . قال ابن عباس : وسكت عن الثالثة أو قال فأنسيتها .

3 - ومع التاريخ نجتاز مراحلها ، حيث أصبح اليهود تندس فى كل مكان يمكن الله فيه للمسلمين ولو ردحا من الزمان حتى يصبحوا - أى اليهود - هم السوس الذى ينخر فى عظام الدولة فيهلكها ، وما حديث إسماعيل بن النخيلة بغريب فى

(1) القلوب : الناقة الشابة القوية .

(2) الهزيمة تصغير الهزلة وهو ضد الجد يعنى كانت على طريق المزاح .

تاريخ الأندلس : (فقد نشأ بقرطبة واضطرتته فتنه البربر سنة 399 هـ إلى الهجرة منها فسكن (مالقه) حيث افتتح له دكانا فدرس التلمود بقرطبة على الكاهن حنوك كما درس الأدب العربي حتى يتقن الكتابة المنمقة بالعربية ، وتوصلت به الأحوال إلى أن أصبح كاتباً عند أبي العباس ووزير (حيوس) وكاتبه الأعلى ، ولما توفي أصبحت شئون الديوان في يد إسماعيل ، وأخذ يتقرب إلى باديس طمعا منه أن يحظى لديه إذا هو تولى الحكم بعد أبيه حيوس .. وال أمر إسماعيل إلى أن اتخذته باديس وزيراً) (1) .

وقد مكن لليهود ، وفيه يقول ابن حيان : (وكان هذا اللعين في ذاته على ما روى الله عنه من هداية من أكمل الرجال علما وحلما وفهما وذكاء ودماثة خلق وزكاته ودهاء ومكرا وملكا لنفسه وسطا من خلقه ومعرفة بزمانه ومداراة العداوة) (2) . وكان وجوده في منصبه سببا في تمكين اليهود في الشؤون المالية والإدارية لأنه يختار الموظفين منهم فاكتسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين ، ولما مات خلفه ولده يوسف على الوزارة ، وقد سلمه باديس أمور الدولة فعاث فيها فسادا ، وكان شديد التطاول على الأديان كثير التدبير للمؤامرات بواسطة النساء غالبا ، وقد كتب رسالة يطعن فيها على الإسلام ، وينفى قداسة القرآن ، ويحاول تقويض أصول الرسالة المحمدية ، ولكن ابن حزم الأندلسي طيب الله ثراه تصدى للرد عليه بكل مفحم مفندا أقواله رادا عليه فعاله ، ولم يخش في الله لومة لائم رحمه الله - وأجزل مثوبته عن الإسلام والمسلمين .

وتشتعل ثورة ابن حزم على تلك الأوضاع السيئة ، وعلى الحكام الذين يمكنون للذميين من المسلمين ويسلمون الحصون للروم دون قتال ، وعلى تساهلهم في شؤون المسلمين ، والاهتمام بمصالح أنفسهم دون مصالح الرعية ، ومع ذلك لا نراه ينصح بالخروج عن طاعتهم وهو في نفسه في حيرة من الأمر ومع تغلغل اليهود في مصالح الدولة كانت النهاية الحتمية ، وهو ضياع ملك العرب من الأندلس نهائيا وإلى الأبد ، وما زال اليهود ينظمون مواقعهم ويحزمون أمورهم بالروية والإتقان مع الخداع والمكر

(1) الرد على ابن النغيلة اليهودي لابن حوم الأندلسي . ص 9 و10 تحقيق الدكتور إحسان عباس .

(2) ص 11 من نفس المرجع .

منذ آلاف السنين حتى استطاعوا أن يعلنوا لهم دولة في أرض المعاد بين أمة عربية إسلامية تحيط بهم من كل جانب ، ولو أن المسلمين فطنوا إلى ما رسم لهم سيد الرسل قائدهم وموجههم لما سمحوا ليهودي مهما كانت فائدته الظاهرة لدولتهم أن يقيم بينهم أو يوطد له مكانا في أرضهم ولو كان في بقائهم خير للأمة الإسلامية لما أجلاههم سيدنا رسول الله ﷺ عن أرض المدينة ، بل عن الجزيرة كلها حين نفذ ذلك خلفاؤه الراشدون من بعده .

وأما الآن ونحن في واقع لا يرضى ولا يسر ، فأولى لنا أن نلتقى على فهم لأوضاعنا وإدراك لمشاكلنا على أنها مشتركة متلاحمة ونعالجها بصبر وحزم وأناة في ضوء الإيمان العميق بقدرة الله تعالى وأنه ناصر من لا يحماه ، وسلك طريق هداه ، وما طريق هدايته هنا إلا أن يأخذ العقلاء بأطراف التوجيه النبوي الكريم ، ويقوا في الغد وأنه دائما مع الجادين العاملين ، ولنضع نصب أعيننا تقييماً أنفسنا ، وإنزالها المنزلة اللائقة بها ، وإن لكل فرد حق الحياة الحرة الكريمة ، وإن من أستبيحت حرماته من المسلمين ، فإن مسئولية إقالته من عثرته تقع على كل المسلمين ولا يستطيع الفكاك من هذه المسئولية أحد مهما حاول .

والله تبارك وتعالى لا يترك أحدا عمله ، ومن أعان أنبياءه ورسله لا يعيبه أن ينصر المخلصين من أتباعهم أينما وجدوا ، وحيثما كانوا ، والبقاء للأصلح اللائذ بحمي الله ولئن قيل : البقاء للأقوى ، فيجب أن نعلم أنه لا قدرة ولا قوة فوق قدرة الله وقوته ، فهو وحده الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما الإخلاص له ، والاعتماد عليه ، واتباع سبيله هو العامل الأول للنصر مهما قيل ومهما اضطريت أفهام الناس في شئون حياتهم ، ومحاولتهم الياذ بزيد من الناس أو عمرو ، فالله وحده هو الخالق والقادر والباقي ومدبر كل شيء ، ولكنه قال في محكم ما أنزل على خير رسله : ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾<sup>(1)</sup> ، وقال عز شأنه للمؤمنين : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾<sup>(2)</sup> ، ومن أصدق من الله قليلاً .

(1) الآية 40 من سورة الحج.

(2) الآية 150 من سورة آل عمران .

# نزول عيسى عليه السلام

## من أشرطة الساعة

روى البخارى عن ابن شهاب : أن سعيد بن المسيب سمع أبا هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها) ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لِمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ (1).

1 - خبر نزول عيسى عليه السلام بلغ حد التواتر وقد وردت الأحاديث الشريفة الدالة على هذا الخبر فى جميع الكتب الصحيحة (2) وتحدث به شارحا ومؤكدا كل علماء التفسير والحديث من لدن إن سمع هذا الحديث ومنذ أن بدأ عهد التدوين وجدنا أحاديثهم مسطورة فى آثارهم الشريفة وتنقل قبل التدوين وجاء محكيا عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كما حمله خبرا موثوقا مؤكدا متواترا التابعون وتابعوهم بإحسان إلى يومنا هذا ، ولنسرد على أنظار القارئ الواعى الذى يلقى

(1) الآية 159 من سورة النساء .

(2) ورد هذا الحديث نصا أو مع اختلاف يسير فى الألفاظ فى المصادر الآتية لا على سبيل الحصر وإنما على سبيل المثال .

- 1 - ورد فى صحيح الإمام البخارى فى باب نزول عيسى عليه السلام وذكر فيه حديثين عن أبى هريرة .
- 2 - وأخرجه الإمام مسلم فى صحيحه من رواية الليث بن سعد عن ابن شهاب ، ومن حديث ابن عمر رضى الله عنهما .
- 3 - وذكره أبو نعيم فى المستخرج من سند إسحق بن راهويه .
- 4 - وأورده الإمام أحمد فى مسنده ومن وجه آخر عن أبى هريرة .
- 5 - وذكره الطبرانى من حديث عبد الله بن مفضل .
- 6 - ورواه ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما من طريق سعيد بن سهير بإسناد صحيح .
- 7 - ورواه أبو داود بإسناد صحيح من طريق عبد الرحمن بن آدم عن أبى هريرة مرفوعا .
- 8 - ورواه ابن ماجه ، وابن حبان ، والبيهقى .

السمع وهو شهيد آثارهم عبر قرون وقرون ثم نعقب بما يقتضيه المقام .

(أ) قال الشيخ محمد السفاريني في كتابه (لوامع الأنوار البهية ص 94 ج 2) ... ونزوله أى عيسى عليه السلام ثابت بالكتاب ، والسنة ، والإجماع أما الكتاب : فقوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أى ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى ، وذلك عند نزوله من السماء آخر الزمان حتى تكون الملة واحدة ملة إبراهيم حنيفا مسلما .

وأما السنة : فقد ورد خبر نزوله فى الصحيحين وغيرهما (كما هو مبين بالهامش) .

وأما الإجماع : فقد أجمعت الأمة على نزوله ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة ، وإنما حاول الإنكار الفلاسفة والملاحدة ، وقد انعقد إجماع الأمة على أنه ينزل ويحكم بالشريعة المحمدية) .

(ب) ساق العلامة الحافظ ابن كثير القرشى فى كتابه (تفسير القرآن العظيم) ص 578 ج 1 ، كل الأحاديث الواردة فى نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض من السماء آخر الزمان قبل يوم القيامة وأنه يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وعند تفسيره قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ ، قال : قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل فى معنى ذلك وأصبح أقوالهم أن هذا الإيمان يكون عند نزول عيسى عليه السلام ، يعنى لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى إلا آمن به قبل موت عيسى .

وهنا عقب ابن كثير بقوله : ولا شك أن هذا الذى قاله ابن جرير هو الصحيح لأن المقصود من سياق الآى من تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى عليه السلام وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله سبحانه أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبه وهم لا يتبينون ذلك ، ثم أنه رفعه إليه وأنه باق حى ، وأنه سينزل قبل القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة ، فيقتل مسيخ الضلالة ويكسر الصليب ويقتل الخنزير يضع الجزية فلا يقبلها من أحد أهل الأديان ، بل لا يقبل إلا الإسلام فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم .

ولهذا قال : (قبل موته) أى قبل موت عيسى الذى زعم اليهود والنصارى أنه قتل وصلب ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أى بأعمالهم التى شاهدتها هو قبل رفعه إلى السماء وبعد نزوله إلى الأرض كما ورد فى سورة المائدة فى الآية رقم 16 وما يليه .

(ج) وقال الزمخشري فى تفسيره (الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) ص 581 جـ 1 ، عند قوله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ : (الضميران لعيسى عليه السلام بمعنى وإن منهم أحد إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وهم أهل الكتاب الذين يكونون فى زمان نزوله ، حيث روى : أنه ينزل من السماء فى آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام .

(د) وأورد القرطبي فى كتابه (الجامع لأحكام القرآن) ص 10 جـ 1 ما يدل على نفس المعنى وأعاد النصوص كاملة كما هى مؤكدا بأسلوبه الخاص وعباراته المتميزة خبر نزول عيسى عليه السلام .

(هـ) وقال أبو حيان الأندلسى الغرناطى فى تفسيره (البحر المحيط) ص 392 جـ 3 : روى أنه - أى عيسى عليه السلام - ينزل من السماء فى آخر الزمان ، فلا يبقى أحد من أهل من الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهى ملة الإسلام ، قاله ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وأبو مالك ، ثم أورد أبو حيان ما لا يخرج عما أورده من سبقوه فى معالجة تفسير القرآن العزيز .

(و) وقال الألوسى البغدادي فى تفسيره (روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى) ص 13 جـ 6 ما نصه : الضميران لعيسى عليه السلام وروى ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما وأبى مالك والحسن وقتادة وزيد واختاره الطبرانى ، والمعنى ، أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام إلا ليؤمنن به قبل أن يموت وتكون الأديان كلها ديننا واحدا ، وأخرج أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب ويعطى المال حتى لا يقبل - أى المال - وتلا أبو هريرة رضى الله ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ .

(ز) وقال القاسمى فى تفسير (محاسن التاويل) عند قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ : أى ما من أحد من أهل الكتاب يدرك نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان إلا ليؤمنن به قبل موته أى موت عيسى ، أى لا يموت حتى ينزل فى آخر الزمان يؤيد الله به دين الإسلام حتى يدخل فيه جميع أهل الملل ، إشارة أن موسى عليه السلام ، إن كان قد أیده الله تعالى بأنبياء كانوا يجددون دينه زماناً طويلاً ، فالنبي الذى ينسخ شريعة موسى ، هو عيسى عليه السلام ، وهو الذى يؤيد الله به هذا النبي العربى فى تجديد شريعته ، وتمهيد أمره والذود عن دينه ويكون من أمته بعد أن كان صاحب شريعة مستقلة وأتباع مستكثرة ، ذلك أمر قضاه الله تعالى فى الأزل ، فأقصرها أيها اليهود ، فمعنى الآية إذن والله أعلم : أنه ما من أحد من أهل الكتاب المختلفين فى عيسى عليه السلام على شك<sup>(1)</sup> ألا وهو يوقن بعيسى قبل موته بعد نزوله من السماء ، أى أنه ما قتل وما صلب ويكون ذلك عند زوال الشبهة أ هـ . نقله القاسمى عن البقاعى .

ثم أورد القاسمى بعد ذلك الأحاديث الصحيحة الواردة فى صحيحى الإمامين البخارى ومسلم وغيرهما ، ومن تلك الأحاديث ما رواه الإمام أحمد فى المسند ص 437 ج 2 ، طبع الحلبي عن أبى هريرة عن النبي ﷺ ، قال : (.. الأنبياء إخوة لعلات<sup>(2)</sup>) : دينهم واحد وأمها تهم شتى وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بينى وبينه نبي ، وأنه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفونه ، فإنه رجل مربوع يميل إلى الحمرة والبياض ، سبط ، كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، بين ممصرتين (الممصرة من الثياب هى التى فيها صفرة خفيفة) ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير يضع الجزية ، ويعطل الملل حتى يهلك الله فى زمانه الملل كلها غير الإسلام ، ويهلك فى زمانه المسيح الكذاب ، وتقع الأمانة فى الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسود جميعاً ، والنمور مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات ، لا يضر بعضهم بعضاً فيمكث ما شاء أن يمكث ثم يتوفى فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه) .

(1) يشير إلى قوله تعالى فى الآية رقم 157 من سورة النساء : (.. وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا) .

(2) بنو العلات : أبناء الرجل الواحد من أمهات شتى : (لسان العرب مادة علل) .

(ح) وقال الحافظ بن حجر العسقلاني فى كتابه (فتح البارى بشرح صحيح البخارى) ص 303 ج 7 : قال العلماء : الحكمة فى نزول عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود فى زعمهم أنهم قتلوه فبين الله تعالى كذبهم وأنه هو الذى سيقتلهم أول نزوله لدنو أجله ليدفن فى الأرض إذ ليس لمخلوق من تراب الأرض أن يدفن فى غيرها ، وقيل أنه - أى عيسى عليه السلام - دعا ربه لما رأى صفة محمد وأمه فيما أنزل عليه من الإنجيل أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل فى آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام فىوافق خروج الدجال فيقتله .. ونقل - أى الحافظ بن حجر - عن طريق أبى رجاء عن الحسن قال : قبل موت عيسى (يعنى إيمان أهل الكتاب المشار إليه فى الآية الكريمة) . والله إنه الآن لحي ، وإذا نزل آمنوا به أجمعون ، ونقله عنه أكثر أهل العلم ، ورجحه ابن جرير وغيره .

(ط) وأخيراً قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله تعالى فتواه ص 3269 ج 4 ما نصه : (والمسيح عليه السلام وعلى سائر النبيين لا بد أن ينزل إلى الأرض على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، فيقتل الدجال ويكسر الصليب ويقتل الخنزير كما ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة ، ولهذا كان فى السماء الثانية لأنه ينزل إلى الأرض يوم القيامة .

أما بعد : فهذه مصادر الشريعة (الكتاب والسنة والإجماع) التى لو أطرحتها لما قام بناء الإسلام ، ولو شككنا فيها لتطرق الشك إلى كل ما كانت تلك المصادر مصدره ، وأى كتاب يعتد به مرجعاً بعد القرآن الكريم ، ونرجو عنده الخير اليقين ، وبأى سلاح ندرع إذا نحن رددنا الصحاح التى اعتبرها علماء الملة من لدن إن بدت للوجود ، وقرئت فى كل ناد ودوى صوتها يملأ أجواز الفضاء ، وشع نورها ، فأخرج ضحى المحجة الطاهرة وأغطس ليل الكفر البهيم ، فبهرت الدنيا شريعة سيدنا رسول الله ﷺ ، وأرست قواعد العدالة والحق توجيهات ربنا جلا وعلا وقام القرآن الكريم حارساً من زيع ، وسياجاً من ضلال ، وسداً منيعاً لا ينال حماه ضد كل مهاجم كاشح ، وحصناً رفيعاً لا يطاول يصد كل غاز بقوة مادية تسلح ، أو بفكر فلسفى تذرع ، أو

بمرواغة وممالة اتصف ، أو بلسان أعجمى رطن<sup>(1)</sup> أو عربى أفصح إن جاء شارعا  
رمحه صدته رماح ، وإن مخيا مكره فالله خير الماكرين .

وعلى هذا أمكن أن يقال كإنه مما لا يقبل الجدل ولا يحتمل الممارة ولا  
يدعو إلى المساءلة خبر نزول عيسى عليه السلام فى آخر الزمان ، الذى نزوله ظاهرة  
أساسية ونذيرا مفاتيح الغيب التى لا يعلمها إلا هو ، وسيكون لا يعلم تحديد إلا من  
عنده وإيذاناً بدنو أجل الدنيا وطرقا قويا لأبواب الآخرة ولكن متى ؟

هنا يقف القلم عن الجريان ، وتخرس الألسنة عن الكلام ، وتتجه الأبصار  
والبصائر إلى من عنده الجواب وحده ، وتناجى القلوب الطاهرة قيوم السموات  
والأرض : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا  
ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾<sup>(193)</sup> رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا  
تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ<sup>(194)</sup> ﴿<sup>(2)</sup>

2 - ونعود إلى ألفاظ الحديث الشريف موضع البحث ذاكرين معانيها وما تشير  
إليه ، إذ مفتاح الكلام الشريف يشعر بقرب نزول عيسى عليه السلام وذلك فى قوله ﷺ :  
(ليوشكن) أى ليقربن ويكون حصوله سريعا ، وهذا من أشرط الساعة ، وعلم توقيتها  
محبوب على البشر لسر يعلمه الله تعالى ، وقد ألح السائلون عن الساعة ، على رسول  
الله ﷺ فنزل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا<sup>(42)</sup> فِيمَ أَنتَ  
مِنْ ذِكْرَاهَا<sup>(43)</sup> إِلَىٰ رَبِّكَ مُتَهَيِّئًا<sup>(44)</sup> إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا<sup>(45)</sup> كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ  
يَلْبُثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا<sup>(46)</sup> ﴾ الآيات من سورة النازعات وإنما تسبقها نذر تنبىء عن  
اقتربها ، ولدى نزول عيسى عليه السلام سيفيض المال ويكسر لدرجة أن الناس لا  
يهتمون بتحصيله وإنما ينحصر حرصهم على رضا الله تعالى فى العبادة وحدها حتى  
تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها .

(1) رطن الأعجمى رطنا تكلم بلغته ، والرطانة والمواطنة : التكلم بالعجمية وقد تراطنا . تقول : أعجميين  
يتراطنان . وهو كلام لا يفهمه إلا العرب . قال الشاعر : (كما تراطن فى حافاتنا الروم) عن لسان  
العرب مادة . رطن .

(2) الآيتين 193 و 194 من سورة آل عمران .

قال ابن الجورى : يشير أبو هريرة رضى الله عنه ، عند تلاوته للآية الكريمة فى آخر الحديث إلى صلاح الدنيا وقوة إيمان الناس بالله تعالى ، وإقبالهم على الخير وقيامهم بالعبادة لله كاملة غير منقوصة ، وقال القرطبي : معنى الحديث : إن الصلاة حينئذ تكون أفضل الصدقة لكثرة المال حينذاك وعدم الانتفاع به حتى لا يقبله أحد ، وفلى قوله : ويضع الحرب إشارة إلى أن السلام سيعم الدنيا ولا يوجد ما يدعو لقتال فيصير الدين واحداً ، والحكم العدل هو عيسى عليه السلام على سنن سيدنا محمد ﷺ .

وهذا الحديث لا يتعارض مع ما ورد فى أحاديث أخرى من أن الساعة لا تقوم إلى على شرار الناس : وحتى لا يقال فى الأرض : الله . الله . لأن الفساد المشار إليه سيحدث بعد موت عيسى عليه السلام ، ودفنه بالأرض فحينئذ سيعود الكفر مسيطرا ويتجافى الناس عن كل دين ، فقد أخرج الإمام أحمد ومسلم من حديث ابن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (تجىء بعد موت عيسى عليه السلام ريح باردة من قبل الشام فلا تبقى على وجه الأرض أحداً فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحداً دخل فى كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكراً فيتمثل لهم الشيطان ، فيقولون : ماذا تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، فيعبدها وهم فى ذلك فى دار رزق حسن عيشهم ثم ينفخ فى الصور) .

والخلاصة : إن نزول عيسى عليه السلام حاصل بإذن الله تعالى وتقديره ، ونحن نؤمن بكل ما ورد فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة جملة وتفصيلاً ، ومعلوم أن من آمن بالله وأيقن بقدرته التى لا يعجزها شىء سهل عليه التصديق برسالة رسله عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وبالتالي يؤمن بكل ما صدر عنهم ما دام صحيحاً متواتراً مجعماً عليه من سلف الأمة وخلفها المتعاقبين فى حقب الزمان المتطاولة ، وأن الملحدون فى آيات الله تعالى فلا يقام لهم وزن ، فما يأتون إلا بنظريات لا تثبت على المحك العقلى المتزن ، ولئن بدت بعض الأخبار الصادقة غريبة الآن فغرايتها لا تستدعى إنكارها فكم من مجهول كشفه العلم كان الحديث عنه مفروضاً فى كل صورته

ولا يمكن أن يشاع ويذكر وإن صدر به قول وصف مصدره بالجنون والعتة ، وقد أيدت الأيام صدق ما كانوا يحسدون ، وهذا في جانب البشر ، فما بالك بما عند علام الغيوب لا شك أنه حق وصدق وسيكشف عنه كسر الغداة ومر العشى .. وفي الذكر الحكيم : ﴿سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾<sup>(1)</sup> . صدق الله العظيم .

---

(1) الآية 53 من سورة فصلت .

## حديث الغار

عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق ، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه .

فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أجير عمل لى على فرق من أرز ، فذهب وتركه وإنى عمدت إلى ذلك الفرق فزرعته فصار من أمره أنى اشترت منه بقرا ، وانه أتانى يطلب أجره ، فقلت : أعمد إلى تلك البقر فسقها ، فقال لى : إنما لى عندك فرق أرز ، فقلت له أعمد إلى تلك البقر فإنها من ذلك الفرق فساقها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، فانساحت الصخرة عنهم .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى أبوان شيخان كبيران فكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لى ، فأبطأت عليهما ليلة فجئت وقد رقدا وأهلى وعيالى يتضاغون من الجوع وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواى ، فكرهت أن أوقظهما ، وكرهت أن أدعهما فيستكنا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعل ذلك من خشيتك ففرج عنا ، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا السماء .

فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى ابنة عم من أحب الناس إلى وأنى راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمائة دينار فطلبتها حتى قدرت عليها فأتيها بها فدفعتها إليها فأمكننتى من نفسها ، فلما قعدت بين رجلها ، قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فممت وترك المائة دينار ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا ، ففرج الله عنهم فخرجوا .

(رواه البخارى وغيره)

## بين يدي الحديث :

(أ) منذ زمن طال ، والمهتمون بالدراسات القرآنية ، والآثار النبوية ، يرددون أن التفاسير والشروح التي عالجت ذلك التراث الشريف وأهمها تجليته للأجيال المتعاقبة من مثقفي هذا الوجود طالبي المعرفة العالية ، والراغبين في سمو الفكرى كثيرا ما تنطوى على الإسرائيليات المقبولة حيناً والمعنونة أحياناً ، والتي ترد في أمهات كتل ذلك التراث الصادرة عن من لا يرمى لهم عن قوس ، ولا يدرك لهم شأن ، ولا يبلغ مدى معارفهم ، فهم من فاض غربهم بعلوم اللسان وطالب باعهم في ميدان المعقولات ، فقد كانوا قممها ولا يزالون في آثارها الخالدة المجليين في حلبتها ، فهم ولا شك يعرفون الجيد ويميزون الرديء على دريهم يسار ، وبهم يقتدى ، وهذا ما حمل على التسائل ، كيف وقع أولئك الفحول في أحبولة الإسرائيليات ، مع سمو معارفهم ودقة إدراكهم لمقاصد الكتاب الكريم والسنة الشريفة .. ؟

حملنى ذلك على أن أقدم لدراسة هذا الحديث الشريف بفذلكة يسيرة ، قد تزيل بعض الحيرة ، وتجيب على شيء من جوانب هذا السائل ، خاصة وإن الكلم الطيب موضوع البحث متصل بقصة حدثت وقائعها في بنى إسرائيل وإن كانت رواية البخارى لم تشر إلى ذلك ، فقد ذكر صراحة في رواية الطبرانى عن عقبه بن عامر : إن ثلاثة نفر من بنى إسرائيل .. الخ .

نهى رسول الله ﷺ عن الأخذ من بنى إسرائيل والنظر في كتبهم أولاً ، ثم حصل التوسع في ذلك ، فكان النهى قد وقع قبل استقرار الأحكام الإسلامية ورسوخ القواعد الدينية خشية الفتنة ، والانحراف عن الخط الإسلامى البين والاعتزاز بما دون الأخبار في كتبهم خارجاً عن نطاق التوراة ، وما سجلوه بعيداً عن رباط السماء والوحى الإلهى .

ثم لما زال المحذور واطمأنت الأصول الإسلامية في نفوس المؤمنين ، وركنوا إليها ، ولم يعد لغيرها سبيل لمنافستها ، أو الاختلاط بها أو التقليل من شأنها عندئذ وقع الإذن بالاطلاع على أخبار أهل الكتاب وأبيحت قراءة ما سطورا ومعرفة ما دونوا ، وخاصة الأخبار التى احتوت ما يفيد المسلمين من الاعتبار بتلك الأحوال ،

والاقتداء بحسنها والتجافى عن سيئها ، فقال سيدنا رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى وغيره من الثقة عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : (بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) ، وقال شراح الحديث الشريفة : معنى قوله ﷺ : (ولا حرج) ولا تضيقوا صدوركم بما تسمعون منهم من الأعاجيب فإن ذلك وقع لهم كثيرا ، وقال الإمام مالك رضى الله عنه : المراد (جواز التحديث عنهم بما كانوا من أمر حسن إمام علم كذبه فلا) وقيل : حدثوا عنهم بمثل ما روى القرآن والحديث الصحيح .

وقال الشافعى رضى الله عنه : من المعلوم أن النبى ﷺ لا يجوز التحدث بالكذب ، فالمعنى : حدثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأما ما تجوزون فلا حرج عليكم فى التحدث به عنهم ، وهو نظير قوله ﷺ : (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم) ويبدو - والله أعلم - أن السابقين لما سمعوا ما اثبت صحته البخارى .

وما رواه أبو داود بإسناد صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) ترخصوا فى رواية الإسرائيليات كيفما كانت ما دامت لا تصادم أصلا من أصول الدين ، ذهابا منهم إلى أن المقصود بها الاعتبار بالوقائع التى أحدثها الله تعالى لمن سلف لينهجوا منهج من أطاع منهم ، فأثنى الله عليهم وفازوا برضوانه ، ويتنكبوا مسالك من عصوا وتمادوا فى البعد عن أوامر الله تعالى فحقت عليهم كلمة العذاب .

فلعل هذا هو ملحظ المفسرين والشرح الذين أوردوا الإسرائيليات فى تفاسيرهم ، وهى غالبا ما ترد للاستشهاد لا للتأسيس ، ولكن مما يثير الأسف أن البعض بالغ فى إيراد الإسرائيليات فكان حاطب ليل خلط عملا صالحا وآخر سيئا وجاء بمرويات لا يستسيغها العقل ولا يقبلها دارس مهما تدنت معرفته ومهما هبطت مداركه ما دام يعرف ولو شيئا يسيرا عن الإسلام وواقعته التى لا تقبل الجدل ، بل وتنفى الخرافة وتعيب حاكبيها ، ومما يخفف وقع تلك الخرافات أنها لا تتصل بشيء من العقيدة ، وإنما هى قصص يمجج الذوق ويرده أدنى نظر فمن غير الوارد عقلا ، وليس مندرجا

تحت ميزان الفكر أن الأرض تستند إلى قرن ثور ، والثور يقف على ظهر حوت ،  
والحوت يسبح في بحر ، وأن الهزات الأرضية تنشأ عن تحركات الثور حين يعيى  
بحمله فينقل الأرض من أحد قرنيه إلى الآخر ... !!

ولهذا يقول الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : (إذا روينا الأحكام شددنا ،  
وإذا روينا فى الفضائل تساهلنا ، وما وراء ذلك تنفيه عن وادينا ولا ندعه يجد مجالاً  
فى دراستنا) وقال بعض تلامذته : وبالأحرى فى القصص الغير بين الكذب أو الشديد  
المبالغة .. وعقب كل ذلك الحافظ بن كثير فى مقدمة تفسيره المسمى : (تفسير القرآن  
العظيم) بما نوره هنا إكمالاً للفائدة ، وتعميماً للمعرفة الحققة ، قال الحافظ بن كثير :  
(الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، وهى على ثلاثة أقسام :

أحدها : وما علمنا صحته مما فى أيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

والثانى : ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه .

والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من ذاك ، فلا تؤمن به ولا  
نكذبه ، وتجاوز حكايته لما ورد عن رسول الله ﷺ من قوله : (حدثوا عن بنى إسرائيل  
ولا حرج) وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى . ومن أمثلة حديثهم أى  
الإسرائيليين عن أسماء أمل الكهف ، ولون كلبهم ، وعصا موسى من أى الشجر كانت ،  
وأسماء الطيور التى أحيهاها الله لإبراهيم عليه السلام وتعيين البعض الذى ضرب به  
القتيل من أجزاء البقرة ، وغير ذلك مما أبهمه الله تبارك وتعالى فى القرآن مما لا  
فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دينهم ولا فى دنياهم ، ولكن نقل الخلاف عنهم  
فى ذلك جائز كما قال تعالى : ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ  
سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا  
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (1) .

فقد اشتملت الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام ، وتعليم ما ينبغى فى مثل  
هذا ، فإنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث

(1) الآية 22 من سورة الكهف .

فدل على صحته ، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد سبحانه وتعالى إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فقال في مثل هذا : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ فإنه ما يعلم ذلك إلا القليل من الناس ممن أطلعهم الله عليه ، فلهذا قال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى لا تجهد نفسك فيما لا فائدة ترتجى من معرفته ولا تسألهم عن ذلك ، فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب .. والله تعالى أعلم .

وهكذا نجد عذرا واضحا للمفسرين والشرح في إيراد الإسرائيليات وإن كان البعض قد بالغ في الاستطراد ، فأتى بما فيه نظر من أقوالهم ومن الذين أكثروا فى هذا المقام (الخازن) وقد قال فى شأنه الشيخ الزرقانى رحمه الله (.. وله ولوع بالتوسع فى الروايات والقصص ومن مزايه أنه يتبع القصة ببيان ما فيها من باطل حتى لا يندفع بها غر ولا يفتن جاهل) وهذه ولا شك شنشنة المحققين من الدارسين والباحثين .. رحمهم الله جميعاً .

(ب) كان سيدنا رسول الله ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة ويتعهدهم بالنصح والتوجيه لكل ما من شأنه أن يثبت عقيدتهم ويزيد إيمانهم ، ويؤلف بينهم ويجمعهم معتصمين بحبل الله باذلين الروح والمال فى سبيل الله وطريق السعادة الأبدية ونيل الدرجات العلا فى الآخرة ، ولما كان للقصص أثره فى جذب الانتباه والحمل على التأسى بأبطال القصة ، ومحاولة التشبه بمن عمل صالحا فنال خير ما عند الله ، ومجانبة فعال من تنكب الطريق السوى فضلا وغوى من اجل هذا كان سيدنا رسول الله ﷺ كثيرا ما يورد الحديث عن أحوال الأمم الماضية كما علمه ربه ، ومن أجل ذلك أيضا وغيره مما تعود جدواه على السامعين جاء القصص بالقرآن الكريم : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » .

كما أن حديثه ﷺ عن مضوا ، ولم يواكبهم ، ولم يطلع على أحوالهم ، فيه دلالة قاطعة على أن ذلك مما علمه الله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (1) . وكما قال جل شأنه لنبيه بعد إيراد قصة مريم وما كان من أمرها قبل ولادة عيسى عليه السلام : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ

(1) الآية 49 من سورة هود .

تُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» (1). وقد كان الحديث الشريف موضع الدراسة من هذا القبيل ، قبيل التحديث عن الأمم السابقة ، وهو ثمرة مجلس من مجالس سيدنا رسول الله ﷺ التي تصدرها معلما وهاديا ومرشدا ونذيرا .

وبعد :

فقد ورد هذا الكلم الطيب في صحيح الإمام البخارى تحت عنوان (حديث الغار) ، يروى أخبار ثلاثة نفر من بنى إسرائيل لجأوا إلى غار فى جبل فرارا من الأمطار والأنواء ، فسدت عليهم بابه صخرة تدرجت بفعل السيول الجارفة من أعلى ، ولم يستطيعوا لها دفعا ولم يكن لهم سبيل للخروج من هذا المأزق إلا أن تداركهم رحمة الله القوى القادر أو يهلكوا فألهمهم الله أن يتذكروا فيما بينهم ما ينفع فى موقفهم هذا عسى الكرب الذى أمسوا فيه يكون من ورائه فى فرج قريب ، والمؤمن يفرع إلى جناب ربه كلما ألمت به نازلة لا يقوى على دفعها ومن ذا الذى يجيب المضطر إذا دعاه إلا رب العالمين : «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَنَّى مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ» (2) .

وهكذا تداعى الثلاثة نفر يتقرب كل منهم بأفضل ما عمل مما يدينهم من رحمة الله ويمنحهم لطفه وعونه ، ورحمة الله دائما قريب من المحسنين ، وصدق العملى الكبير : «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا» (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» (3) . وقد كان هؤلاء الثلاثة من المؤمنين الذين يراقبون الله فى السر والعلن ، ويعبدونه كأنهم يرونه رأى العين ، وهذا مقام الإحسان الذى لا يصل إليه إلا عباد الله المخلصين ، ويبدوا هذا واضحا فى قولهم بقلوب خاشعة : «أنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه صدق فيه » أى ما عمله خالصا لوجه الله تعالى لم

(1) الآية 44 من سورة آل عمران .

(2) الآية 62 من سورة النمل .

(3) الآيتين 2 ، 3 من سورة الطلاق .

يرج له جزاء عاجلا في الدنيا ، ولم يسمع (بضم أوله وتشديد يد الميم المكسورة) به لينال الزلفى عند الناس ، وهذا - ولا شك - أفضل العمل وأكثره تمحضا لله تعالى .

أما أولهم : فقد استأجر جماعة يعملون له عملا كل واحد منهم بأجر معلوم ولأمر ما لم يتسلم أحدهم أجره ، حين حصل نظراؤه على أجورهم ، وما كان على صاحب العمل إلا أن يحفظ له حقه المقدر بينهما ، حتى إذا عاد يوما أعطاه إياه ، ولا يلزمه أن يزيد فيه شيئا ، إلا أن الرجل غلبته تقواه ، فتمى المال بالطريقة التي ارتأها حتى صار شيئا عظيما أدهش الأجير حين عاد يطلب حقه ولا زيادة ، لأن ما فعله صاحبه مما لم يعهد القيام بمثله ، وقضارى ما كان يرجوه أن لا يماطله أو ينكر حقه .

وهكذا تبدو آثار تقواه وخشيتته فتأتى بالعجب العجيب الذى يفوق ما تعارف عليه الناس ، ويمضى شوطا بعيدا فى الكمال الذى تواطأوا عليه فى أعرافهم ومعاملاتها ، ولصدور ذلك تحت مراقبة الله وحده ، وطاعة نقيه من شوائب الرياء ، كان جزاؤه عون الله تعالى قيوم السموات والأرض لفاعله فى ساعة العسرة ، فانزاحت الصخرة عن مدخل الغار قليلا وبدأ الهواء الرطب يلج إلى صدور المؤمنين فينعشها ويبعث الأمل قويا - فى لطف الله بهم - إلى نفوسهم فى ساعة حالكة السواد تحت وطأة خطب جسيم وداهية دهياء ، انقطع فيها هؤلاء الثلاثة عن الباغم والناطق ، وهم موقنون أن لا ملجأ من الله إلا إليه .

وأما الثانى : فقد أكرم والديه الفانيين العاجزين عن العمل والحركة التى تحصل القوت وهذا واجبه الشرعى ، ولكنه تجاوز أصول الواجب إلى أبعد من المطلوب فيه ، فد كان عليه فى أفضل حالاته أن يترك شيئا من اللبن إلى جوارهما يشربانه حيث يستيقظان من نومهما ويعوج بالباقي على أهله وصغاره الذين يتضاغون جوعا ويتحرقون شوقا الى ما يمسك ذمءهم ويبقى على نشاطهم .

ولكن الإيمان بالله ويحقوق الوالدين ، والعزوف عن العواطف النفسية المتمثلة فى إطعام الصغار إلى انتظار جزاء من الله أكبر ورضوان منه أعظم : فقد أنساه حب الخير لوالديه وإخلاصه لربه حالة أبناؤه ، فلذات كبده ، وتكلف الانتظار ليلة كاملة

حتى مطلع الفجر ليطعم الوالدان ولو نأى الرقاد عن الرضع وأمهما ، وهذا عمل لا يستطيعه إلا القلة النادرة من الأتقياء الذين اسلموا وجوههم إلى الله وهم محسنون استمسكوا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، وكان من عاقبة أمر هذا المؤمن أن قبل الله ما قدم ، فانفجرت الصخرة حتى رأى هو وصحبه نجوم السماء فازدادوا إيماناً بمكوبها وإلحاحاً في طلب توفيقه لهم إلى طريق الخلاص ، وما ذلك على الله بعزيز .

ويجىء دور الثالث : وما أدراك ما دوره ، إنه دور فذ في عالم العراك بين الغرائز والشهوات من جانب ، والتقوى من جانب آخر ، تندحر فيه الأمانة بالسوء أمام جلال الإيمان وتلاشى في لهيب النفس المطمئنة كما يسيل الجليد قطرت في وهنج ذكاء ، فقد انتصر هذا الرجل على الحيوانية الكامنة في هيولاء ، وأزاحها من طريقه ، فألزم نفسه هداها .

وقهر قرين السوء شيطانه وردة خاسنا رجيماً ، هذا ، مع أن المرأة قد شغلته حبا ، وحمله ولهه على جمع المال مع عزته ليصل به إلى ما يريد منها ، أما وقد تهيأ له كل شيء حين نزلت بالمرأة سنة أتت على أخضرها ويابسها ، ونبذتها ، وفلذات كبدها بالعراء وهى سقيمة ، وتركتها فريسة سهلة ولقمة سائغة لذئاب البشر - كما ورد فى رواية أخرى - وقد كانت هذه المرأة على جانب من خوف الله تعالى ، وعلى صلة وثيقة تربط قلبها بقيوم السموات والأرض ، فقد قالت لطالبها المفتون بالغانية الهيفاء ، وقد جلس منها مجلس العهر والمجون تحت سطوة الجوع وقهر الحرمان مما يقيم الأود ويبقى على الحياة ، حياتها وحياة صغارها : « أذكرك الله أن ترتكب منى ما حرم الله عليك » .

وهنا يستيقظ الإحساس الكريم فى ذلك الإنسان فيجيبها : « أنا أحق من يخاف ربى » . وفى رواية : أنها بكت فقال : ما يبكيك ؟ فأجابت : أقدمنى على السوء حاجتى إلى الطعام . فقال لها : لا عليك انطلقى بما معك ، وفى ثالثة : أنه قال : تذكرت النار فقامت من مجلسها وتلك صور تبرز نفس من يخشى الله واليوم الآخر ، فأين هذا - يا قوم - من شيطان يعتدى على الأطفال والقاصرات إرضاء لنزوة حيوانية عابرة ، ذلك لعمر الحق هو الفجور الكالغ البعيد عن كل دين ، المجافى لكل

المروءات المعادى للإنسانية الفاضلة وما هو إلا عماية وضلال ونزق لا علاج له إلا إقامة حدود الله .

وأما صاحب القصة فقد ترك الميسور من الفجور الذى دان له وأصبح فى استطاعته معاقرته دون عزول ، مع الحاح الحيوانية ، وطيب المرعى ، وفتنة الجمال ، وقتل العيون النجل والغصن الرطيب ، وليس ذلك وحسب ، وإنما أهداها ما أعطاها من المال حسبه لوجه الله تعالى ، منتظرا الجزاء الأوفى هناك فى رحاب العلى الكبير ، يوم لا غنى نفس عن نفس شيئا والأمر يومئذ لله الواحد القهار سبحانه ربي مالك يوم الدين ، واستحق هذا المؤمن عون الله تعالى ، فبعدت الصخرة بقدره الله وحده عن مدخل الغار ، وهنا تنفس القوم الصعداء ، وعادوا للحياة بعد أن كادوا يفقدون الأمل فى الحياة ، لولا عن الله وفضله سبحانه ربي إنه على كل شىء قدير .

### والخلاصة ..

أن الاعتبارات التى يجب أن يقف عندها دارس هذا الحديث .

1 - ظهور ثمرة الطاعة ، ووضوح فائدة إخلاص العمل لوجه الله تعالى ، وبيان نتيجة التفانى فى إرضائه سبحانه ووجوب التقرب إليه بكل عمل صالح ممكن ، وأن هذه الاستجابة الإلهية لعباده الضارعين إلى جلاله بإخلاص تحمل على المسارعة فى لخيرات ، وفى حديث قدسى ورد ما لخاصته : « وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أكون سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها » ومعنى هذا إجابة الداعى لحظة دعائه ، وقبول رجائه فور رجائه .

2 - طلب الدعاء إذا أدلهمت الخطوب ، وعصفت الكروب ، ومما يؤخذ بعين الاعتبار التقرب إلى الله تعالى بذكر ما قدم المؤمن من صالح الأعمال أن استنجاز الله سبحانه وعده الذى تشير إليه الآية الكريمة : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ »<sup>(1)</sup> وقوله جل وعلا : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي »<sup>(2)</sup> .

(1) من الآية 60 من سورة غافر .

(2) الآية 186 من سورة البقرة .

3 - إبراز ما حكاه الذين تناولوا الحديث الشريف بالشرح والتفسير من قول بعضهم : ( .. ظهر لى أن الضرورة تلجىء إلى تعجيل جزاء بعض الأعمال فى الدنيا ، وأن ما ورد فى الحديث الشريف يدل على أن الثلاثة نفر أبطال القصة لم يسروا لأعمالهم قيمة فى جانب نعم الله تعالى عليهم ، ولهذا فوضوا أمرهم إليه سبحانه حين قال كل منهم : ( اللهم إن كنت تعلم أنى فعل ذلك من خشيتك ) ... الخ .

فهو يرشد إلى أنهم لم يعتقدوا فى أعمالهم التمحض لوجه الله تعالى ، بل فوضوا يقين ذلك إلى الله تعالى وحده ، وهذا منتهى التسليم والالتجاء إلى قيوم السموات والأرض ) .. ثم انظر وتأمل أدب هؤلاء الثلاثة مع الله تعالى حيث قالوا : ادعوا الله بصالح أعمالكم فى أول الأمر ، ليتذكروا خير ما عملوا مما أصلح عليه المؤمنون ، وما يبدو أنه امتثال لمراد الله تعالى ، ولما بدأوا فى الدعاء لم يقولوا ندعوك بما علمنا ، وإنما قالوا : إن كنت يا مولانا تعلم أنه عمل ابتغاء مرضاتك .

4 - إذا قيل : هل فى أعمال هؤلاء الثلاثة تفاضل ؟ ! كان الجواب : إن مكرم والديه والبار بهما اقتصر عمله على نفع هو ، وإن أمتد فليس بعيدا عنه إذ هما أبواه وبرهما مفروض عليه بالأصلين الشريفين والتقصير فى حقهما مدعاة اللوم الاجتماعى فضلا عن العقوبة الإلهية ، والمبالغة فى إكرامهما واجب ودين يؤديه ليتقاضاه ، وصاحب الأجير : تعدى بره نفسه إلى غيره وأبرزه خلال لو تمت فى مجتمع لأسعدته وكانت عامل ازدهار له ونمو ، ومن تلك خلال الأمانة ووضع غير موضع نفسه بتنمية مال الأجير ، وقد يكون فى هذا الفعل شبهة الرياء ومناقفة المجتمع .

وأما ثالثهم : فقد زاد فضله ، وكان عمله أدل على التجرد من هوى النفس الأمانة بالسوء وقهر الغريزة الجامحة مع تهيو لفرصة الواقعة فى موقف كثيرا ما يتوارى فيه العقل نهائيا وتكفهر سماء الحياء ن والمروءة تحت الحال القوة الحيوانية المستعرة فى كيان الرجل ، فلولا ن خشية الله حين كر (بالبناء للمجهول مع تشديد الكاف) أو حين تذكر قشعت كل شعور مادي وأحلت الهبة من جلال الله وسلطانه ، ما ارعوى ، ولما كبح جماحه ، ولدقة الموقف فى مثل تلك الحالة التى يخلوا فيها الإنسان من رقيب ، وردت بعض الآيات الكريمة شاهدة لمن كان هذا

حاله بأنه جدير بدخول الجنة قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (41) ﴾ (1) .

قال الكلبي : (نزلت في من هم بمعصية وقدر عليها في خلوة ثم تركها من خوف ربه) . ونحوه عن ابن عباس رضى الله عنهما : (يعنى من خاف عند المعصية مقامه بين يدي الله فأنتهى عنها) ناهيك بأن هذا الرجل ترك المال أيضاً في سنة عجفاء . ولابنة عمه أسرته ومالكة له . فلكل هذا يبدو واضحاً إن عمل صاحب المرأة كان أكثر نفعاً وأجدى على المجتمع الذى يضمه ويحتويه - والله أعلم - ولكل عند الله ثواب ، لا ينقص من ثواب الآخرين شيئاً .

5 - ونقول أخيراً : هذا الحديث الشريف يلزم بطاعة الله وإخلاص الأعمال له وحده ، ولئن طلب هذا إسلامياً وعقلياً في كل زمان ومكان فما أحوجنا إليه في ظروفنا الراهنة التى تكالبت فيها الأمم على المسلمين ، وغلقت عليهم المنافذ فكأنهم محصورون في غار النفر الثلاثة لا يجدون مخرجاً ، فلا خلاص لهم إلا باللجوء إلى الله بالعمل الصالح الذى يتدارسون من خلاله أوضاعهم ليصلحوا من أحوالهم المرتدية ويسايروا ركب الحياة معتمدين على الله وحده ن فقد طال سباتهم ، ثم فتحوا عيونهم على وحش فاغراه همه ابتلاهم ، أو صمصام وصلت على رقابهم ، أو سهم مسدد إلى نحورهم ، أو قنا وقتابل مؤذنة بخراب الديار ، وتركها ققراء بلقع ، ومع كل هذا ، فالياس غير وارد لدى المسلمين ، لأنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ومن أعان محمداً الوحيد فى صحراء ، الفقير بين أغنياء ، المجرى من العدة ومن حوله ينوشه الأقباء ، وأمدته بالحول والقوة رغم الليالى الحوالك ، هو رب العالمين جل جلاله لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يؤدوه قلب ميزان القوى ، فقوته فوق كل قوة ، وهو ينصر المتقين العاملين ما داموا على شريعة رسله ، وسنن قرآنه ، مخلصين أعمالهم له ، متجهين إليه بأسباب الدنيا والآخرة .

(1) الآيتين 40 و 41 من سورة النازعات

## من توجيهات الإسلام فى الأزمت النفسية

ورد فى صحيح البخارى :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبى سفيان القين وكان ظنرا لإبراهيم ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تدرفان ، فقال له عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : (يا بن عوف : إنها رحمة) ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال : (إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون) .

رواه موسى عن سليمان عن ثابت عن أنس رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم .

أولا : فذلكة فى مفردات الحديث :

1 - أبو يوسف : هو البراء بن أوس ، وأم أوس زوجته ، هى أم بردة واسمها خولة بنت المنذر ، روى ابن سعد فى كتاب (الطبقات) عن يعقوب ابن أبى صعصعة قال : لما ولد إبراهيم تناقست فيه نساء الأنصار أيتها ترضعه فدفعه رسول الله ﷺ إلى أم بردة بنت المنذر بن زيد بن لبيد من بنى عدى ابن النجار ، وزوجها البراء ابن أوس بن خالد بن الجعد من بنى عدى ابن النجار أيضاً ، فكانت ترضعه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيه فى بنى النجار .

2 - والقين : هو الحداد ، وقيل : يطلق على كل صانع . والجمع أقيان وقيون ، وقال ابن السكيت : قلت لعمارة : إن بعض الرواة زعم أن كل عامل قين ، فقال : كذب ، إنما القين من يعمل بالحديد ويعمل بالكير ، ولا يقال للصائغ : قين ، ولا للنجار قين ، وأما القينة (بالتاء) فهى المغنية ، وهى كلمة هزلية وقد وردت لاستعمالات كثيرة تختص بالجوارى ، وغير ذلك .

3 - الظئر : بكسر المعجمة ، وسكون المهموز ، المرضع وأطلق على البراء ذلك لأنه كان زوجا للرضعة ، وأصل الاستعمال اللغوي : أن الظئر هي العاطفة على ولد غيرها المرضعة له من الناس والإبل ، والجمع أظور وأظار وظؤور ، وهو عند سيبويه اسم للجمع ، لأنه فعلا ليس مما يكسر على فعله عنده .

4 - وإبراهيم : هو ابن رسول الله ﷺ من مارية القبطية المصرية التي أهداها إليه المقوقس عظيم القبط حينذاك بمصر ، وقد ورد في صحيح الإمام مسلم ما نصه : (.. ولد الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم .. ثم دفعه إلى أم سيف امرأة قين بالمدينة يقال لها : أبو سيف . فانطلق رسول الله ﷺ فاتبعته ، فانتهدى إلى أبي سيف وهو ينفخ كيره ، وقد امتلأ البيت دخانا ، فأسرعت المشى بين يدي رسول الله ﷺ ، فقلت : يا أبا سيف ، أمسك جاء رسول الله ﷺ .. الخ ، وفي رواية أخرى للإمام مسلم أيضا ... ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ .. كان إبراهيم مسترضعا في عوالي المدينة ، وكان ينطلق ﷺ ونحن معه فيدخل البيت ، وإنه ليدخن وكان ظئره قينا ..) .

5 - يجود بنفسه : يقول العرب : فلان يجود بنفسه ، معناه : يسوف بنفسه من قولهم : إن فلانا لا ليجاد إلى فلان ، أى يساق إليه ، وفي الحديث : فإذا ابنه إبراهيم عليه السلام يجود بنفسه أى يخرجها ، ويدفعها كما يدفع الإنسان ما له يجود به ، والجود : الكريمة ، يريد أنه كان فى النزاع وسياق الموت ، ويقال : جيد فلان ، إذا أشرف على الهلاك ، كان الهلاك جاده ، ويقال : إنى لأجاد إلى لقاءك أى أشتاق .

6 - تذر فان : أى يجرى معهما ، ومذارف العين مدامعها ، والمذارف المدامع ، واستذرف الشيء استقطره ، واستذرف الضرع دعا إلى أن يحلب ويستطقر .

7 - وأنت يا رسول الله ؟ : فى هذا الاستفهام معنى التعجب ، ولما كانت الواو تستدعى معطوفا عليه كان المراد : الناس لا يصبرون على المصيبة وأنت تفعل فعلهم ؟ فتعجب عبد الرحمن بن عوف مما رأى من رسول الله ﷺ مع عهده منه أنه يحث على الصبر ونهى عن الجزع ، ولهذا كان جواب رسول الله ﷺ : « إنها رحمة » أى أن ما شاهدته منى منشؤه رقة القلب على الولد لا ما توهمت من الجزع .

وفى رواية أخرى للحديث عن عبد الرحمن بن عوف نفسه : « فقلت يا رسول الله :

تبكى ! أو لم تنه عن البكاء ؟ وزاد فيه : إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير الشيطان ، وصوت عند مصيبة ، وخمش وجه ، وشق جيوب ، ورتة شيطان ، وإنما هذا رحمة ومن لا يرحم لا يُرحم .

8 - ثم أتبعها بأخرى : أى بكلمة مفصلة هى قوله ﷺ : (إن العين تدمع .. الخ) وقد جزم الواقدي بأن إبراهيم مات يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من شهر ربيع الأول سنة عشر ، وقال ابن حزم : إنه مات قبل وفاة النبي ﷺ بثلاثة أشهر ، واتفقوا على أنه ولد فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة الكبرى .

### ثانيا :

إن ما رأى عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه من سيدنا رسول الله ﷺ لا يندرج تحت الجزع بحال أبدا ، فأحواله ﷺ تبدى نقيض ذلك - ومن يصير إذا جزع رسول الله ﷺ وإنما هى الرحمة كما مر آنفا ويشهد لهذا أنه صلى الله عليه وسلم قد لبث ثلاثة وعشرين عاما يواصل الدعوة إلى الله تعالى ليل نهار صباح مساء لا ينسى ولا يكل صابرا على ما يلاقى من أعدائه ، أعداء دعوته ومعانديه وخصومها الألداء ، صامدا لا يتراجع ، لا يتقاعس ، ولا يهاب فى سبيلها الأهوال ، ولا تزعجه المعوقات مهما كانت عاتية مبيدة ، محتسبا عناه وولاه عند الله تبارك وتعالى . وقد أدركته فى رحلة الدعوة محن لا حصر لها ، محن تفوق الوصف وهو يعلم موقنا أن من جاء بما يخالف ما عليه الناس عودى وحورب وأخرج من دياره وأهله .

ولهذا وردت آيات كثيرة بالكتاب العزيز على الصبر ، واصفة الجزاء الأوفى الذى ينتظره الصابرين فى البأساء والضراء وبن البأس ، وقد وعى عنه صلى الله عليه وسلم ذلك صحابته رضوان الله عليهم ، وأخذوا أنفسهم وأهليهم بتعاليمه حذوك القذة بالقذة<sup>(1)</sup> ، يترسمون خطاه ، يعملون ما يعمل ، ويتركون ما ترك .

فما رواه البخارى أنه قال : حدثنى أبو بردة بن أبي موسى رضى الله عنه قال :

(1) القذة : ريش السهم (وحذو القذة بالقذة) نال ابن الأثير : مثل يضرب للشئين يستويان ولا يتفارقان . وقد ورد هذا فى كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ، ومنه (لتركين سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة)

« وجع أبو موسى وجعاً شديداً فغشى عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله فلم يستطع أن يرد عليها شيئاً (1) ، فلما أفاق قال : أنا برىء ممن يرى من رسول الله ﷺ برىء من الصالحة والحالقة الشاقة (2) .

وقد غصت كتب السنة بالأحاديث الشريفة الداعية إلى الصبر ، واحتمال المكاره برحابه صدر وتفويض الأمور إلى الله وحده ، والرضا بقضائه وقدره بالصورة الجادة التي اتسم بها الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم ، لا بالصورة الخانعة الذليلة التي يأبها الإسلام كل الإباء ، والتي أضفت عليه المجتمع الإسلامي صورة قذرة قاتمة أخبرت المسلمين وربطتهم في حظائر السوائم تحت عنوان الجمود والرضوخ للأمر الواقع المزرى .

ويشهد الله أن الإيمان بالقضاء والقدر كما يريد الله ورسوله يدفع الجماد إلى الحركة ويقود الأعمى إلى أقوم طريق ، وما رضى رسول الله لأحد من أمته أن يستكين لحزن أو لمصيبة أو يخضع لقارعة زمن ويلاء أم دفر ، قالت عائشة رضى الله عنها : (لما جاء النبي ﷺ قتل ابن حارثة وجعفر وابن رواحة جلس يعرف فيه الحزن ، وأنا نظر من صائر الباب - شق الباب - فأتاه رجل فقال : إن نساء جعفر وذكر بكاءهن ، فأمره رسول الله ﷺ أن ينهأهن فذهب .

ثم أتاه الثانية وقال : إن نساء جعفر لم يطعنه - أى لم يطعن الرجل - فقال ك انههن ، فأتاه الثالثة وقال : والله غلبتنا يا رسول الله ، فزعمت أنه قال : فاحث فى أفواههن التراب ، فقلت - أى عائشة - أرغم الله أنفك لم تفعل ما أمرك به رسول الله ﷺ ولم تترك رسول الله من العناء (3) ، قال النووى : (معناه أنك قاصر لم تقم بما

(1) وفى رواية الإمام مسلم : (غشى على أبي موسى وأتبلت امرأته أم عبد الله تصيح برته) .

(2) الصالحة : هى التى ترفع صوتها عند المصيبة ، والصلق الصياح واللولولة والصوت الشديد .  
والحالقة : هى التى تحلق شعرها لدى النوازل والدواهى . والشاقة : هى التى تشق ثيابها إذا نزلت بها كارثة كموت عزيز أو فراق حبيب .

(3) وقصة نفر الثلاثة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أرسلهم فى ثلاثة آلاف مقاتل إلى أرض البقاء بالشام فى جمادى الأولى سنة ثمان لهجرة واستعمل عليهم زيداً وقال : إن أصيب زيد فجعفر ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فخرجوا وخرج رسول الله صلى الله عليه =

أمرت به من الإنكار ، ولم تخبر رسول الله ﷺ بعجزك عن التنفيذ لأوامره حتى يرسل غيرك فيستريح من عناء مراجعتك له وتكرار الأمر) .

والمستحق لاسم الصبر هو الذى لا يظهر عليه حزن جارحه ولا لسان ، قال الطبرى : روى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه نعى إليه أخوه عتبة فقال : لقد كان من أعز الناس على ، وما يسرنى أنه بين أظهركم اليوم حيا ، قالوا : وكيف ، وهو من أعز الناس عليك ؟ قال : إنى لأن أؤجر فيه أحب إلى من أن يؤجر فى ، وروى أن الصلست بن أشيم مات أخوه ، فجاءه رجل وهو يطعم فقال : إن أخاك قد مات ، قال : هلم فكل فقد نعى إلينا من قبل ، قال الرجل : والله ما سبقنى إليك أحد فمن نعاه إليك ؟ قال : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ (1) .

وقال العلماء : إن منتهى الصبر أن يكون المرء يوم المصيبة مثله قبل أن تصيبه ، وأما جزع القلب وحزن النفس ودمع العين فإن ذلك لا يخرج العبد من معانى الصابرين إذا لم يتجاوز إلى ما لا يجوز فعله أو قوله ، قال عمر رضى الله عنه نعم العدلان : (بكسر العين المهملة) ونعم العلاوة : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (156) أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ (157)﴾ (2) ، والعدلان : المثلان : الصلوات والرحمة ، والعلواة أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المهتدون ، وهو ثناء عظيم من الله على الصابرين .

وسلم يشيعهم ، ثم مضوا حتى نزاء (معان) من أرض البلقاء فلما أصيب زيد وجعفر وابن رواحة أخذ الراية خالد بن الوليد رضى الله عنهم جميعا وقاتل حتى انتصر قال خالد رضى الله عنه : (لقد اقطعت فى يدي يوم مؤتة تسعة اسياف فما بقى فى يدي إلا صفيحة يمانية ..) والثلاثة الشهداء هم : (أ) زيد بن حارثة : هو زيد بن حارثة بن شراحبيل بن كعب بن عبد العزى الكلبى القضاى مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله يحبه حبا شديدا ، روى احمد والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قولها : (ما بعث رسول الله زيد بن حارثة فى سرية إلا أمره عليهم ولو بقى بعده لاستخلفه) . (ب) وجعفر : هو ابن أبى طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يكبر أخاه عليا بعشر سنوات أسلم ثم هاجر إلى الحبشة ، وشره الرسول الكريم بالشهادة فهو من المقطوع لهم بالجنة . (ج) وابن رواحة : هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن عمرو أسلم بكرًا وشهد بيعة العقبة وبدرا وأحدا والخندق وخيبر وشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشهادة فهو من المقطوع لهم بالجنة .

(1) الآية 30 من سورة الزمر .

(2) الآيتين 156 و 157 من سورة البقرة .

### ثالثاً :

ومن الناس من يستولى عليهم الجزع<sup>(1)</sup> ، فيسلبهم الإرادة والتعقل ، ويدعهم حيرى فاقدى الصواب وربما زاد الجزع عن حده فأبعد صاحبه عن مسالك العقلاء المؤمنين ، فشق جيبه ولطم خده ، ودعا بدعوى الجاهلية ، وتلك أمور مستقبحة ينهى عنها الاشرع الحكيم ووصف الأدوية الناجعة التي تبعد صاحبها عن مدارج الجازعين ، وتأنى به عن مهاويهم ، وتصعد به فى روحية كريمة إلى السمو بنفسه إلى مصاف المتعاليين على الأحداث ، المترفعين عن الأسفاف والتدنى بانسانيتهم ، الذين يزنون صروف الدهر بميزان الحقيقة الواقعة ، وهى أن خضوع تصاريف الأقدار لإرادة الإنسان محال .

ومكلف الأيام ضد طباعها      متطلب فى الماء جذوة نار

ولا ينجو إنسان مهما علت مكانته أو نزلت مما يعكر عليه صفو الحياة فى أى شكل عن الأشكال ، فلا عاصم من أمر الله إلا من رحم ، فمن فحص وفتش العالم من أقصاه إلى أقصاه فى ماضيه وحاضره لا يجد إلا مختبراً إما بفوات مطلوب ، أو حصول ما هو غير مرغوب فيه ، فسرور الدنيا أوهام حالم وخيال شاعر ، وسعادتها هباء ووباء ، ومن سره زمن أساءته أزمان ، ولقد قالت هند بنت النعمان : لقد رأيتنا ونحن من أعز الناس وأشدهم ملكا ، ثم لم تغب الشمس حتى رأيتنا ونحن أقل الناس ، وسألها بعضهم الحديث عما كان من أمرها فأجابت : أصبحنا ذات صباح وما فى العرب أحد إلا وهو يرجونا ثم أمسينا وما فى العرب أحد إلا وهو يرحمنا وتمثلت :

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا      إذا نحن فيهم سوقة تنتصف  
فأف لدينا لا يدوم نعيمها      تقلب تارات بنا وتصرف

على أن الجزع لا يدفع المصائب وإنما يزكيها ويضعفها فهو يشمت العدو ، وما أقسى شماتة الأعداء ، لقد استعاذ منها رسل الله عليهم السلام ، وحكى القرآن

(1) الجزع : قبيض الصبر ، والجزوع ضد الصبور على الشر . وقد ورد فى محكم التنزيل الحكيم لفظ الجزوع وصفا للإنسانية قال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا<sup>(19)</sup> إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا<sup>(20)</sup> وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا<sup>(21)</sup>﴾ .

الكريم على لسان موسى عليه السلام فى الآيه المائه والخمسين من سورة الاعراف :  
﴿.. فَلَا تُنْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقال الشاعر :

كل المصائب قد تمر على الفتى      وتهون غير شماتة الأعداء .

والجزع يغضب الله ورسوله ، ويحط الأجر ، ويضعف النفس ، وقد يلاشى صاحبه من الوجود الإنسانى الكريم . ونعود فنشير إلى أن الإنسان خلق ضعيفا ، وأنه حساس لا بد أن تخزه المصيبة وخزا ولو ضئلا ، وسيدنا رسول الله ﷺ يضرب المثل ليقتردى به فى تلقى المصائب والصمود لها ، فهو يتألم لرؤية ما نزل بفلذة كبده ، يتألم كأنسان ، وقد ورد أنه قال : (إنما أنا بشر) وهنا يتجه إليه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يتطلع إلى الأسوة والقذوة ويقول : وأنت يا رسول الله ؟ ما هذا الذى ترى من دموعك الطاهرة تنحدر على وجنتيك الشريفتين ، ويجيب سيد الخلق عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام : ليس هذا جزعا يا ابن عوف وإنما هى الرحمة وقد حزن رسول الله ﷺ لموت إبراهيم ، والحزن نقيض السرور ، أى اقبض قلبه وتألم وتحسر لفراقه .

ولكن مع الإيمان الراسخ بقضاء الله وقدره ، واحتساب ذلك الصبى الطاهر عند الله وما عند الله خير للأبرار ، والحزن قد يدفع إلى العمل المثمر ، فالحزن العاقل المؤمن يرى أن الحياة جد لا لهو فيها لمدرک غورها وسابر كنهها فيها يفنى الجديد إن كل شىء وبأتيان على كل طارف وتليد ، ولا يبقى من الإنسان إلا ذكراه ، والذكر للإنسان عمر ثان ، فيحمله ذلك على فعل المكرمات وتقوية الفضائل ، ودفع الضر عن الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا ويحاول أن يكون رسول سعادة وسلام للبشرية جمعاء والصبر على البلاء من عزم الأمور ، وفى وصايا لقمان لابنه : ﴿وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(1)</sup> ورب ضارة نافعة :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت      ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

والمحن أدوية لغرور العباد ، وتهذيب لصلفهم ، وهدم لكبريائهم ، وإشعار لهم بأن للكون مدبر بيده الأمر والنهى ، فلو تاب هؤلاء المارقون إلى ربهم وتضرعوا إليه

(1) الآيه 17 من سورة لقمان .

ليكشف ما مسهم من ضرر لاستجاب لهم ، كما مذر ذلك لأصفيائه بل برسله الكرام الذين انقطعوا لجلال عزه ومجد فوضوا كل أمورهم لله رب العالمين فاصطفاهم واجتباهم وهداهم صراطه المستقيم ولنتأمل كيف استجاب الله (لذى النون) يوم دعاه بعد أن ذهب مغاضبا ، قال تعالى : ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ<sup>(87)</sup> فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ<sup>(88)</sup>﴾ (1) ، ولولا أن لجأ إلى مولاه لكان من أمره أن لبث في بطن الحوت دهرًا طويلا : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ<sup>(143)</sup> لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ<sup>(144)</sup>﴾ (2) .

### وخلاصة القول :

إن الحديث الشريف يرسم خطة الصبر مع إظهار الشعور الإنساني بالحزن الذى لا يخدش الدين ولا يفضب رب العالمين ، وإن العائد بحمى الله اللاجئ إليه مقبول منصور معافى مما يعده من ساحة رب العالمين ، فاللهم نجنا بلفك من بلاء الدنيا ، وأجمعنا فى الآخرة فى رحمتك يا أرحم الراحمين مع من أحببتهم من عبادك المخلصين الأخيار ، إنك سميع الدعاء .

(1) الآيتين 87 - 88 من سورة الأنبياء .

(2) الآيتين من 143 - 144 من سورة الصافات .

## صدقة التطوع وجزاؤها العظيم

روى البخارى بسنده المتصل عن عائشة رضی الله عنهما أن بعض أزواج النبی صلی الله علیه وسلم قلن للنبی صلی الله علیه وسلم : أینا أسرع بك لحوقا ؟ قال : أطولكن یدا ، فأخذوا قصبة یدرعونها فكانت سودة أطولهن یدا ، فعلمن بعد أنما كانت طول یدها الصدقة ، وكانت أسرعنا لحوقا به ، وكانت تحب الصدقة .

1 - كثرت الأحاديث الشريفة الحاثثة على الصدقة ، كما ورد الحض عليها فى القرآن الكريم ، والصدقة تطلق شرعاً على الزكاة المفروضة التى هى ركن من أركان الإسلام ، ومنكر وجوبها كافر لأنها ثابتة قطعاً بالكتاب والسنة والإجماع وهى ماضية إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها تصرف فى وجوهها المقررة شرعاً ولا يقصر فى أدائها إلا عاص لله ولرسوله وسيكون له الجزاء الذى لا مناص له عنه . والذى وردت الإشارة إليه فى القرآن الكريم . قال الله تعالى .

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ<sup>(34)</sup> يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ<sup>(35)</sup>﴾ (1)

وروى عن ابن عمر رضی الله عنهما أنه قال : ( ما أدیت زكاته فليس بكنز وإن كانت تحت سبع أرضین ، وكل ما لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض) .

وروى البخارى عن خالد بن أسلم قال : خرجنا مع عبد الله بن عمر رضی الله عنهما . فقال اعرابى : أخبرنى عن قول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ . قال ابن عمر : من كنزها فلم يؤد زكاتها فويل له ، إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما أنزلت جعلها الله طهراً للأموال .

وهذا مشعر - كما يقول الحافظ بن حجر العسقلانى بأن الوعيد على الاكتناز

(1) الآيتان 34 ، 35 من سورة التوبة .

وهو حبس ما فضل عن الحاجة عن المواساة به كان فى أول الإسلام ثم فسخ ذلك بفرض الزكاة ، وروى البخارى أيضا عن أبى هيريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله ملا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيام شجاعا أقرع له زبيتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعنى شديقه - ثم يقول : « أنا مالك ، أنا كنزك - ثم تلا ولا يحسبن الذين يبخلون » (1) .

والحديث الشريف موضوع البحث يومى إلى صدقة التطوع وهى التى أشارت إليها الآية الكريمة : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (2) .

فقد ذهب الجمهور من المفسرين إلى أنها فى صدقة التطوع لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار ، فذلك أدل على أنه يراد بها الله عز وجل وحده وإن كان هذا لا يمنع من إظهارها لحمل الغير على الاقتداء بالباذلين المعروف الساعين فى الخير ، فينهج نهجهم وينسج على منوالهم ليعم الخير والتراحم ويزاد التواد والتعاطف ، وتختفى الحاجة والمسألة ، وتأتلف القلوب ، ويتعاون الناس على البر والتقوى فالإحسان له أثره الفعال فى التجاذب والتقارب ، واجتثاث السخائم وقتل العداوات ، وبت روح الطمأنينة وتوطيد أواصر المحبة بين أفراد المجتمع وقد أدرك صحابة سيدنا رسول الله ﷺ هذه المعانى من كثرة حثه عليه أفضلا وأزكى السلام على صدقات فكان بعضهم يعمل حمالا فى السوق ليحصل على القليل ويتصدق به رغبة فى امتثال الأوامر الشريفة .

روى البخارى عن أبى سعود الأنصارى رضى الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمرنا بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل فيصيب المد - أى فى مقابل أجرته - فيتصدق به ، وكانوا لا يحقرون الصدقة مهما ضؤلت وقل مقدارها استناداً لقول رسول الله ﷺ : ( اتقوا النار ولو بشق تمره ) رواه البخارى .

(1) الآية 180 من سورة آل عمران ونصها :

«وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» .

(2) سورة البقرة الآية 271 .

وعن عائشة رضی الله عنها قالت : « دخلت امرأة ومعها ابنتان لها تسأل فلم تجد عندي شيئا غير تمرة فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت .. الحديث » ومن تعاليم سيدنا رسول الله ﷺ أن يبذل الإنسان وهو صحيح معافى محب للمال ضنين به ، ولا يترك العطاء حتى تهجم عليه منيته وتفوته فرصة المبادرة إلى الخير ، ففي بذل المال مع وجود الشح به برهان على قوة الرغبة في القربات والمبادرة إلى الامتثال والدخول في الطاعة فعن أبي هريرة رضی الله عنه قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ » .

قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » وغالبا ما تكون الصدقة من أهل الخير على ذوى الحاجة ولكن المعتمد هو نية المتصدق فلو وقعت صدقة في غير موقعها لاستحق أجراها مع خلوص نيته لله تعالى وابتغاء مرضاته ، ولربما حصل منها الخير الكثير والجزاء الوفير .

وقد أورد البخارى حديثا عن أسر صدقة فوقعت في يد من ليس لها أهل ، فاعلم منا ما بثوابها وأنها لاقت من الله قبولا فعن أبي هريرة رضی الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« قال رجل لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق (بالبناء للمجهول) على سارق فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون تصدق على غنى فقال : اللهم لك الحمد ، على سارق ، وعلى زانية ، وعلى غنى فأتى (بالبناء للمفعول) فقيل له : أما صدقتك على سارق ، فلعله يستعف عن سرقة ، وأما الزانية ، فلعلها أن تستعفف عن زناها ، وأما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله .

وفي رواية الطبراني : « فساء ذلك فأتى في منامه » . قال العيني في كتابه عمدة القارى : « وفيه دليل على أن الله يجزى العبد على حسب نيته في الخير لأن المتصدق

لما قصد بصدقته وجه الله تعالى قبلت منه ولم يضره وضعها عند من لا يستحقها وهذا في صدقة التطوع .

وأما الزكاة المفروضة فلا يجوز دفعها إلى الأغنياء ويؤخذ منه أيضا تقع حمل المتصدق عليه على التحول من الحالة المذمومة إلى الحال الممدوحة فيستعف السارق من سرقة والزانية من زناها ولغنى من إمساكه ، ويدل على بركة التسليم والرضا وذم التضجر بالقضاء ، وقد مدح سيدنا رسول الله ﷺ صدقة السر فذكر من الذين يظلمهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله رجلا تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ففي ذلك خلوص الصدقة لوجه الله تعالى وحفظ ماء وجه المتصدق عليه وستره أمام العامة ، وخاصة إذا كان ممن عرفوا بالصلاح والتقوى أو من الذين أحنى عليهم الدهر بعد نعمة وثناء وكثيرا ما هم ، ومن ستر على مسلم في الدنيا ستره الله في الدنيا والآخرة .

2 - في توجيه هذا السؤال إلى رسول الله ﷺ من أزواجه ، دلالة على شدة تعلقهن به ، وخوفهن من البعد عنه ، ولهذا أحبين الموت - وهو مبغض إلى النفوس لئلا يلبثن بعده في الدنيا التي لا تحتويه ، ولا تسعد بوجوده فيها ، فالحياة بدون سيدهن هباء والبقاء فيها بعده فناء ومما يشهد لتولعهن برسول الله ﷺ ، وفقدانهن الصبر على فراقه حادثة التخبير التي وردت أخبارها في سورة الأحزاب وسجلت قرآنا يتلى إلى يوم الدين قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأزْوَاجِكُ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرَحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا<sup>(28)</sup> وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا<sup>(29)</sup>﴾ قال المفسرون : أمره الله عز وجل أن يخير زوجاته فربما كان فيهن من تكره المقام معه على الشدة تنزيها لها ، فقلن : اخترن الله ورسوله .

روى البخارى ومسلم - واللفظ لمسلم - عن جابر بن عبد الله قال دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوسا ببابه لم يؤذن لأحد منهم ، قال : فأذن لأبي بكر فدخل ، ثم جاء عمر فاستأذن فأذن له ، فوجد النبي ﷺ جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا ، قال : فقال والله لأقلون شيئا أضحك رسول الله ﷺ ، فقال يا رسول

الله : لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة ، فقمتم إليها فوجأت عنقها ، فضحك رسول الله ﷺ وقال : (من حولي كما ترى يسألنني النفقة فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده ... فقلن والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهراً أو تسعاً وعشرين .

ثم نزلت عليه الآية : « يا أيها النبي قل لأزواجك - حتى بلغ - للمحسنات منكن أجراً عظيماً » قال : فبدأ بعائشة ، فقال : يا عائشة ، إنني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب ألا تعجلني فيه حتى تستشيرين أبويك قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت . قال : ( لا تسألن امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعننا ولكن بعثنى معلما ميسرا ) وفعلت زوجات النبي ﷺ مثل ما فعلت عائشة . وهكذا لم تطب نفوسهن رضوان الله عليهن أن يفارقنه رغبة في صحبته التي لا تعادلها الدنيا وما فيها وأملا بالبقاء معه ليكون لهن الجزاء الأوفى عنده رب العالمين سبحانه ، ويفزن بمصاحبة رسول الله في جنات النعيم ، ولشدة ركونهن إليه كن يسألنه عن صاحبة الحظ الأوفى التي ستكون أولهن لحوقا به بعد موته وقد فهمن من طول اليد ظاهر القول فأخذن يقسن أيديهن بالقصبة وغيرها .

وفي هذا تقول عائشة : (فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا في الجدار نتناول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة ، ولم تكن أطولنا فعرفنا حينذاك أن النبي ﷺ ، إنما أراد بطول اليد الصدقة ، وكانت امرأة صناعة اليد ، وكانت تدبغ وتخرز وتصدق في سبيل الله .. قال الحاكم حديث صحيح على شرط مسلم ، وكن رضوان الله عليهن قد فهمن أن المراد الطول الحقيقي المادى ويبدوا ان سودة بنت ربيعة بن قيس بن عبد شمس العامرية - كانت أطولهن يدا على الحقيقة - وكانت من السابقات في الإسلام وهي أول من تزوجها رسول الله ﷺ بعد خديجة وكان قد توفي زوجها السكران بن عمرو العامري

بعد عودتها من الحبشة حيث كانت قد هاجرت معه إليها الهجرة الأولى ، وقيل كان قد مات بالحبشة وقد توفيت بالمدينة في شوال سنة أربع وخمسين من الهجرة الكبرى ، وأما زينب بنت جحش بن رثاب الأسدية فقد توفيت سنة عشرين من الهجرة فكانت أول نسائه لحوقا به ﷺ ، وما ورد - في صلب الحديث من أن سودة كانت أسرعهم لحوقا به ﷺ ، فهو من دخول الوهم على الراوى في التسمية كما قال محققو الحديث الشريف رضوان الله عليهم .

وهذا الحديث علم من أعلام النبوة ، وفيه جواز إطلاق الألفاظ المشتركة بين الحقيقة والمجاز بغير قرينة وهو هنا لفظ أطولكن يدا ، ولما كان السؤال عن الآجال وعلم نهاياتها عند علام الغيوب وحده ولا يعلم إلا بوحي أجايبهن سيدنا رسول الله ﷺ بلفظ غير صريح لا يستبين إلا في آخر الوقت عند حدوثه فعلا .

ولهذا لم يفهم أن المراد بطول اليد الصدقة إلا عند موت أم المؤمنين زينب بنت جحش أولهن بعد رسول الله وكان رضوان الله عليها أكثرهن تصدقا ، إذ كانت كما مر صناع اليد تعمل بيدها ، وتتصدق ، وفضل الصدقة تطوع وآثارها الحسنة في المجتمع الإنساني مما لا تفي به سطور ، وما أكثر ما حث عليها القرآن الكريم والسنة الشريفة وبرزت واضح جلية في فعال سيدنا رسول الله ﷺ فقد كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، واقتدى به أصحابه في البذل ، والعطاء مما حفلت به سيرهم جميعا عليهم رضوان الله وسلامه ، والسعيد الموفق من نسج على منوالهم وسار في دربهم واقتدى بفعالهم فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ، وليكن ختام هذا البحث قول الله تبارك وتعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَلْبَتَّ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (1) . صدق الله العظيم

(1) الآية 261 من سورة البقرة .

## خاتمة

وبهذا ينتهى الجزء الثانى من هذه الدراسة ، وأحمد الله جلت قدرته على عونه وتوفيقه ، وأرجوه تبارك وتعالى أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به كل من اطلع عليه وقرأه وعمل بما فيه من توصيات رسول الله ﷺ ، ثم بلغه لمن وراءه ، فرب مبلغ أوعى من سامع .

ولئن أنسأ الله فى الأجل فسأواصل تلك الدراسة أملاً فى رضوان الله تعالى وسداده قاصداً خدمة سنة سيدى رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، عسى أن يمن على برضاه وأن يديم لى حبه ، وأن يمكن لى وإخوانى من تبليغ دعوته وحسن عرضها ونفى الزيف عنها ، إن ربي سميع مجيب .

## ثبت بأهم المراجع

### (أ) القرآن الكريم وتفسيره :

1. تفسير ابن جرير الطبري .
  2. تفسير البحر المحيط لأبي حيان .
  3. تفسير روح المعاني للألوسي .
  4. الكشاف للزخمشري .
  5. تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي .
  6. تفسير المراغي للشيخ أحد مصطفى المراغي .
  7. تفسير لباب التأويل للخازن .
  8. تفسير معالم التنزيل للبغوي .
- (ب) كتب السنة الشريفة .

1. فتح الباري لابن حجر العسقلاني .
2. إرشاد الساري للقسطلاني .
3. عمرة القارئ للعيني .
4. زاد المسلم للشنقيطي .
5. شرح صحيح مسلم للنووي .
6. موطأ الإمام مالك .
7. مسند الإمام أحمد .
8. مسند ابن ماجه .

9. مسند أبي داود .
10. مسند الترمذى .
11. الطبرانى الأوسط والكبير .
12. مختصر الزيدى بشرح الشرقاوى .
13. مشكاة المصابيح بتحقيق الألبانى .

#### (ج) علوم السنة :

1. الباعث الحثيث لابن كثير .
2. هدى السارى لابن حجر العسقلانى .
3. قواعد فى علوم الحديث - ظفر الله التهانوى .
4. السنة قبل التدوين - محمد عجاج الخطيب .
5. السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى للسباعى .

#### (د) علوم اللغة :

1. لسان العرب لابن منظور المصرى .
2. القاموس المحيط وشرحه للفيروز أبادى .
3. مختار الصحاح .
4. المصباح المنير .
5. المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية بالقاهرة .
6. كتاب سيبويه فى النحو .
7. ألفية بن مالك الأندلسى وشرحها .

# فهرس الموضوعات

## (الجزء الثانى)

الصفحة	الموضوع
5	المقدمة .....
7	فطر نقية .....
14	البدعة فى الدين والمقصود منها .....
22	مراقبة الله تعالى .....
28	هذه أعمال دائم ثوابها .....
33	حول الإسراء والمعراج .....
38	المساجد الثلاثة .....
44	ورثة الأنبياء .....
48	معالم الطريق إلى النصر .....
54	الانتفاع بالزمن .....
58	بين الأمل والحقيقة .....
64	إلى أين نحن مسوقون ؟! .....
65	الفصل الأول : رجل عرف الله تعالى ، سؤال وارد ، الإسلام الحق .....
72	الفصل الثانى : علاج الإسلام للفقر والمرض والجهل .....
79	الفصل الثالث : الإسلام دين أخاء ومساواة ، أبعاد الحياة الإنسانية .....
85	حول النبوة : .....
93	هذه بصائر من ربكم .....
94	الفصل الأول : صديق ، قضايا الإسلام ، العقيدة ، كلمة التوحيد .....
101	الفصل الثانى : مفهوم الإله فى الإسلام ، أدلة وجود الله تعالى ، فى الفلسفات القديمة ، فى القرآن الكريم ، حجة إبراهيم على قومه .....
110	الفصل الثالث : جيل المادة البحتة ، علماء الكون المعاصرون والإيمان ، أسباب الإلحاد فى القرن الثامن عشر .....
117	الدعاة إلى الله تعالى .....
123	من الكلم الطيب .....
128	الحج والجهاد .....
134	قمة إنسانية .....

الصفحة	الموضوع
139	منهج الحياة فى الإسلام .....
144	قيم المجتمع الفاضل .....
150	السبع الموبقات .....
158	شباب من الأنصار .....
166	زهرة الدنيا .....
171	مرة أخرى (قيم المجتمع الفاضل) .....
176	المسارعون فى الخيرات .....
181	القرآن الكريم .....
188	الشهيد .....
194	العمل والعزاء .....
198	المسئولية .....
204	سيدى رسول الله ﷺ .....
209	حق الله وحق العباد .....
216	من أخطأنا .....
228	بين الخطأ والإكراه .....
228	التكافل الإسلامى .....
232	الهدى النبوى فى العبادة .....
238	الإيمان والعمل .....
248	يسألون عن الروح .....
254	درس من النبوة .....
261	هذا هو الحل .....
267	نزول عيسى عليه السلام من أشراف الساعة .....
275	حديث الغار .....
286	من توجيهات الإسلام فى الأزمات النفسية .....
294	صدقة التطوع وجزاؤها .....
301	ثبت بأهم المراجع .....
303	فهرس الموضوعات .....